

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY  
3 8534 01082 6877

DS  
500  
.T3  
193



Library of  
The American University  
at Cairo

**H**appy is the man that  
findeth wisdom and  
the man that getteth  
understanding .+ .+.+

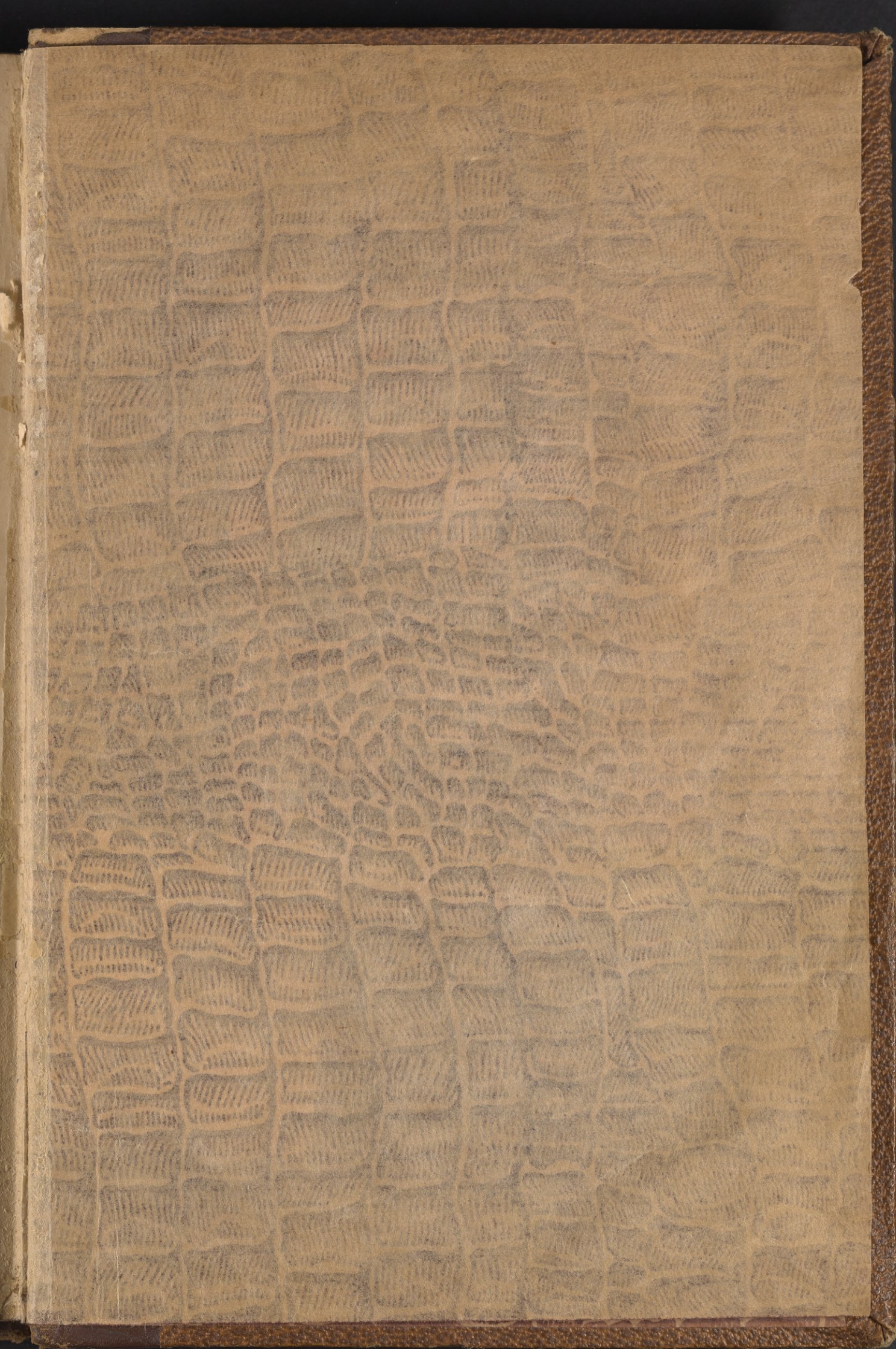
PROVERBS 3-13

Ex libris datis  
in memoriam  
James Polk Mc Kinney  
Pittsburgh, Pennsylvania











DS  
508  
FS  
1936

AMERICAN UNIVERSITY  
LIBRARY  
CAIRO

# جوليت في نوح اسبينا

بين مصر واليابان



من مشاهدات سائح مصري

محمد نايين

مدرس أول العلوم الاجتماعية بمدرسة القبة الثانوية

الناشر: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

« الطبعة الثانية »

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٦ — ١٣٥٤

مكتبة الامير السعيد  
شارع قصر النيل



AMERICAN UNIVERSITY  
LIBRARY  
CAIRO

915.2.  
T32 j  
Mck

910  
ج. ٢٥

21244



4 - 9  
439 - 447

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هأنذا أقدم للوطن المحبوب ولأبنائه المخلصين أولى جولاتي في ربوع الشرق بعد أن تقدمتها (جولتي في ربوع أوروبا) راجياً أن أكون قد أصبت بعض الشيء في تفهم تلك الشعوب التي تربطنا بها روابط عريقة توثقها العاطفة ، وأنى لأصورها هنا كما رأتها عين مصرية شرقية غير مغرضة ، لا تبتغي من وراء ذلك إلا النفع .

ولقد حاولت جهدى استقراء عناصر نهوضها وقعودها علماً نستشير بطرائقها الموفقة فنهتدى ، وعسانا نعتبر بما أصابها ، فنأمن العثار الذى يتهدد الأمم في فجر نهوضها وطور انتقالها ، ونحن أحوج ما نكون للمثل العليا نترسم خطاها — ولنا في اليابان أسوة حسنة فلنسلك نهجها ، ولنا في الصين وما يحوط نهوضها من قذى وشباك أكبر العبر ، سددها الله خطانا ، وهدى الوطن وأبنائه سبيلاً رشداً ؟

م. ك. ك.



## مقدمة الطبعة الثانية

لقد كانت رغبتى الأكيدة ، يوم بدأت جولاتى ، فى ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات ، وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتاباً يضم مشاهداتى عن البلاد التى زرتها .

وكم كان سرورى عظيماً أن تهافت أبنائى البررة وزملائى الكرام على اقتناء هذه « الجولات » ، حتى نفذت الطبعة الأولى ، وهأنذا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن لم تسعد « جولاتى » بشرف اقتنائهم لها ، فأقدم الطبعة الثانية ، بعد أن أعملت فيها يد التهذيب ، وأضفت إليها من مذكراتى بعض ما كنت قد أغفلت نشره فى الطبعة الأولى .

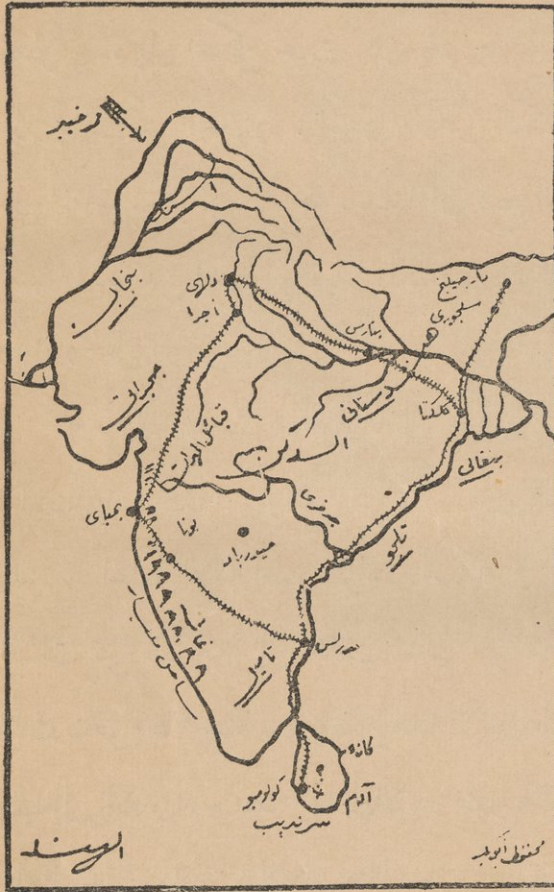
وإنى لسعيد إذ أرى « مصر » تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التى قصدت إليها جولاتى هذه .

ولقد زادنى غبطة ما لاحظت من أن كثيراً من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات ، حتى لقد تحدثت إلى فى ذلك غير قليل من حضراتهم ، ولعلمهم يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتى أن نرف إلى أبناء هذا الوطن العزيز ، بلغته العربية « كتاب الدنيا » يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم ، وأخرى تخلفت ، وعسى يكون لنا من هذه أحسن العبر ، ومن تلك أجمل الأثر .



# الهند

٤



## نبذة تاريخية : قصة

الهند سلسلة من غارات شنها أقوام متعاقبون وفدوا من الشمال الغربي وبخاصة عن طريق ممر خيبر وأخضعوا البلاد لسلطانهم . ويتلخص تاريخ الهند في عصور ثلاثة : عصر الهندوس بين ٢٠٠٠ ق م و ١٠٠٠ م والعصر الإسلامي بين سنة ١٠٠٠ و ١٧٥٧ ، وعصر سيادة الأوربيين ويبدأ من سنة ١٧٥٧ .

## العصر الهندوسي :

ولا نعرف مبدأه بالضبط ، وغاية ما نعرف أن كثيراً من الشعوب الآرية لبثوا يهاجرون من بلاد الفرس وأواسط آسيا واحتلوا شمال الهند وأخضعوا السكان الأصليين . ولقد اهتمدنا مما ورد في بعض الأساطير أن هؤلاء كانوا مشغولين بالزراعة وأن الرباط العائلي كان ميثاقهم الاجتماعي منذ البداءة ولم يكن لهم معابد ولا أنصاب ، وغاية ما هنالك أن رؤساء الدين منهم كانوا يوقدون النار المقدسة كل في حظيرته ويقدمون القرابين من أغذية وغيرها لنور آلهتهم اعترافاً بنعمائهم ، وكانوا في صلاتهم يتوسلون أن تنصر الآلهة النبلاء الآريين على ذوى

طريقنا إلى الشرق الأقصى يناهز ٨٠٠٠ ميل ذهاباً ومثلها إياباً ، وهنا البلاد التي حللناها في الهند وبعض اللغات السائدة وضع تحتها خط



البشرة السوداء ، ومن ذلك نستنتج أن فوارق الألوان والطبقات نشأت في الهند منذ القدم .

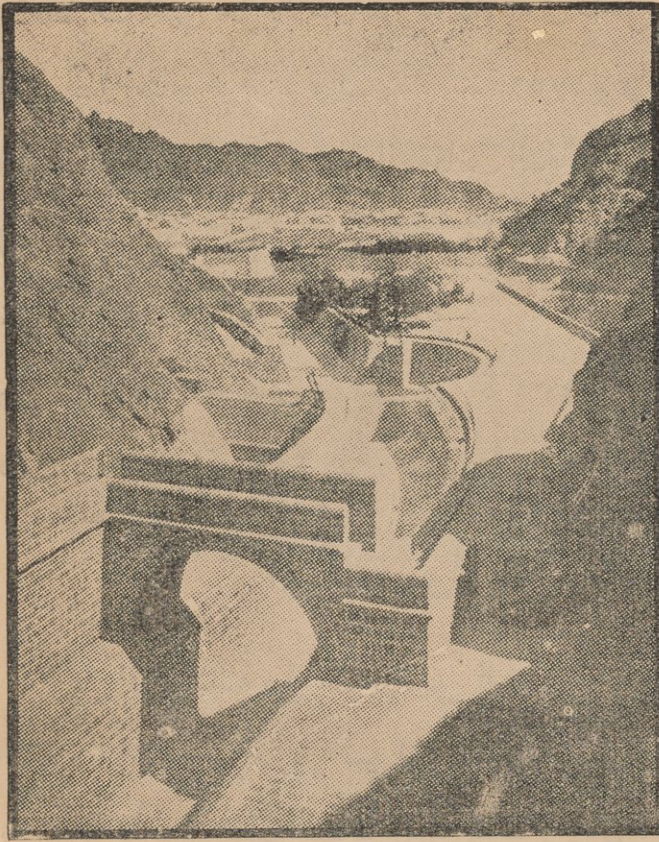
ولم يتقدم الآريون في فتحهم إلا في الشمال حتى جبال ( Vindhya ) ، وقاما تخطوا هذه إلى الدكن حيث كان يقيم جماعة ( الدرافيديين ) الأشداء الذين كانوا على جانب من الحضارة . أما في حوض الكنج فقد ترعرعت دول كبيرة قامت على أنقاض القبائل المتفرقة . ولما أن فتح الاسكندر الهند سنة ٣٢٦ ق م وجد أمامه عدداً من الدول والقبائل المستقلة ، وكان الملك الذي قهره أدوات حربية وفيلة وخيل ورجل .

بعد ذلك قامت دولة قوية في حوض الكنج تحت حكم شندرا جوبتا ( chandragupta ) وسع ملكها ما بين الشاطئين ولبثت سيادتها ١٥٠ سنة ، ومن عواهلها الامبراطور الزاهد أسوكا ( Asoka ) الذي قرأنا مراسيمه التي نقشت على الصخور إلى جانب تعاليم جوتاما بودا الذي بدأت تعاليمه الخلقية قبل ذلك بنحو ٢٥٠ سنة ، وبفضل هذا الإمبراطور ساد مذهب بوذا في الهند وانتشر منها إلى الصين ، وبعد انحلال الإمبراطورية المورية ( Mauriyan ) أغار السنديون على البنجاب ولبثت ولاياتهم هناك حتى أعقبتهم أسرة تركية عرفوا بملوك الكوشان ( Kushan ) وهؤلاء فتحوا البلاد إلى بنارس شرقاً .

وفي القرنين الرابع والخامس الميلادى ساد قبائل الآريين تحت ملوك جوبتا ( Gupta ) ، وهذا يعد العصر الذهبي للهندوس ، إذ بعده بدأ يتشتت شملهم بدخول الهون ( Huns ) سنة ٤٨٠ ، وهؤلاء زالت دولتهم تماماً بعد ٣٠٠ سنة حين ساد الاضطراب فقام بعض قبائل الراجبوت ( Rajput ) وأقاموا لهم دولاً متفرقة حول غالب المدن الهندية الكبرى على أن التنافس والتنازع بينهم لم يمكنهم من تكوين جبهة متحدة أمام الفتح الإسلامى الذى بدأ سنة ١٠٠٠ ميلادية .

**العصر الإسلامى :** لما أن اعتنق سكان وسط آسيا الإسلام قاموا





بدعايتهم الدينية  
يقتحمون بلاد العالم بما  
أوتوا من شدة وبأس ،  
ولبثت جموع الترك  
والأفغان والمغول تغير  
على الهند من ممر خير  
وتقاتل لبسط نفوذها  
هناك خمسمائة سنة ،  
وأخيراً أقام بابر  
( Baber ) التركي دولة  
المغول سنة ١٥٢٦ ،  
فحكم هؤلاء الملوك  
الهند حكماً مطلقاً لمدة

( شكل ١ ) مستودع المياه ذائع الصيت في عدن

١٨٠ سنة كانوا خلالها مثال البأس الشديد ، وبلغوا من الترف ما أدهش العالم ،  
تشهد بذلك مبانيهم الفخمة وحاشيتهم الفاخرة ، وكان عصرهم الذهبي في عهد شاه  
جهان ( ١٦٢٧ — ١٦٥٨ ) وقد استخدموا الهندوس والراجبوت في الأعمال المدنية  
( خصوصاً الزراعة ) والعسكرية ، وبدأت دولتهم تنحل لما أن عجز ( أورانجزيب )  
عن رد قبائل الماهراتا من شعوب الدكن الشرسة ، وكاد يعود النفوذ للهندوس  
حتى باغت الهند جيش فارسي من ممر خير وأباد قوى الهندوس .

**العصر الانجليزي :** بينما كان هذا الاضطراب الداخلي سائداً تقدم  
الفتح الأوربي من البحر فأسس تجار البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا لهم محطات  
تجارية . ثم تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ لتزيد الموارد التجارية ،  
وقد مكنت سيادة الأساطيل البريطانية الإنجليز أن يغلبوا منافسيهم ، وكان



الاضطراب الذى حل بالامبراطورية المغولية فى داخل الهند مبرراً لتدخل الإنجليز تحت ستار متاجرهم فهزم نواب بنغاله سنة ١٧٥٦ ونواب أوده سنة ١٧٦٤ وبدأت الشركة تباشر السيادة الساسية إلى جانب التجارية كى تحافظ على المقاطعة الشاسعة ( بنغاله ) ولكثرة مشاغلها السياسية وحروبها تدخل البرلمان الإنجليزى فى شؤونها ، فحفظ لنفسه حق الإدارة والتشريع ، وكان للشركة تعيين الحاكم العام وفى سنة ١٨١٧ خضعت طوائف المهراتا ، وفى سنة ١٨٤٥ أمم السيخ ، وأعقب ذلك عصيان سنة ١٨٥٦ الذى ضمت على أثره الهند للتاج البريطانى .

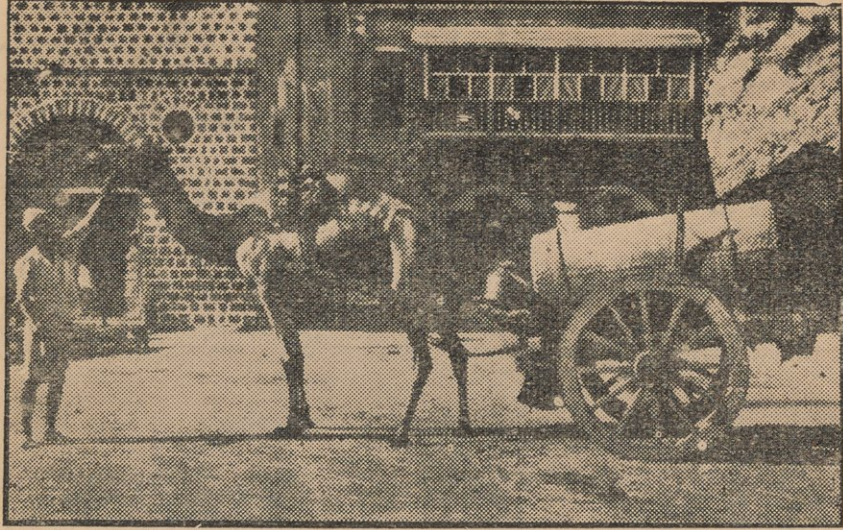
٧

## الى عدن وأرض سرنديب

ما وافت الثالثة من مساء الخميس الرابع من يونيه سنة ١٩٣٢ حتى أقلعت بنا الباخرة اليابانية ( سوامارو ) تسير الهوينا وهى تشق مياه قناة السويس جنوباً وكانت بين آونة وأخرى تقف منتحية جانباً لتفسح المجال للبواخر التى كانت وافدة من الجنوب خشية أن يحدث مرور السفينتين معاً تفرغاً فى الوسط يدفع بهما إلى التصادم ولم نصل السويس إلا الخامسة صباحاً وبعدها أوغلنا فى خليج السويس ولبثنا بجانب الشاطئ المصرى وكانت ذرى جبال سيناء المقدسة ترى فطرة إلى يسارنا وفى السادسة مساء أتيننا على آخر الخليج وأوغلنا فى البحر الأحمر الصميم وكان بدء خليج العقبة يبدو على بعد منا جهة الشرق وكانت أسراب السمك كبير الحجم تقفز من حولنا ولبثت تهاجمنا جموع الجراد فى كثرة مخيفة رغم أننا كنا نبعد عن الصحارى المجاورة بمسافات شاسعة وسرعان ما شعرنا بزيادة محسوسة فى درجة

ملاحظة — نرى أن كل الغارات التى فتحت الهند وفدت عن طريق ممر خير أمنع الممار الطبيعية فى الدنيا ( إذا استثنينا فتوح البرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا التى جاءت عن طريق البحر ) ، نذكر من بينها فتح الاسكندر سنة ٣٢٦ ق م الذى خلف فى الهند أثر الحضارة الاغريقية ، وجنكيز خان ، وإن لم تتعد فتوحه هناك جهة السند وتيمورلنك الذى تقدم إلى دلهى وفى القرن السادس عشر جاء خلفه بابر فأسس دولة المغول التى ظلت إلى أن جاء حكم الانجليز .





( شكل ٢ )

الماء العذب ثمين في عدن المجدة وهو يوزع بالعربات وبيع في الحوانيت

الحرارة في الهواء والماء وظلت تتزايد باضطراد في شدة لا تحتمل حتى تضايقت أنفاسنا ولم نستطع النوم ليلتين كاملتين ، وليس في الهواء من نسمة تنعشنا بعض الشيء بل ظل الهواء طوال أيامنا الأربعة في البحر الأحمر راكداً خانقاً ، وكانت حرارة الماء أشد من حرارة الهواء خصوصاً عند عودتنا في سبتمبر ، وتلك بقية من وهج يونيه حفظتها المياه لأنها رديئة التوصيل للحرارة ؛ ولقد استنجدت بنا سفينة أرهاق ركابها الحر حتى أشرفوا على الهلاك لافتقارهم إلى جانب من الشايج تساهمنا برقيتها اللاسلكية لكننا لم نستطع معاونتها لحاجتنا نحن إلى ما كان عندنا من جليد ؛ وأذكر أني ورفاقي كنا نسمي البحر الأحمر على سبيل التفكهة ( Bloody Sea ) من شدة ما قاسينا من حرقضه ، وكانت تبدو على بعد ازاء شواطئه جزائر صخرية مجدبة يكاد يحرقها لفح الشمس ؛ وفي مساء اليوم الرابع دخلنا بوغاز باب المندب ومررنا بجزيرة يرم الانجليزية في وسطه وما كدنا نبرحها داخلين في خليج عدن حتى تنسم الجو وشعرنا بانتعاش كبير وبعد ذلك بساعات أقبلنا على :



عدن : فرسونا في تقوس من البحر تحفه الصخور القديمة العاتية من  
 الشيست المهشم في حمرة قائمة أو سواد منكر عريت عن النبت في كل مكان .  
 استقلينا الزورق الصغير ونزلنا الشاطئ وعلى امتداده تقوم الأنزال والمباني الرئيسية  
 وفي طرفها الجنوبي المعسكرات والمعازل التي اختير من أجلها المكان ، فكان مفتاح  
 البحر الأحمر ، وقد أقلتنا سيارة عشرة كيلو مترات إلى الحى الوطنى المترب القذر  
 بعد أن اخترقنا ممرا بين الربي كأنه النفق يعلوه سور قديم يمتد بعيداً ، وكان طريقنا  
 يعلو ويهبط بين ربي ووهاد صحراوية مجدبة ، والحى الوطنى هو عدن الحقيقية في  
 وهدة أصلها فوهة لبركان خامد بيوتها واطئة ومن طابق واحد ، وتطل باللون  
 الأبيض ، وفوق المرتفعات رأينا مستودع المياه الذى يمد المدينة كلها وهو بمرشحاته  
 وأحواضه يشغل مساحة كبيرة ، ويطلق عليه القوم ( حوض سليمان ) ظنا منهم أنه  
 قديم يرجع إلى ذاك العهد ، وبعضهم يرى أنه بنى سنة ألف قبل الميلاد ؛ ولقد  
 أصلح سنة ١٨٥٦ ولما كان المطر هناك نادرا والماء عظيم القيمة حافظ القوم على  
 كل قطرة تسقط منه فيسيل المطر في وديان وأخاديد جافة تؤدى إلى الحوض ،  
 وأنت ترى سلسلة من أحواض الواحد فوق الآخر بحيث إذا امتلأ أعلاها فاض  
 الماء إلى الثانى ثم الثالث وهكذا ويسع في مجموعه ثمانية ملايين جالون ، والحوض  
 الأعلى يتصل بمجموعة من آبار في قرية تبعد عن عدن بسبعة أميال ، وقد لا يفي  
 كل ذلك بحاجة المدينة من الماء فيرشح ماء البحر لسد العجز ، وغالب ماء الشرب  
 من تقطير ماء البحر لأنه أنقى وأبعد عن التلويث وعلى شاطئ البحر مكان الملاحات  
 يرفع ماء البحر بمضخات فيتبخر ويترشح الملح فيستغلونه ويصدرون كثيراً منه ،  
 وكنا نرى على بعد بقايا لسكة حديدية كانت تصل عدن باليمن لكنها هدمت لأن  
 إمام اليمن أبى عليهم بقاءها ، وفي تقوس من البحر نأتى جهة يسمونها ( الشيخ عثمان )  
 غنية بالمزارع ومن خلفها تبدو جبال اليمن فاترة ، وسكان عدن ٣٥ ألفاً غالبهم من  
 العرب بقاماتهم النحيلة ووجوههم الشاحبة ، ثم الصوماليون بسخنهم الجميلة في





( شكل ٣ ) أمام مدخل عدن ويبدو السور القديم  
فوق الرابي الجديدة

سواد براق وأنوف شماء وشفاه  
رقيقة ثم يليهم الهنود ، ولغة  
البلد السائدة العربية بتحريف  
بسيط ويتكلم غالبهم الإنجليزية ؛  
وعدن حماية بريطانية عليها  
حاكم يتصل بحكومة الهند ،  
ونقودها هي نفس النقود  
الهندية التي لا تزال تتخذ  
الفضة قاعدة لها .

احتلها الإنجليز سنة  
١٨٣٧ ولاحتلالها قصة معجبية :  
ذلك أن سفينة إنجليزية  
تخطمت على صخور عدن

فأساء أهلها معاملة من نجوا منها ، فأعقب ذلك أن طلبت الحكومة البريطانية  
شيئاً من الترضية والتعويض من السلطان فأجيبته مطالبتها ، لكن السلطان قد  
مات وخلفه ابنه الذي لم يبر بوعده أبية ، فلجأ الإنجليز إلى القوة وفتحوها عنوة  
ووضعوا فيها حامية صغيرة ، وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة  
١٨٥٨ ، ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية هامة  
أذ عدت مفتاح البحر الأحمر خصوصاً بعد ما سارعت إنجلترا إلى احتلال جزيرة  
( يرم ) وسط بوغاز باب المندب ، وكانت فرنسا تتطلع إليها من قبل وأعقب ذلك  
احتلال الصومال البريطاني قبالتها ، لأنه المورد الرئيسي الذي منه تستمد عدن  
ويرم الصخريتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء .

لبثت الباخرة طوال النهار تحمل وسقها من الجلود الخام وأقاعت عند الأصيل



وكما أوغلت بنا في المحيط الهندي أرغى ماؤه وعلا موجه كالجبال مما جعلنا نؤمن  
بعظمة المحيط الذي بدأت تجتاحه الرياح الموسمية دافقة صوب الهند في عنف كبير  
ولبثنا في شدته هذه ثمانية أيام حتى أقبلنا على جزيرة سيلان ، وكنا من يوم ركوبنا  
نلاحظ سرعة في اختفاء ضوء الشفق إذ كان الظلام الحالك يرخي سدوله عقب  
غروب الشمس مباشرة شأن سائر البلاد القريبة من خط الاستواء .

### جزيرة سرنديب

وفي باكورة اليوم الثاني عشر من مغادرتنا بور سعيد تجأت كولمبو بمينائها  
الكبير ، وقصورها السامقة في أحيائها الافرنجية ، وما أن بدت طلأع الحى الوطنى  
— وهو غالب المدينة — حتى راعنا منظر الناس البشع في مظهرهم القذر ،  
وجسومهم العارية ، وألوانهم الشاحبة ، ونظراتهم الخيفة . فهم يترامون حولك  
كالدويبات لا تدرى من أين يفدون في جماهير لا حصر لها فكأنهم يحشرون  
إليك حشراً في فقر مدقع وبؤس مبيد ، يسكون بتلايبك ملحفين جميعاً في طلب  
معونتك المادية .

ويزيد منظرهم قبحا أفواههم المفتحة وكأنهم البلهاء يعضون عشباً أخضر  
يباع في كل مكان ، وبمجرد ملامسته للعباب يبدو وكأنه الدم يلوث  
أفواههم ولا ينفكون يعضونه أينما كانوا ، وهم يعتقدون أنه مصلح للأسنان  
ومسكن للأوجاع ومكسب للمناعة ضد المرض بين أفراد شعب غداؤه نباتى شحيح  
وشجره يسمى بيتل ( Betel ) مقدس لديهم ولذلك فهم يلفون في ورقه النقود  
والقرايين التى يقدمونها للآلهة منذ القدم وعند مضغه يضعون داخل الورقة الخضراء  
فتات بندق اسمه ( أريكا ) وفتات الجير من أصداف البحر أو المرجان ، وترى  
حتى النساء والأطفال دائبين على مضغه في مرأى تعافه الأعين وتشمئز منه النفوس  
طال تجوالى في تلك الأحياء وأنا أركب الركشا وهى المطية الرئيسية هناك





( شكل ٤ ) أحد طرق عدن الرئيسية

أشبه بعربة صغيرة من عجلتين يجرها رجل بأس كنت أشعر بالألم الشديد من أجله وهو يجرى في ذلك الحر القائن وكأنه الدابة المجهدة . زرت هناك معبدتين أحدهما لبودا أكبر آلهة الجزيرة إذ يدين به غالب السكان وفيه تماثيل بودا في أحجام كبيرة وتزين الجدران صورة نعرف منها قصة بودا منذ كان شخصاً عادياً فأضحى أميراً ثم صعد إلى السماء فأصبح إلهاً ، وعند دخولنا تقدم إلينا بعض القسس بزهور الفل والياسمين ملأنا منها سلة صغيرة دفعنا ثمنها وحملناها إلى قدمي الإله حيث أخذنا ننثرها كما يفعل القسيس الذي كان يرش بين آونة وأخرى جانباً من ماء الورد يعطر به المكان .

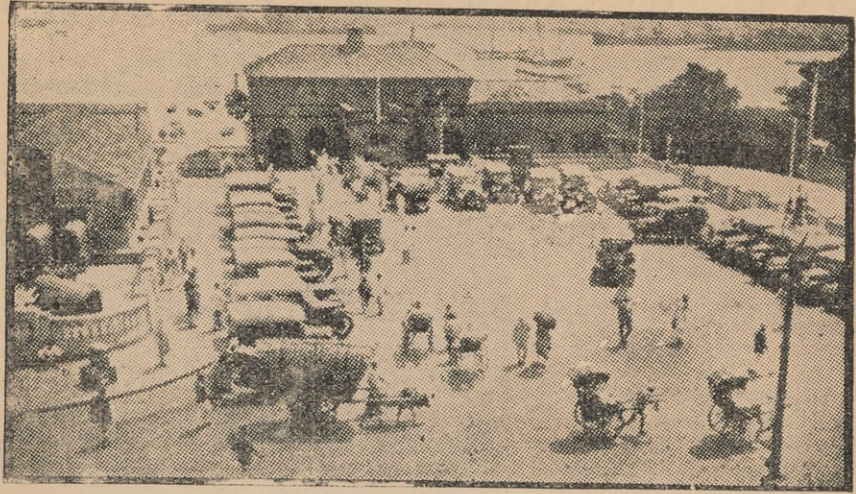
أما المعبد الثاني فهندوسى نظرنا إليه من الخارج أذ لا يباح للأنجاس من الغرباء عن الدين أمثالنا أن يطأوا داخله رغم ما كان يلوته من أقدار ويحوطه في الخارج من زرافات المتسولين والفقراء والعراة في أشكالهم القذرة المنفرة وخير ما نراه في الأحياء النظيفة من المدينة صخرة لافينيا التي تشرف على البحر بتقوسات جذابة ، يحفها نخيل النرجيل ويتوجها نزل فاخر تناولت فيه



الشاي ذائع الصيت ، وبعد ذلك قصدت إلى حديقة النبات التي نسقت إليها تنسيق تزينها الفصائل الوفيرة لنبات المناطق الحارة .

**إلى كاندى :** أقلتنا سيارة من كولمبو واخترقت بنا طريقاً طوله ٧٢ ميلاً صوب كاندى العاصمة القديمة للجزيرة ، أما مناظره فساحرة تملك اللب فكانت السيارة تسير في ليات عجيبة تصعد خلالها ربي شاهقة ثم تهوى وهاداً سحيقة تجرى من تحتها الأنهار ذات المساقط والشلالات الرائعة كل ذلك وسط الادغال الملتفة والغابات الكثيفة التي تجت رهبته في سكونها وتعدد فصائلها وتنوع زهورها ، ولذلك لم نعجب أن عدها بعض القوم أجمل طرق الدنيا قاطبة ، وبين آونة وأخرى كنا نلمح على بعد فيلة تمرح في فجوات الغابة أو تغتسل في ماء الغدران أو تجر أثقالاً وتحمل أعباء تسير بها في غير اكتراث ، وأسراب الطير الأخضر لا تدخل تحت حصر . وجموع القردة يداعب بعضها البعض ويقترب منها الأطفال في روحاتهم إلى المدارس بجسومهم الناحلة العارية وعيونهم الغائرة البراقة حتى لقد أشكل علينا الأمر فخلناهم بادی الأمر من جنس واحد ، وأخص ما استرعى نظرنا من النبات الوفير الشاي الذي كان يسود مدرجات الجبال من حولنا وتصف شجيرات في ترتيب جميل كأنها الأقبية الصغيرة في ورقها القاتم النحيل وهي تحكي شجيرات القطن الصغيرة ، والفتيات يقطفن أطرافه الغضة ثم يقمن بتشذيب الشجر لموسم القطف الثاني ثم للثالث ، وعجيب أننا لم نلمس في ورقه رائحة للشاي قط ذلك لأنه يتطلب عملية شاقة في إعداده كي يخلو من الرطوبة ثم يطوى باليد ورقة ورقة ويبخر في درجة حرارة معينة وعندئذ تظهر رائحته ، وكنا نرى مصانعه مبعثرة وسط مزارعه ، وقد دخت أحدها وعلمت منه أن مجموع المساحة المزروعة في الجزيرة كلها تناهز اليوم نصف مليون فدان انجليزى (ايكر) ولقد انتشر أخريات القرن الماضى بعد أن حل محل البن الذي أصابته آفة قضت عليه عند ذاك





( شكل ٥ ) المرسى الرئيسى فى ثغر كولبو

وأشهر نبات الوهاد الأرز ذاك الذى سويت له جوانب الوهاد فى مساطب أفقية يعلو بعضها البعض ويكاد يفرقه الماء ، أما غابات النرجيل فحدث عنها تملأ الآفاق بشجرها نخيل القامة فى ميل إلى المنحدرات دائماً وأزاء السواحل يميل نحو الماء حتى إذا ماسقط حملته الأمواج بعيداً فإن ألقت به على شاطئٍ نما ونشر بذلك جنسه ، وتحمل الأشجار وسقاً ثقيلاً بعضه أصفر اللون صغير الحجم والبعض ضخيم عظيم الحجم ، ونرى القوم هناك يستغلونه استغلالاً عجيباً فهم يديعونه أخضر لى يرتقوا بمائه الحلو ، وكان يعرضه القوم فى المحاط مقابل مايم واحد لكل واحدة ، وإذا ما نضج سلخوا عنه قشرته الظاهرة القاسية بطريقة تتطلب جهداً كبيراً ، ومن اللب يتخذ الزبد لدهان الجسد اتقاء الحر وطلباً للبرء من الأمراض وما بقى يضغط فى أقراص تسمى ( الكوپرا ) أو البسباسة ، ولعظيم فائدته كثر السكان حيث يعم شجره فهو مورد لهم رئيسى ، وقدرت مساحة غاباته فى سيلان بنحو ٨٣٠,٠٠٠ فدان انجليزى

وكانت تسترعى أنظارنا كثرة أنواع الفاكهة التى نجعل أغلبها من بينها المانجوستين والدوريان والبيوا وكثير غيرها أما الموز فغذاء رئيسى للعامة يعرض فى كل مكان حتى فى حانوت الحلاقين وعند بائعى الأقمشة ويعلق أمام الحوانيت



في (عراجين) في أحجام مختلفة قد يبلغ الواحد الأمتار طولاً وهو على أنواع عدة ،  
وكنا نلاحظ القوم يسدون به رمقهم أينما حللنا أما ثمنه فرخيص جداً إذ كنا نبتاع  
العرجون بنحو قرشين .

وقد بدا لنا في الناحية الجنوبية من الطريق جبل آدم بذروته الشاهقة وعليها  
طابع شبيهه بالقدم طوله زهاء متر ونصف وعرضه نحو ثلاثي متر يظنه البوديون طابع  
قدم بودا والهندوس سيقاً والمسلمون آدم حين طرد من الجنة ، ويحج إليه الكثير  
ويتسلقون المنحدرات الوعرة ممسكين بسلاسل عتيقة وإذا ما وصلوا هنالك دخلوا  
المعبد وقدموا قرايئهم ونثروا زهورهم ثم يركع الأطفال ليباركهم آبائهم وجباههم  
تلامس طابع تلك القدم المقدسة

وقبيل الوصول إلى كاندي دخلنا حديقة النبات وتعد من خير حدائق الدنيا  
حوت كل فصائل نبات سيلان وفيها بدأت زراعة الكينا والسكاكاو والمطاط  
وبها من حقول التجارب والمشاغل شيء كثير أخص بالذكر منها مجموعة التوابل  
من بينها جوز الطيب والفلفل والقرفة والوانلا والزنجبيل وأخيراً دخلنا المدينة التي  
كانت يوماً ما مقر ملوك السنهاليين وهي تقع في وهدة ارتفاعها ١٦٠٠ قدم تحوطها  
الربي التي تكسوها الأدغال والغابات وتتوسطها بحيرة ممطوطة نسقت شواطئها أيما  
تنسيق وفي قلبها جزيرة صغيرة يزينا نخيل النرجيل الأنيق ويشرف عليها نزل  
جلسنا فيه وتناولنا الشاي العبق اللذيذ .

ولعل أشهر ما في المدينة معبد ( سن بودا المقدسة ) وهو ممدود الأجنحة  
متشعب المقاصير ، ويعتقد القوم أن بودا دفن قبلي جسمه ولم تبق إلا سن واحدة  
أقيم حولها المعبد في القرن الرابع عشر وأحرقه البرتغال سنة ١٥٦٠ فأبدلها ملك  
كاندي بقطعة من عاج طولها ثلاث بوصات توضع في صندوق من ذهب ، وعليها  
يقوم تمثال كبير من ذهب خالص لبودا ، فراعنا منظر الحجاج وهم ركع وسجود  
تدر الدموع من مآقيهم وتلمس أيديهم أقدام الإله ، وقد كدست حولها وريقات





الياسمين في رائحة جميلة ،  
وبعد أن ابتاع كل منا سلة  
الياسمين تسامها قسيس فنثرها  
عند تمثال الإله ، ومما زاد  
المكان رهبة الطبول المزعجة  
التي كان يقرعها القوم في  
ردهة المسكن ، ودخلنا  
مكتبة المعبد التي حوت جميع  
تعاليم بودا يكتب غالبها على  
شرائح بيضاء من لفائف  
نباتية ناعمة الملمس كأنها  
ورق البردي يلف غالبها  
بالحرير تحوطه أسلاك الذهب

( شكل ٦ ) في الطريق الساحر بين كولبو وكاندي

وقضبان الفضة ، ويقال إن المعبد أجل معابد بودا وأكبرها على الإطلاق ،  
وفي أغسطس تقام حفلة بيراهيرا حيث تحمل السن المقدسة على هودج من حرير  
مرصع تغطيه قبة من ذهب فوق ظهر فيل يبالغون في تزيينه يتبعه قطار من  
٦٢ فيلا أخرى ، وتفرش له الأقمشة لكيلا يدنس وحل الطريق طهارة ما يحمله  
والديانة البوذية هي السائدة هناك .

الى الهند : قمت من محطة كولبو صوب شمال الجزيرة ولبث القطار زهاء  
١٢ ساعة يسير في أراض جميلة كثيرة النبات ، ولما أن قاربنا الطرف الشمالى  
للجزيرة انفسحت سهول جافة رملية ، وكنا نرى أحواضاً كبيرة يدخر فيها القوم  
الماء فيرتوى منه أهل القرى طوال العام ، ويبلغ عددها اليوم ٥٢٠٠ تقوم بإصلاحها  
مصلحة الأشغال ، وكثير منها يرجع إلى العصور القديمة تحت شعوب ( السنهاليين )  
( ٢ — آسيا )

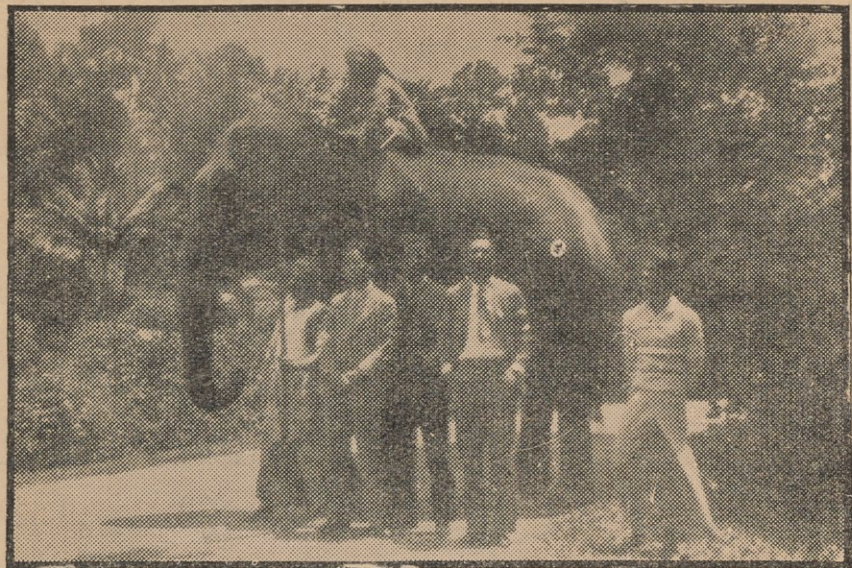


جنوباً ( والتاميل ) شمالاً ، وهما الشعبان السائدان في الجزيرة ، ولكل لغته الخاصة ؛ وفي البلاد أقلية من العرب المسلمين بيدهم غالب التجارة ، فهم أشبه باليونانيين عندنا في نشاطهم ، وأخيراً بدا البحر وعبر القطار قنطرة طويلة إلى جزيرة ( مانار ) ، وهناك غادرنا القطار وحللنا السابحة التي سارت في بحر غابت عنا سواحلها ساعتين وكنا بجانب جسر آدم وهو مكان ضحل من البحر ترغى عنده الأمواج وكأنه الجسر ، وهنا أقبل رجال الجمارك وقتشوا حقائبنا ، ودهشت لما علمت أن سيلان ليست تابعة لحكومة الهند بل لوزارة المستعمرات مباشرة ، فلها حكومتها وجماركها وقوانينها الخاصة بها .

ولقد هالني وأنا في السفينة تعدد السحن والألوان والأزياء ، وقد عدت من الأزياء نحو الثلاثين ، فالبعض يلف نصفه الأسفل بملاءة ملونة ، والبعض يشحذها من تحت الفخذين ، والبعض يرتدى سراويل ، وآخرون عرايا يسترون العورات فحسب وهكذا .

وقد رافني منظر غني خلته سيدة بادي ذى بدء لأنه كان يتدثر بملاءة بيضاء فضفاضة ويتزين بالخواتم الثقيلة في جميع الأصابع وفي يديه السوار العريض وفي آذانه قرط لامع وفي رقبته عقد خاطف ، وكان يتهادى في مشيته وكأنه الحسناء ، ويحاول الجميع التزين ما استطاعوا رجالا ونساء وتزيد زينة النساء بلبس الخواتم في أصابع القدم كلها وبوضع قطعة من فضة في جانب الشفة وأخرى في جانب الأنف ، ولقد رأيت إحدى السيدات الغنيات تسير عارية القدم ومن حولها الخدم حتى ركبت عربتها الخاصة . ولقد تعبت جداً في البحث عن مساح للأحذية فلم أجد رغم كثرة أبناء السبيل والعاطلين ، والنساء سافرات وليس في وجوههن مسحة من جمال ، وتنوع أزيائهن لكن غالبهن يتركن الجزء الأعلى من الجسم عاريا ، أما الأقدام فعارية على الدوام .





( شكل ٧ ) الفيلة تمرح خلال الغابات الكثيفة بين كولومبو وكاندى

## الهند

الى مدراس : وصلنا أرض الهند وانتقلنا إلى قطار آخر سار بنا في سهول رملية كأنها الصحراء غالبها مهمل عار عن النبت وكلما قاربنا مدراس زاد الخصب نوعا ، وبعد ٢٤ ساعة دخلنا مدراس فبدت مدينة مقبضة ليس بها ما يروق السائح فغالبا أحيائها قدر منفر ، أما أحيائها الافرنجية فلا بأس بها ، ومن بين مبانيها الفاخرة القلعة التى تشرف على البحر بشواطئه الرملية التى لا تصاح لايواء السفن لذلك لم يكن لمينائها شأن كبير فى التجارة ، وعلى امتداد طريق البحر قسم اسمه ( مارينا ) مستحدث التنسيق يقوم فيه كثير من تماثيل عظماء الانجليز وأجل أبنيته قصر نواب مدراس الذى احتله الانجليز وهو فى هندسته خليط من المغولية والعربية وبجانبه مسجد صغير أنيق ، والقصر اليوم خاص باجتماع مجلس السناتو . ومن الأبنية الجديدة بالذكر قصر الحاكم الانجليزى ودار القضاء والبريد والبلدية وكلها بالآجر الأحمر ، ولقد كدت أختنق فى هذه المدينة من شدة الحر وكثرة الرطوبة فقد بلغت الحرارة ١١٥ ف ، وأذكر أننى دخلت أكبر متنزهاتها



فلم أستطع التجول خطوة واحدة بل ركبت الركب التي طافت بي كل أرجاء المتنزه ،  
وفي جانب منه حديقة للحيوان حقيرة جداً لا يسترعى النظر بها إلا مجموعة الأفاعي ،  
وفي المدينة متحف صغير به بعض الخلفات الهندوسية القديمة أعجبها في نظري  
( عامود الضحايا البشرية ) وكان السحرة يحكمون بتضحية فرد يوثق إلى هذا  
العامود الذي يدور حول نفسه فيهمج عليه الجمع ويقطعون من جسمه أشلاء  
يدفنونها في حقولهم التي أصابها الحبل ، وقد حرم القانون ذلك اليوم واستبدل بالضحايا  
البشرية بعض الحيوان على أنهم كثيراً ما يضحون بالإنسان خلسة

ولقد استرعى نظري كثرة العلامات التي يخطها القوم على جباههم تمييزاً  
لشيعهم ومذاهبهم الدينية المختلفة والعادة أن ترسم هذه بنوع من الرماد المقدس  
يحملة الناس معهم فترى التخطيط أفقياً أو رأسياً ومزدوجاً أو مضاعفاً وقد تتخلله  
نقط حمراء مما يزيد في أشكالهم قبحاً .

والمغالي في تدينه يلطخ وجهه وصدره وذراعيه فتصور مبلغ فظاعته إذا ما أقبل  
عليك وحدق فيك بعيونه الغائرة وجسمه الناحل الهزيل ولونه الأسود البراق ، على  
أننى لم أعجب عند ما علمت أن مقاطعة مدراس معقل الدين البرهمي فسكانها ٤١  
مليوناً يدين غالبهم بتلك العقيدة وعدد القسس من البراهما في هذه المقاطعة وحدها  
مليون ونصف يعيشون عالة على غيرهم يتقاضون ضرائب من الناس جميعاً في  
مناسبات شتى من بينها : ميلاد الطفل مخافة ألا يطول عمره وعند ما تكون سنه  
١٦ يوماً حين يغتسل بالماء المقدس وعند تسميته وعند حلق شعره وفي تمام الشهر  
الثالث وعند بدء تناوله للطعام في الشهر السادس ، وعند ما يبدأ المشي ، وعند  
تمام السنة ، وفي نهاية السابعة حين يبدأ تعليمه ، وهنا يكتب له البراهما  
بالذهب على عصوين يمسك بهما في يديه ثم يأخذها فيما بعد لنفسه ، وعند  
عقد الزواج وهنا تدفع له مبالغ طائلة ، وعند بلوغ سن الرشد ، وعند حدوث  
خسوف أو كسوف ، وعند الموت حين يحضر ليبارك الجثة ، وعند حرق الجثة ،





وبعد ذلك يولم ابن المتوفى  
للبرهما وليمة كل شهر لمدة  
عام وتقدم الهدايا والملابس  
إلى جانب الطعام ، بعد ذلك  
يكرر هذا مرة كل سنة حتى  
يموت الابن . كل تلك  
حقوق للبرهما واجبة الأداء  
وإلا خسر الجنة ، هكذا  
كانت قصة هندي متعلم ،  
وكان يرويها وهو فخور  
بدينه .

## ✧ نظام الزواج : ومما

أثار اهتمام الزوجات الصغيرات  
( شكل ٨ ) شجرة النرجيل تحمل وسقا ثقيلا  
اللاتي كن يحملن أطفالاً نحالاً لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرتال أو خمسة ،  
وكنتم أخالهن يحملن أخوتهن لا أبناءهن ، لكنني دهشت لما علمت أن زواج  
البنات يبدأ من سن الثامنة ، فإن تأخرت إلى الثانية عشرة عد بقاؤها عاراً لا يمحى ،  
ودل على وجود عيب فيها ، ولذلك لم يكن عجيباً ما يبدو من جسمها الضئيل وبنيتها  
الضعيفة لصغر سنها ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها ، أما الزوج فقد يكون طفلاً مثلها ،  
وقد يكون كهلاً أنهكت السنون قواه ، وفي الحالين هو غير صالح إلا لإنتاج نسل  
بأس ضعيف وهم الزوجين أن يخلفوا من الأبناء ما استطاعوا وبخاصة الذكور ،  
فإن الأم لا تجد لها حديثاً أمام أطفالها إلا ما يتعلق بالزواج فتنشط بذلك الميول  
الجنسية بين الأطفال وتفسد أخلاقهم عاجلاً وهذا يخلف أثره السيء في قوى النشء  
العقلية والجسمية . والزواج المبكر عند الهندوس واجب لأن فيه عصمة من الأمراض

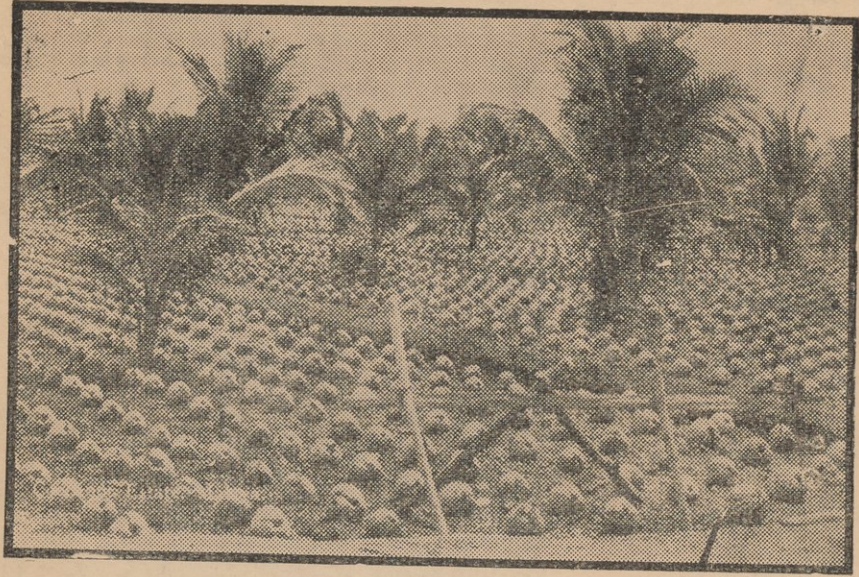


وتعجيلاً بالخلف من المذكور ذاك الذي يعده الآباء شرف العائلة ، وقد نسي القوم  
الأثر السيئ لذلك في إضعاف الذرية وانهاك القوى الحيوية ، ولذلك ليس بعجيب  
أن ترى الهندي فاقداً لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين كما أثبت الإحصاء الطبي  
ذلك ولهذا لجأ الكل إلى تناول سموم الخدرات ( خصوصاً الحشيش والأفيون )  
والمقويات التي يعلن عنها في جميع جرائدهم بشكل فاضح مخجل حتى أن الحكومة  
كثيراً ما تصدر بعض الجرائد لجراتها على هذا النوع من الاعلان ، وكثيراً ما كنت  
أرى من المدمنين على تناول الأفيون والحشيش يركنون إلى الجدران في كل  
مكان بشكل قذر خامل وكأنهم الذباب .

وكثير من النساء هناك عقيات وقد أيد البحث أن ذلك راجع إلى ضعف  
قوى الرجال من جهة وإلى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى ، وكثيراً  
ما يلجأ الرجال إلى المعابد فيرسلون إليها زوجاتهم بالقرايين كي يمن الله عليهن بالحمل ،  
وفي العادة تظل المرأة هناك أياماً فينبوب القسيس عن الآلهة ليلاً فيبارك المرأة  
وتعود وهي حامل ، ولعل أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر خصوصاً بين  
النساء وكثرة الموتى من الأطفال فمتوسط العمر في بلاد الهند ٢٣ سنة ويموت  
من الزوجات في كل جيل ٣ ½ مليوناً تسعون في المائة منهن بسبب التهاب الرحم .  
ومن العادات العجيبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة ابتغاء مرضاتها  
فإذا كانت أنثى سلمت لنساء المعبد وإذا شبت علمت الغناء والرقص وإذا ناهزت  
الثامنة أضحت خليله أحد القسس وإذا ملها أضحت راقصة المعبد وفي مواسم الحج  
يستأجرها بعض الحجاج فإذا ما ذبلت محاسنها يمنحها المعبد جعلاً صغيراً وتترك المعبد  
ولا يرى أهلها في كل ذلك معرفة لأنها اكتسبت اسم ( عاهرة الآلهة Devadassis )  
وهؤلاء من مستلزمات المعابد كلها .

ويوصي الدين البرهمي بأن الزوج إله الزوجة في الأرض خلقت لسروره  
وخضعت له مهما فسد جسمه أو خلقه أو عقله ولا بد أن تطيع حماتها ويا ويلها





( شكل ٩ ) النرجيل يزرع في الأرض صفوفًا منتظمة

إن لم تعقب طفلاً أو عقت أثى فلها أن تستعبد لها عندئذ ، لذلك كان عدد المنتحرات بين سن ١٤ و ١٩ مروعاً ، وإذا مات زوجها حتم الدين أن تحرق جثتها معه (Suttee) وإلا كانت موضع اللعنات ولم يباح لها شيء من السرور ولا تتزوج ثانية ، بل تحلق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية ، ويجب ألا تظهر كثيراً أمام الناس لكيلا يؤثر فيهم نحس طالعها ، وفي إحصاء سنة ١٩٢٥ بلغ عدد الأرامل في الهند ٢٦,٨٤٣,٨٣٨ .

وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تنبذ في غرفة ضيقة مظلمة ، ولا يقترب أحد منها قط لأنها أصبحت نجسة ، وفي الحال تأتي المولدة (داية) وهي من الطبقات النجسة البائسة ، فترتدي أقذر اسمائها ، وتسد المنافذ ، وتحرق الحطب لأن الدخان والحرارة تساعد على سرعة الوضع ، وإذا دخل الحجره غريب أحرقت بخوراً منتن الرائحة لمنع أثر العين الخبيثة ، وتباشر عمليتها بأيديها القذرة وتحاول إخراج المولود بالقوة ، فتشبع بطن الأم لكما بالأيدى والرأس ، وقد تطرحها أرضاً وتمشى على بطنها وتضع في الرحم كرات من مواد حريفة ، وقطعاً



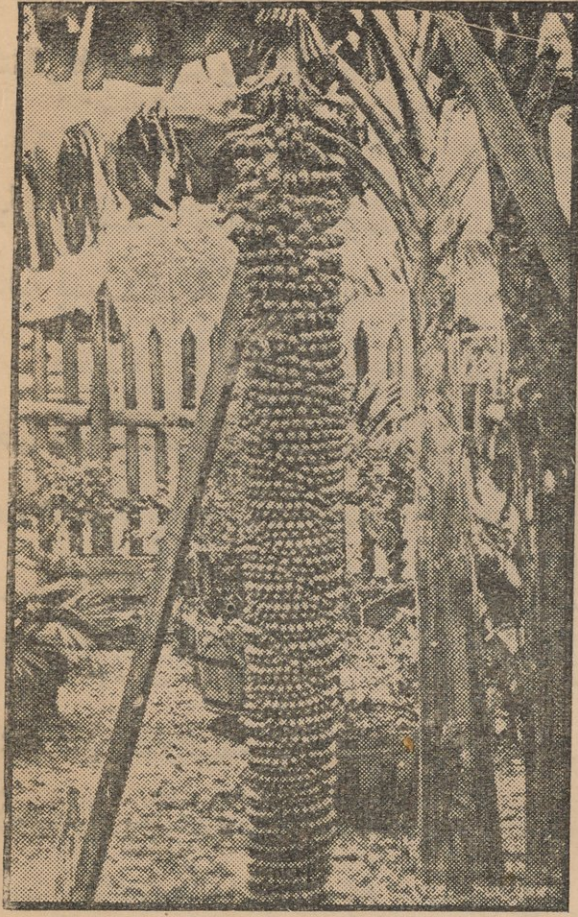
من شعر الماعز وأذئاب العقارب وجلود الأفاعى وما إليها ، وإذا تم الوضع لا تجرؤ المولدة أن تقطع الحبل السرى لأنه من عمل امرأة أخرى أحط درجة من المولدة ، فتنتظرها حتى تجيء . أما الطعام فيمنع بتاتا عن الأم بين أربعة أيام وسبعة ، ويظهر أن السبب الأصلي ألا تصاب أوانى المنزل برجس .

وكثيراً ما تتعسر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر فتموت الأم ، فإذا رجحت المولدة موتها عجالت بتكحيل عيونها بمسحوق الفلفل لكي تعمى الروح فلا تستطيع الخروج والمكث في الدار ، وقد تمد ذراعيها وتدق مسماراً يثبتهما في الأرض لكيلا تستطيع الروح التجول في المنزل ومضايقة الأحياء !  
X إلى كلكتا : قمت من مدراس — تلك البلدة التي أحمل لها أسوأ

الذكريات — صوب كلكتا ، فاخترق القطار قنطرة على نهر جودفرى طولها زهاء خمسة كيلو مترات تحتها نهر لا يكاد يجري له ماء إلا في تقائع بينها جزائر رملية ، وكان وقتئذ في زمن غيضه ، ويظهر أن النهر هو أحد الفاصل بين جنوب الهند وشمالها ، لأننى لاحظت تغييراً في كل شيء : في سحن الناس التي بدأت تتحسن قليلاً ، وفي أزيائهم التي بدأت أتلمس في ألوانها بعض الذوق ، وفي المناظر التي بدأت تزداد ثروة وخصباً ، وفي النشاط النسبي الذي بدا على القوم في حقولهم إذ كنت أراهم يعدونها لاستقبال الأمطار الموسمية ، وكان أكثر النشاط من جانب النساء . أما غالب الرجال فكنت أراهم مستقلين على الأرض نياماً ويتجلى كسلهم في عدم اهتمامهم باستغلال أرضهم إلا مرة واحدة عقب المطر .

X أما نظم الري بقنواتها ومساقياها فلا تسكاد توجد رغم ما نعرفه من الخصب الشديد في التربة الهندية . أخذت المسائل المائية والجداول العديدة تزداد كثرة كلما تقدمنا شمالاً إلى ذلك تعدد القرى التي لم نر منها في الجنوب إلا القليل ، ثم دخلنا مقاطعة بنغالة — أهم المقاطعات وأزحمها سكاناً إذ بلغ أهلوها ٤٧ مليوناً ، وهنا زادت الأدغال والأحراش في كل مكان وتوافر النبات وكثرت الغدران





( شكل ١٠ )

عرجون من الموز يكاد يفوق شجرته طولاً

مخروطية تكسوه الأخصاص من مختلف النبات خصوصاً سعف نخيل (بالميرا) وتهوية البيوت فاسدة يقطنها عدد كبير ويزيد الجو وخماً ووباء ما يترتب على البرك من البعوض الذي يحمل مختلف الأمراض ، وقد كنت أوجس خيفة طوال تجوالى فى مدراس وبنغالة كما ذكرت أن هذا الجزء وبخاصة بنغالة السفلى أكبر مربى للأمراض الخطيرة كالمالاريا والكوليرا والطاعون تلك التى يموت بسببها عدد مخيف بين سنة وأخرى . أذكر أن من مات هناك بالطاعون منذ سنة ١٨٩٦ أحد عشر مليوناً ، ويساعد على انتشاره هناك تحريم الدين البراهمى قتل الفيران التى تحمل البراغيث المعدية ، ويموت بالمالاريا سنوياً مليون ، كذلك مرض الدودة

والنقاع كثرة تلفت النظر ، على أنا لم نعجب إذ كنا نتقدم إلى دلتا الكنج العظيمة .

أما القرى الكثيرة التى يزيد عددها فى الهند البريطانية على نصف مليون فكانت تبدو بيوتها مقامة من طابق واحد بنى بالطين الذى يستمدّه القوم من حفرة يملؤها المطر فتصبح مستمدّهم من الماء ومستحمهم ومستقامهم وماشيتهم ، وتحيط بها البيوت القليلة ، والبيت يبدو فى شكل مستدير حقير يعالوه سقف



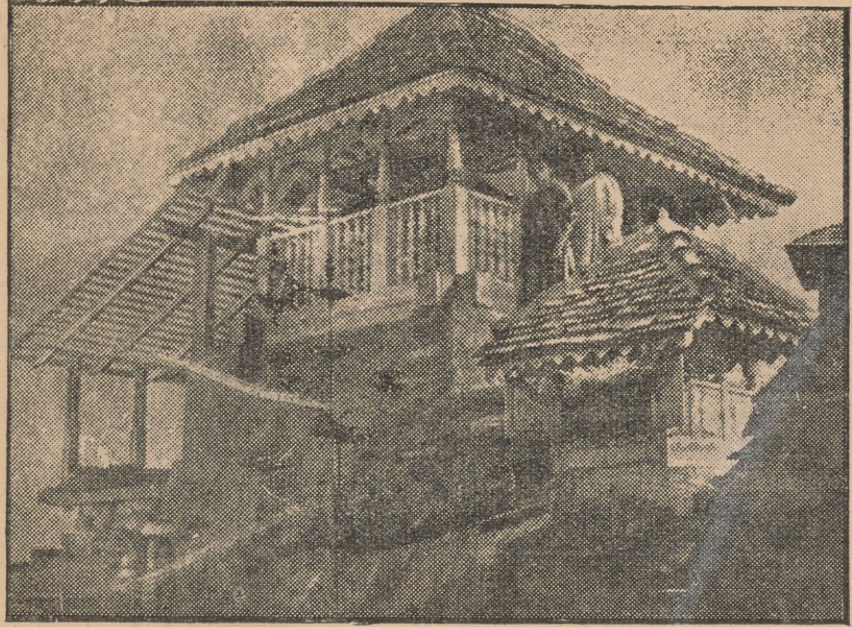
الخطافية ( كالانكلستوما هنا ) المتفشى بسبب سيرهم حفاة الأقدام حسبما تقضى التعاليم البراهمية ، وقد دل الإحصاء أن ٨٠٪ من سكان مديرية مدراس و ٦٠٪ من بنغالة مصابون به أعنى نحو ٤٥ مليوناً من الناس والديدان تحل الأمعاء وتمتص الغذاء والدم فيضعف انتاج الشخص كثيراً حتى قدرت الخسائر المالية بسبب عجز هؤلاء عن العمل بنحو ٤٠٠ مليون جنيه .

فالهند في نظر العالم أكبر خطر لنشر تلك الأمراض ، ويرى الأطباء أن أهلها قد اكتسبوا شبه مناعة لطول مكثهم في ذاك الجو الوبى لكنهم جميعاً حملة الأمراض للغير وهنا الطامة الكبرى . أما من يموت من الهنود في كل عام فسبعة ملايين أى بقدر نصف سكان القطر المصرى ، وعدد الموتى من الهندوس أكثر منهم في المذاهب الأخرى مما يثبت قلة مقاومتهم للمرض ، وهذا لاشك ناشئ من افتقارهم للتغذية لأنهم نباتيون ويحرمون أكل اللحوم . ومما زاد خطر الأمراض وفتكها هناك تشككهم في الدواء الأوروبى ، مخافة احتوائه على مستخرجات اللحوم المحرمة ، وهم يعتقدون أن المرض أثر من آثار الجن التى يجب طردها بالبخور وتقديم القرابين .

روى لى شاب هندى متعلم قصة إخراج العفريت من جسم الطفل المريض فقال إن القوم يلجأون إلى قرد يعلق موثقاً إلى فرع شجرة وينزلون عليه ضرباً وتعذيباً فيجن القرد ويصيح صيحات مزعجة وعندئذ يحمل الطفل قريباً منه كي تدفع عفاريت المرض التى فى جوفه وتولى الأدبار ، إلى ذلك خطر روث البقر الذى تضمد به الجراح فى كثير من الجهات .

**كلكتا :** دخلنا كلكتا بعد سفر ٣٨ ساعة متواصلة ، واسم المدينة مشتق من كلمتين قالى ( اسم الآلهة زوج سيقا ) وغات ( مرسى أو مدرج ) وقيل أنه مشتق من ( جُلجوتا ) ومعناه مكان الجماجم ، فهى مقر الحيات وبخاصة الملاريا ، لكثرة المناقع حولها ولفساد الحالة الصحية فى مساكنها التى ضاقت بأهلها بحيث





(شكل ١١) فوق قمة ادم كعبة الحجاج من المسلمين والبوذيين والهندوس

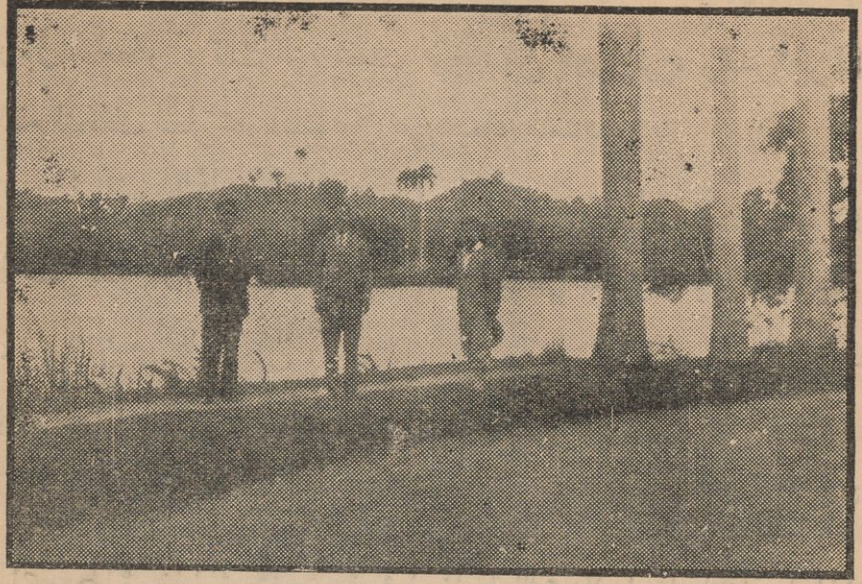
يقطن الغرفة الواحدة المختنقة في المتوسط شخصان ، على أنها رغم ذلك تعد العاصمة الاقتصادية لبلاد الهند ، فهي ثانية مدن الامبراطورية البريطانية سكانها فوق مليون وربع ، وهي عاصمة بنغالة أغنى المقاطعات ( خصوصاً باليوت والأرز ) وأكثفها سكاناً فهم يبلغون ٤٧ ١/٢ مليوناً ( أغنى ثلاث مرات ونصف قدر مجموع القطر المصرى ) نصفهم من الهندوس والنصف من المسلمين ولا يكاد يفرق المرء في الشكل بين الجميع ، ويزيد تجانسهم أنهم جميعاً يتكلمون اللغة الهندستانية ، التي يخالها البعض اللغة القومية للهند ، لأنها أكثر اللغات ذيوياً إذ يتكلمها خمسون مليوناً .

حلت المدينة فراغى سيل الناس الدافق في كل الأرجاء ، ولقد كان القوم يفتشون أرض محطة السكة الحديدية على اتساعها العظيم الذى يقرب من اتساع ميدان محطة مصر ، فلم أشق طريقى بينهم إلا بجهد كبير ، والقذارة تبدو في كل مكان ، والروائح الممتنة تتصاعد بدرجة منفرة ، وقد عبرت قنطرة ( هواره ) على



الهوجلجى وهى فى عرض قناطر النيل عندنا ، على أنها أقيمت من الخشب ترفعه عوامات تطفو فوق الماء بدل القوائم الحجرية عندنا لذلك كانت كل جوانب القنطرة فى حركة مستمرة حسب مد الماء وجزره وقد وقفت هنا برهة فكاد يكتسحنى سيل المارة الذى لم أدر مصدره ، فقصدت من فورى جانب المدينة الممتاز المسمى ( الميدان ) وهو متسع عظيم ذرعه ميلان فى مياين تطل عليه المباني الفاخرة وتتوسطه المتنزهات المتسعة المترامية تقوم فى أرجائها تماثيل سامقة لعظماء الانجائز ، وأجدر المباني بالذكر دار الحاكم العام التى تبدو فى جلال وعظمة يقابلها من الجانب الآخر أثر فكتوريا أقيم من الرخام الأبيض فى عظمة تبهر النظر من عمد وأبهاء وبوائك ودهاليز وتعلو فناءه الرئيسى قبة كبرى ، وهنا ترى تماثيل عظماء الانجائز الذين اشتركوا فى فتح الهند وفى طليعتهم ( كليف ) وأمامه المدافع التى غنمها من الفرنسيين وغيرهم فى واقعة ( پلاسى ) ، وترى بعض الصور الزيتية الكبرى لملوك انجلترا إلى ذلك ترى بعض ملابس الملكة فكتوريا ومكاتبها ومخلفاتها الذهبية وكذلك جميع الوثائق الرسمية التى تبودلت بين الحكومة الانجائزية وأمرء الهند منذ فتح البلاد إلى اليوم ، وفى خارج البناء حديقة نسقت أيما تنسيق يزينا تماثيل فكتوريا ، ولقد أقيم هذا الأثر تذكاراً لتولى فكتوريا أول امبراطورة للهند واشترك فى إقامته كبراء الانجائز والهنود وبلغت أكلافه خمسة ملايين من الجنيهات وقد وضع حجره الأساسى جورج الخامس سنة ١٩٠٦ وتم سنة ١٩٢١ ، وفى جانب من الميدان القلعة وتسمى فورت ولیم على اسم ولیم الثالث ، وتقوم دار البريد الفاخرة اليوم فى مكانها القديم بعد أن نقلها ( كليف ) إلى مقرها الحالى وهو أكثر منعة وقوة ، وإلى جانب دار البريد يقوم نصب أبيض دقيق فى مكان الحجر الأسود ، وقد كتب عليه اللورد كرزون أسماء بعض من ماتوا فيه إحياء لذكورهم ، وقد كان هذا الحجر سجنًا من سجون سراج الدولة نواب بنغال زج فيه ١٤٦ جندياً يوم ٢ يونية سنة ١٧٥٦ ، فاختنقوا فى ليلة واحدة ولم يبق منهم فى





( شكل ١٢ ) على ضفاف بحيرة كاندى المنسقة

الصباح سوى ٢٢ ، وذلك لضيقه ( ١٤ × ٢٢ قدماً ) وقلة نوافذه ، فأهاج ذلك غضب الشعب الإنجليزي وهب ينتقم لهؤلاء ، وكان هذا الحادث خير حافز للانجليز أن يبسطوا نفوذهم هناك .

وفي ركن من الميدان حديقة ( Eden ) على اسم سيدة كانت تملكها ثم أهدتها للحكومة ، وهى آية فى الإبداع تشقها مساليل الماء وتتخللها النقايع والمقاصير التى يبدو بعضها فى هندسة ( الباجودا ) الصينية ، وعلى مقربة منها حديقة النبات وبخاصة فصيلة النخيل ، ولعل أشهر ما بها شجرة ( banyan ) أكبر أشجار الدنيا عمرها ١٥٥ سنة ، ومحيط جذعها الرئيسى ٤٤ قدماً ، ولها فوق ٦٠٠ جذر هوائى تشغل حيزاً ذراع محيطه ١٠٠٠ قدم ، ومنها أخذت جميع حدائق الدنيا الشيء الكثير ، وفيها جرب الشاي ثم نقل إلى الهملايا وأسام .

ومن الأبنية الفاخرة دار الجامعة التى يبلغ عدد طلابها ٢٦ ألفاً ، وهذا العدد يفوق جميع طلاب جامعات إنجلترا مجتمعة ، وقد اتخذت جامعة لندن نموذجاً لها على أنها كانت معطلة عند ذاك ، وقد قابلت أستاذين من أساتذتها الإنجليز

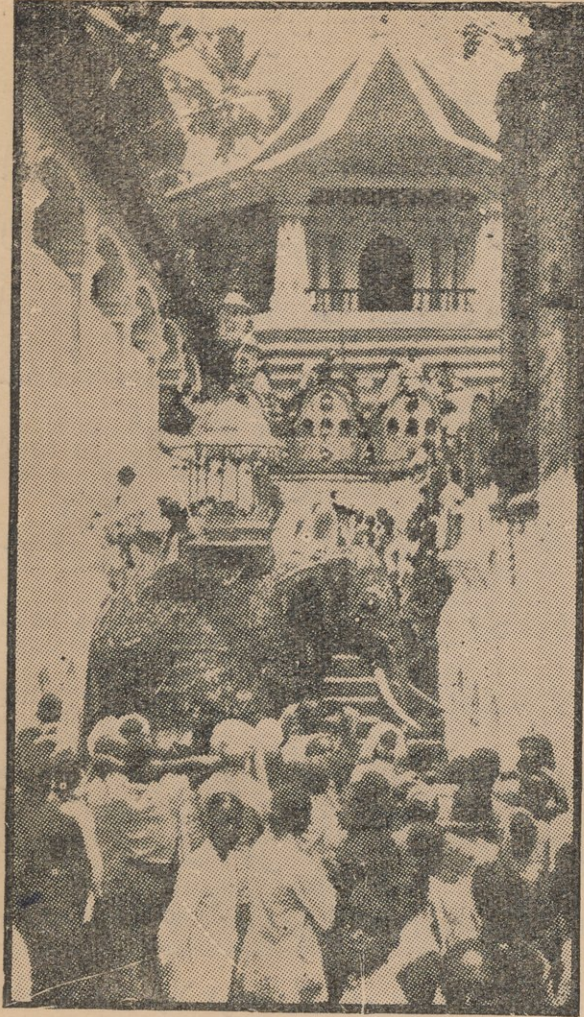


وتحدثنا بشأنها طويلاً ، وعلمت منهما أن موسم الدراسة لا يعين بدؤه إلا عند بدء نزول الأمطار ، تلك التي يخفف نزولها من هجير الحر ، ولقد تأخر افتتاحها هذا العام لتخلف المطر نحو أسبوعين عن ميعاده المعتاد .

قمت بجولة في الأحياء الوطنية المترامية ، فكنت أشق طريقى فى جو وخم ووسط منفر قدر تترامى الأكاكيس الآدمية بجانب الجدران وهم عرايا وفى بؤس مبيد ، يبصقون فى كل مكان ، ويبولون على جوانب الطرق حيث أقيمت الجارى لتصرف ماء المطر عنهم ، وأخيراً أدى بى التجوال إلى معبد قال : وهى زوج سيقا آله التدمير وسفك الدماء ، وفى أقاصيصهم أنها قطعت أربا بأمر الآلهة ، فسقط أصبع لها فى هذا المكان ، وفى قرار المعبد الذى لا يدخله إلا أتقياء الهندوس تقوم الآلهة فى تمثال يزين جيده عقد من جماجم بشرية ويدها رأس آدمية دامية ، وفى الأخرى سيف وهى تطأ أجساداً آدمية ، ولها لسان أحمر بارز ، ونطاق من أيد وألسن بشرية . بدا لنا ونحن نطل من خارج المعبد ، وقد علمنا أن لتلك الآلهة معابد عدة فى أرجاء الهند ، لها أوقافها الغنية ويحج إليها جماهير الهندوس يسجدون ووجوههم إلى الأرض تحت أقدامها ، والقسس يرتلون أقاصيص عن (قالى) وكانت تقدم الذبائح لها من أجساد بشرية لكنها أبدلت اليوم بالجديان ، أذكر موقفى أمام المعبد وقد أمسك القسيس بالجدى وطرحه أرضاً ، وسرعان ما تقدم رفيقه ففصل رأس الحيوان بسيفه بضربة واحدة سال على أثرها الدم تحت أقدام الآلهة ، وصاح القسس منادين (قالى قالى قالى) مرات عدة ، وهنا أسرع بعض النسوة إلى الأرض يلعقن الدم كى يمن الله عليهن بمولود ، والبعض أخذ يبلل منه خرقاً يضمها إلى صدره العارى ، وعلمنا أن عدد الذبائح تتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ فى اليوم .

وفى مقاصير المعابد وأزقتها يصطف جماهير الأولياء فى أشكال قدرة منفرة ، وجسوم ممتلئة عارية ، ولحى ورؤوس كثة يعاف المرء النظر إليها ، وكلهم من





( شكل ١٣ ) معبد ( السن المقدسة ) وترى القيل  
المقدس يحمل السن تغطيها مظلة من ذهب

المتسولين ، وفي ناحية أخرى  
من المعبد محرق الجثث وهو  
بسيط من الأرض تتوسطه  
وهدة مستطيلة في شكل  
الجسم ، ويبطن أسفلها  
بالخشب ، وكنا نرى إلى  
جانبه جثة سيدة لا بأس  
بملاحها ، وقد خضبت قدميها  
ويديها وجهتها بالخناء ،  
ودثرت رداء أحمر ، وعلمنا أن  
هذا دليل على سعد طالعيها لأنها  
ماتت قبل زوجها ولم تصبح  
أرملة بأسة ، وكان يحوطها  
جمع من أقربائها وبعض  
النائحات المأجورات وجمهرة  
من المتسولين ، وسرعان

ما حملت الجثة ووضعت على الحطب وكدس فوقها حطام الخشب ، وهنا تقدم  
أقرب الناس إليها وكان ابنها ، وأمسك بشعلة وطاف حولها سبع مرات ثم ألقى  
الشعلة على كومة الحطب فالتهمت كل شيء ما خلا جزءا من عظمة القص ، وتلك  
التقطتها بعض القسيس ووضعتها في كرة من طين إلى جانب قطعة من ذهب يقدمها  
أهل الفقيدة ، وألقاها القسيس في النهر أسفل المكان .

وهنا كنا نرى جماهير الناس يغتسلون في مائه ليطهروا من ذنوبهم ، وكان  
بعضهم يغترف من الطين ويفحصه عليه يعثر على بعض القطع الذهبية التي تلقى في



النهر مع بقايا الموتي ، ومن الناس من يغسل الجديان قبل تقديمها للآلهة ، ومنهم من يملأ أواني من ماء النهر المقدس ليصبه على قدمي (قالي) داخل المعبد فيسيل إلى عين يتلقف الماء منها جمهور الزائرين ويحتسونه تبركا على مابه من أضرار وهم يؤثرونه على ماء النهر لأن أقدام الآلهة قد زادته طهراً . ومما زاد المنظر قدارة أن غالب عباد سينقا وقالي من الطبقات الفقيرة . أما الأغنياء فآلههم (قشنو) وله معابده الخاصة .

إلى دار جيلنج : قمنا بعد الغروب فوصلناها ظهر اليوم التالي (ومعنى دار جيلنج مقر الصواعق) ، ولبثنا الليل كله نخترق سهول شرق بنغالة كثيرة المناقع ، كثيرة العشب الزاحف الذي يكافحه القوم في جهد شديد ليفسحوا مجالا للغلتين الرئيسيتين : الأرز واليوت والشجر لا ينقطع وأظهره المانجو والنخيل والبامبو ، وقد عبرنا الكنج بقنطرة (سارا) الهائلة التي تعد من الأعمال الهندسية الجليلة ، وقبل أن نصل الجبال مررنا بمنطقة (دوارز) وهي من مزارع الشاي الهامة وعند محطة صغيرة اسمها (سيليجوري) ركبنا قطار الجبال الصغير الذي قطع بنا ٥١ ميلا فرفعنا إلى نحو سبعة آلاف قدم وهو يتلوى في صعوده الوعر ، ولذلك لم أعجب لما علمت أن اكلاف الميل الواحد من هذا الخط بلغت ٣٥٠٠ جنيه ، وكنا نسير أسفل الجبل في حقول للشاي لا آخر لها دخلنا بعدها وسط الغابات الكثيفة وكان أظهر شجرها خيزران البامبو الذي يناهز علو قصبه الثلاثين مترا ، وهنا علمنا أن النمر ووحيد القرن والجاموس البري تمرح بكثرة هائلة . أما مساقط الماء فحدث عن جمالها ، وكنا كلما علونا تغير النبات فكثر أشجار البلوط والتوت ثم تبعها أشجار اللوز والخوخ بزهورها البديعة ، ثم فصائل من الصنوبر والسرخس .

وعند ما دخلنا دار جيلنج ألفيناها كالوهدة وسط الجبال وتكاد تغطيها أشجار الصنوبر أما جبالها المحيطة بها فقد أذكرتني بجمال سويسرا لكنها فاقتها





في الضخامة والعلو الشامخ ،  
فحولها عشرون ذروة علو  
الواحدة يزيد على عشرين  
ألف قدم وأبهاها طلعة وأجلها  
روعة ( كنتشنجنجا ) ثانية  
ذرى العالم علوا ( ٢٨١٥٦  
قدم ) وتكسو السكل عمام  
الثلج الوضاء وتحف بجوانبها  
كومات من دخان أبيض هو  
سحاب السماء يجلو تارة  
ويثقل أخرى .

أما قمة اقرست فلا  
تبدو من دار جيلنج بل  
من محطة تبعد عنها بنحو  
سبعة أميال وتسمى ( تل

( شكل ١٤ ) عروس سنهالية صغيرة في كامل زينتها  
وتقرأ في وجهها الملامح العربية

النمر ) يصعد المرء إليها محمولا على الركشا يجرها رجلان أو على كرسي يحمله أربعة  
أو على مهر صغير ، ومنها تبدو روعة اقرست أعلى ذرى الدنيا ( ٢٩١٤١ قدم )  
تلك التي يطمع في ارتقامها الكثير من رواد الجبال ، لكن عبثا يحاولون ففيها من  
الوحشة ووعورة المسالك ما لا يمكن اختراقه ، ولقد ظلت القمة طوال الوقت تغطيها  
حجب كثيفة من السحاب الذي لم تكبد تستبين خلاله .

أما سكان دار جيلنج فأخلاط من الهنود وأهل الجبال نخص منهم النباليين  
والبوتانيين والجركا الذين يختلفون اختلافا بينا عن الهنود في لونهم الأصفر  
الشاحب وسخنهم المغولية وقاماتهم الصغيرة وغالبهم بوذيون من اتباع قس  
( ٣ — آسيا )



(اللاما) في التبت ، ولهم هناك معابد عدة يصلى القوم فيها وسط رقصة اللاما وصبيتهم وهم في أرديتهم الصفراء الفضفاضة ، وقبعاتهم تحكى منقار الببغاء ، وفي بعض المعابد يلبسون أزياء العفاريت برؤوس عجبية ووجوه مزعجة وهم في سداجة الهندوس وقذارتهم لولا ما أحاطهم من هواء جبلى عليل وبيئة صحية بليلة .

الى بنارس : بعد أربع عشرة ساعة من مغادرتنا كلكتا وصلنا بنارس وكنا نسير في سهول صفراء جافة يعدها القوم بالحرث استقبالا للطر ، وكنا نخترق كثيراً من مزارع الكنج الصغيرة ، وكان بعضها كامل الجفاف بحيث بدا وكأنه الصحراء ، وكان الجو مترباً قائظاً لاخفا يحكى جو أقاصى صعيد مصر في هجير الصيف بل ويزيد .

بنارس « كعبة الهندوس » : لعل بنارس هي خير المدن التي تتمثل فيها الهند بأجلى مظاهرها إذ لم يكذب دخلها من المستحدثات شئ قط فهي مقر الزهاد والحكماء والخيرين والمتدينين من الناس الذين تبدولنا عقائدهم كأنها خرافات ، ولا يسع من يرى أولئك إلا أن يعطف عليهم ويتألم للسعادة الموهومة التي هم فيها ، وهي تفاخر بأنها أقدم المدن المقدسة في العالم لأنها كانت مقدسة قبل أن تخلق روما بقرن ، وهي أقدم من مكة المكرمة بألفى عام وكانت من المدن الهامة في سنة ٥٥٨ ق م ، ولقد اختارها بودا بعد ذلك بقليل مقراً لتعاليمه ، ولقد أغار عليها جيش المسلمين سنة ١١٩٤ وأباد كثيراً من معابدها وأقام المساجد في مكانها وظل يدمر في مبانيها القديمة حتى أنك لا تسكاد ترى اليوم بناء أقدم من عهد الإمبراطور (أكبر) أى في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وفي أقاصيصهم أن المدينة أقيمت من الذهب الخالص الذي استحال صخرأ بسبب روح الفساد الذي ساد العالم بعد ، ويخيل للمرء وهو يسير في سرايها أنها مدينة محوطة بالأسرار الغامضة ولا يتمالك أن يأسف لبؤسها وينفر من قذارتها .





( شكل ١٥ ) زعيم برهمي يستجدي وهو يعزف على قيثارته  
وقد لطح جسمه بالتراب المقدس

مدينة يتنى كل هندي حتى أخط المجرمين أن يموت بين جدرانها كي ينتقل  
إلى الجنة عاجلاً ، لذلك يؤمها من الحجيج نحو مليون كل عام بينهم جماهير المرضى  
والسكحول الذين يتوقعون الموت ، يسجد الجميع إرضاء للآله سيقا ، والأيمان العميق  
يبدو على وجوههم ، وبمجرد وصولهم وافدين من أقاصى بلاد الهند يبدأون بزيارة  
المعابد التي يقال إن عددها يفوق الألف ، ويطوفون بأسوار المدينة كلها ، ويبلغ  
امتدادها ٣٦ ميلاً في ستة أيام متوالية وهم يسرون في طريق تظله الأشجار وتزينه  
المعابد وتماثيل الآلهة ، ويطلقون عليه اسم ( پانش كازى ) .

وأقدس ما في بنارس نهر الكنج الذي رصف جانبه في مدرجات رائعة  
تسمى ( Ghats ) يؤمها القوم للطهر من الذنوب ، وعجباً ألا يكون للضفة الأخرى  
شئ من هذا الامتياز ، ويلقون في النهر أكاليل الزهور ، ويلقون ما تخاف من  
الرماد بعد حرق موتاهم .



وأجل ما رأيت المدينة من زورق وسط النهر ، هنالك بدت بقايا القصور القديمة والمعابد البالية الأثرية يرتطم بها موج النهر الهادي في مائه القدر تشوبه الأوضار ، وإن أنس لا أنسى منظر المعابد المطلة على النهر ، وكأنها الأهرام الذهبية صفت في كثافة بعضها فوق بعض ، ودرجات النهر التي أقيمت من الجرانيت العاتى تتدلى من دونها ، وتقام المقاصير التي يؤمها الأتقياء حتى تسكاد تلمس الماء مهما بعد غوره ، ويستظل القوم بظلال من الخوص كبيرة تميل إلى النهر كي تبقى القوم وهج شمس الشرق المحرقة ، فيخيل للمرء أنها من كثرتها وعظيم امتدادها على جانب النهر ، وكأنها الدروع في ميدان للجهاد حافل بالأجناد ، وإذا ما مالت الشمس إلى الغرب بدأت تلك الجموع الغفيرة تتلاشى ومن بينها بائعو الفاكهة وأكاليل الزهور والهدايا التي يقدمها القوم قرباناً للنهر المقدس ، لذلك تراها طافية مع طائفة منتنة من الأعشاب والأوضار ، تشوب ماء النهر الكدر المنفر ، وكلما خف الجمع وفدت أسراب من الطيور المختلفة عرفت منها الغربان والحمام تخيم فوق أهرام المعابد ، وكلما أقبل الغروب زادت عفونات النهر لحد لا يحتمل حتى ليخيل للمرء أنه وسط مدافن منتنة ، ويؤيد هذا الشعور قرب المدرجات المعدة لحرق الجثث وكنس فضلاتها وإلقائها إلى اليم ، ويزيد الموقف وحشة صيحات الطيور المنفرة ، وكأنها كانت تنعى من مات وأحرق سحابة اليوم وإذا ما بزغ الفجر تغير المنظر وبدأت المدينة تقذف بسكانها في مجموعهم إلى المسكان من آدميين وعجباوات ، فترى الناس مقبلين على النهر وقد أروا على أجسادهم السوداء البراقة مقاطع من قماش مهفوف مختلف ألوانه ، وقد زينت بالمعادن والجواهر والأحجار رقابهم وآذانهم وأنوفهم وأيديهم وأصابعهم وبكامل زينتهن ينغمس النساء في مائه المقدس . أما الرجال فيخلعون أرديتهم والجميع يقدم أكاليل الزهور التي تطفو فوق سطح الماء بكثرة تسكاد تخفيه ، وأسراب الحمام ومختلف الطيور تؤم المكان فيحيط بعضها فوق الماء والبعض فوق كواهل الناس ، وكأنها





( شكل ١٦ ) البرهميون وأفانينهم في الاستجداء على قارعة الطريق

أيقنت أن عباد براهما لا يمسون  
الحيوان بأذى . كذلك ترى  
قطعان البقر مقبلة إلى النهر  
لتغتسل ، وهنا يفسح الجميع  
لها الطريق في احترام عجيب ،  
وبعضهم يسرع فيقدم للبقر  
عقوداً من الغاب والزهر .  
ثم تبصر بعض الأغنام  
والكلاب والقردة مقبلة على  
الماء ، فيختلط الإنسان  
بالحيوان ولا يكاد يفرق المرء  
بين هذا وذاك .

ولكل جزء من تلك  
المدرجات اسم خاص ، فمن

ضمنها مدرج الخيول العشرة حيث يؤمه الناس عند حدوث خسوف أو كسوف ،  
وفي طرفه الجنوبي معبد سيتالا آلهة مرض الجدري ، وهناك تماثيل لقشنو على  
شكل إنسان في جسم الأسد ، ومدرج الموتى حيث تحرق الجثث ، وهنا أذكر  
موقف المزعج تحوطني خمس جثث بعضها لسيدات ألبسن أقمشة ملونة ، والبعض  
للرجال في أردية بيضاء ، وبعد أن دهنت الجثث بالمسلي غمرت في النهر ، وبعد  
تغطيتها بقطع الخشب تقدم أقرب الناس من كل جثة بشعلة نار وطاق حولها سبع  
مرات ثم أخذ يشعل النار في أركان كومة الخشب فتصاعد الدخان وعبقت الجو  
رائحة اللحم الآدمي تأكله النيران ، وكان يحاول كل جهده ألا تطفأ النار قبل تمام  
احتراق الجثة وإلا كانت تلك وصمة مخزية للفقيد وعائلته ، وبعد تمام الاحتراق





(شكل ١٧) الزوج العملاق بجانب زوجته  
ولم تبلغ سنها العاشرة

ينفض الوحد ما بقى من الرماد  
إلى النهر كى تتم سعادة الفقيد .  
على أنا كثيراً ما كنا  
نرى الكلاب تحوم حول  
الضفاف فتلتقط قطعاً من  
اللحم الذى لم يتم حرقه ، وكنا  
نرى جثث الأطفال طافية بين  
جماهير المستحمين ، لأن الدين  
يحرم احتراق جثث الأطفال  
ويأمر بالقائها فى النهر المقدس  
كاملة .

منظر مفرع وقفت فى  
جنباته ساعة ، وأنا لا يكاد  
يستقر بى المكان خوفاً وجزعاً ،

وكنت أشم شيئاً من الرائحة العطرة التى علمت أنها لبعض الأغنياء الذين يحرقون  
موتاهم بخشب ثمين كالصندل والعود وما شا كلها .

ولعل أقدس المدرجات ( مدرج القرط ) وبه بئر ألفت فيها الآلهة ( ديشى )  
بقرط ، وإليها يتقدم القوم بقرايين من الزهر واللبن وخشب الصندل والحلوى كلها  
ترمى فيها ، وبجانبتها تجد قطعة مشرفة من رخام عليها طابع قدمى قشنو وهنا يحرق  
الوجهاء موتاهم وذلك شرف لا يناله الفقراء .

ومن المدرجات الهامة مدرج الأنهار الخمسة لأنهم يعتقدون أن فى أسفل هذا  
المكان تتلاقى خمسة أنهار ويشرف على هذا المكان مسجد أورانجزيب بمآذنه



الدقيقة العالية التي خيل إلى  
أنها تميل إلى النهر في غير  
استقامة .



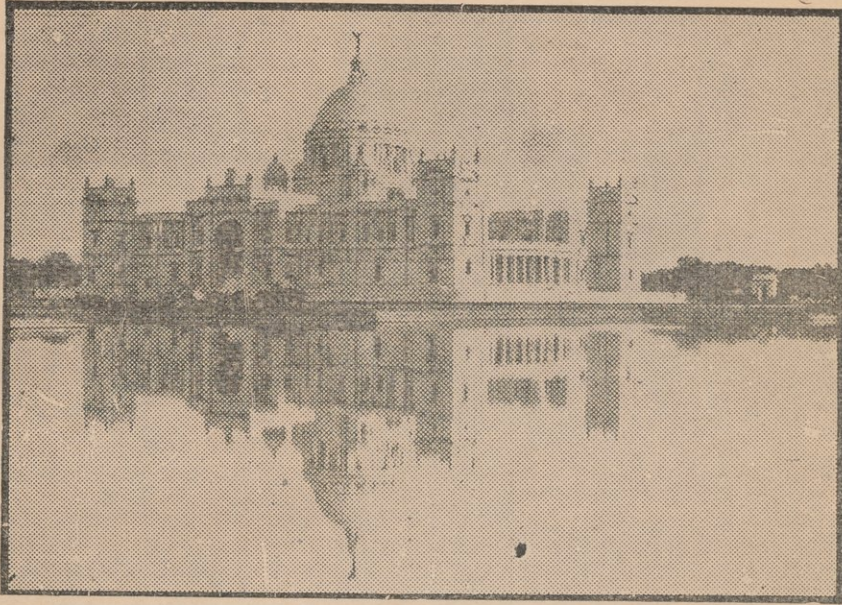
برحت النهر لآتجول  
داخل المدينة فبدت قديمة  
بأطلالها وأزقتها القذرة المتربة  
ومن المعابد التي زرتها بها :  
**المعبد الذهبي :**

وترينه قبة بجانبها برج كأنه  
(الپاجودا) ويكسى الاثنان  
من الخارج بالذهب الخالص  
وهو معبد سيقا إله الكون ،

وكان القسس في داخله (شكل ١٨) المحراب الرئيسي في المعابد الهندوسية

يحرقون البخور ويقدمون الزهور ويرتلون في صيحات منفرة وفي جانب من المعبد  
(بئر العلم) وسط دائرة تحوطها الأعمدة الجميلة وتتوجها قبة ، ويقول القوم إن  
شعار سيقا احتفى في أعماقها يوم أن دمر الأعداء المعبد ، فكل من تطلع إليه نال  
قصارى أمانيه ، ولقد نظرت إلى أعماقها بتلف زائد فلم أر إلا سطح ماء قد غطاه  
رم العشب وورق الزهور ، ويجلس بجانبها مشعوذ يبيع الماء للناس الذين كانوا  
يتهافتون عليه كل يملأ يده ويقطر ثلاث قطرات في فمه من طرف أصبعه ويغسل  
رأسه بما بقي ، وفي ذلك مفتاح الذكاء والفتنة وتطهير الذنوب كائنة ما كانت  
وإلى جانب البئر تمثال ثور يعبدونه قدمه (راجا نپال) ويحوطنون رقبتة بعقود الفل  
والياسمين ويرشون عليه ماء النهر المقدس .





( شكل ١٩ ) البناء التذكاري للملكة فكتوريا يزين جانب ( الميدان )

ومن أمثال تلك المعابد كثير قنادنا الدليل إليها في سراديب يكاد يكسو أرضها جماهير المتسولين في قذارتهم الكاملة ، وقد راقني منها معبد درجا أو معبد القردة لكثرة القردة الطليقة فيه والتي تمرح وتأكل وتنعم على حساب السذج من المدينة ، وعند المدخل ترى الطبول يدقها القسس ثلاث مرات في اليوم ، وهنا تذبج الجديان قرباناً لزوج سيقا التي تلذ لمنظر الدماء ، وترى هناك حوضاً علوه ٥٤ بوصة يعتقد القوم أنه ينكش في كل يوم مرة حتى لا يزيد حجمه على حبة السمسم .

الى داهي : أخذت القطار صوب دلهي تلك المسافة التي استغرقت ٢٨ ساعة ، وكان يبدو على غالب الحقول الجفاف الشديد الذي أيد لنا مبلغ سحر الرياح الموسمية وأمطارها في خصب تلك الجهات التي بدت ظامئة مجدبة ولما يتخلف المطر عن ميعاده سوى أسبوعين ، ولقد وقفنا طويلاً بمحطة (مغول سراي) ، وكان الشجر من حولها كثيراً وجموع القردة تمرح في الغابات وإلى جوار السكة الحديدية في كثرة عجيبة . وكم كانت دهشتي عظيمة عند ما باغتنا سرب من الطاووس يناهز المائة والخمسين عداً كان يسير بجوارنا كأنه هادي أليف ، وقد



جاز القطار محطة ( كونيپور )  
التاريخية الشهيرة مقر الثورة  
الهندية ( سنة ١٨٥٧ ) ، وقبيل  
دخولنا دلهي استقبلتنا زوبعة  
رملية عاتية كأنها وافدة من  
صحاري ( ثار ) إلى جنوبها وبدأت  
المدينة والحر بالغ أشده فقد كانت  
الدرجة ١١٣ ف وكان الهنود  
مغتبطين بذلك لأنه كلما اشتد  
الحر بشرهم بأمطار وابلّة .



( شكل ٢٠ ) أمام النصب التذكاري الذي أقيم  
في موضع ( الحجر الأسود ) في كالكنا

دلهي : قمت بجولة في

المدينة فبدأ لي أنها من المدن

القديمة التي غالبت الزمن وقاست من هجمات المغيرين الشيء الكثير حتى قيل إنها  
تقام على أنقاض إحدى عشرة مدينة ازدهرت من قبل ، ولا تزال لها بقية من  
أطلال ، وغالب أحيائها شبيه بالأحياء الوطنية في القاهرة ، وكانت كثرة المساجد  
بما ذنها العديدة تكسب المدينة مظهراً إسلامياً بحتاً إذ حلت هذه محل القباب  
الناقوسية الذهبية . وهنا يصلي القوم لله بدل الخضوع لشعوذة البرهمي والخشوع  
للأنصاب ، على أن غالب تلك الأنحاء تعوزه النظافة ، وإن كانت في الجمال خيراً  
من سابقاتها ، أخذت أزور أماكنها التاريخية ، وبدأت بزيارة القلعة وقد بناها  
شاه جهان بعد أن قرر نقل عاصمته من أجرا واختار مكانها هذا ، وهو يبعد خمسة  
أميال عن ( دلهي القديمة ) عاصمة جده هومايون ، وضع أول حجر سنة ١٦٣٨  
وتمت في تسع سنين ، فانتقل إليها في حفل عظيم وأطلق عليها اسم ( شاهجها نابات )





(شكل ٢١) جثة عروس فوق محرق الموتى  
في معبد قالى فى كلكتا

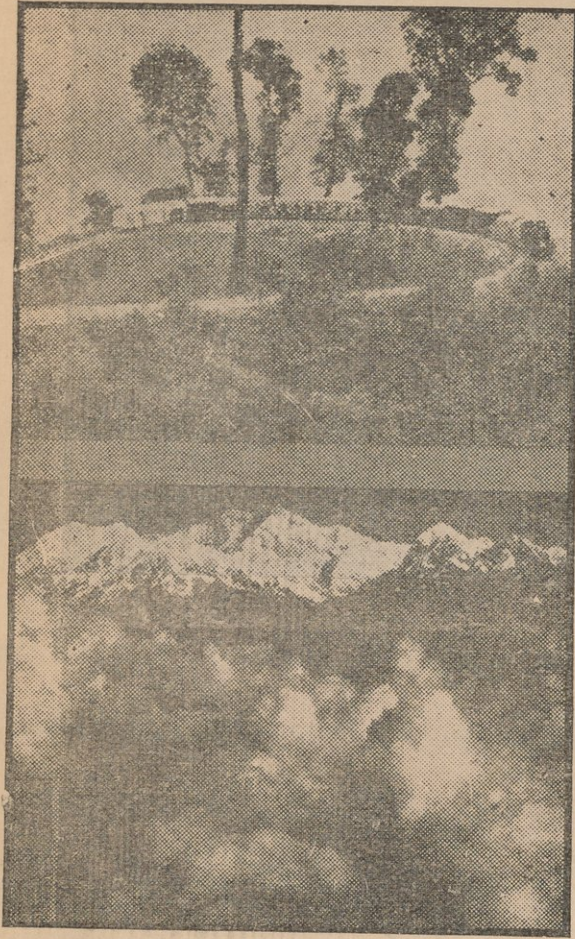
وكانت آيات الأبهة تفوق كل  
ما تقدمها حتى أصبحت عند  
الغريبيين مضرب الأمثال ،  
فمن مساجد إلى مقاصير إلى  
إيوانات إلى قصور كلها من  
الرخام المرصع باليواقيت  
والجواهر تفرش بالحرائر  
والطنافس الثمينة .

ولعل أشد الأهوال التي  
قاستها دلهى سنة ١٧٣٩ حين  
أمر نادر شاه بذبح أهلها  
لأنهم أغاروا على كتيبة  
صغيرة من جيشه ، وكان  
يرقب ذلك بنفسه من شرفة

المسجد الذهبي من شروق الشمس إلى الساعة الثانية مساء ، وبعد ذلك تنحى  
هذا الفارس منتصراً إلى بلاده وحمل ما قيمته خمسون مليون جنيه ، ومن بينها  
عرش الطاووس الشهير وماسة كوهنور ، وقد سقطت دلهى فى يد الجنرال  
(Lake) سنة ١٨٠٣ وأباح لسلائل المغول بعض الحقوق والمظاهر على أنها سحبت  
منهم نهائياً عقب الفتنة ، ونفى آخر ملوكهم (باداهور شاه) إلى رانجون حيث  
مات سنة ١٨٦٢ ، ونقلت العاصمة إلى كلكتا ، لكنهم أعادوها سنة ١٩١١  
بعد أن أمر الملك جورج الخامس بإنشاء دلهى الجديدة بجوارها .

دخلت القلعة التي يحوطها خندق فسيح (سعته ٧٩ وعمقه ٣٠ قدماً) وسور  
يتراوح علوه بين ٦٠ و ١١٠ قدماً ، وبها بابان أحدهما صوب اجرا ، والثانى صوب





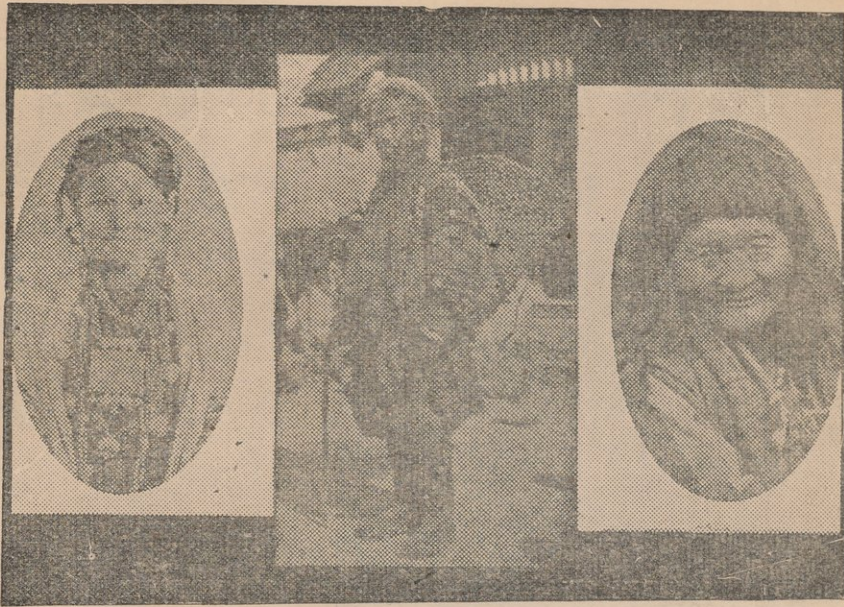
( شكل ٢٢ ) قمة كنتشنجنا ثانية ذرى العالم علوا  
ويرى فوقها قطار المرتفعات في لياته العجيبة

لاهور ، وهى بلدة كاملة فى  
داخلها إذ تقوم فيها المباني  
الفاخرة والمساجد العامرة  
والمتنزهات البديعة ، وكانت  
مقر الملوك ، ومساحتها تزيد  
على ضعفى أكبر قصر ملكى  
فى أوروبا ومن أكبر مبانيها :  
الديوان العام :

ذرعاه ٦٠ × ١٠٠ قدم ، يقوم  
سقفه على بوائك وعمد تخطف  
البصر بنقوشها الرائعة وهو يعد  
من آيات فن العمارة المغولية ،  
وكان يجلس الإمبراطور على  
عرشه ليستمع للمظالم التى يعرضها  
عليه وزراؤه نائبين عن الشعب

الديوان الخاص : ذرعاه ٧٦ × ٩٠ قدماً من الرخام الأبيض يرصع  
بالأحجار الكريمة فى زخرفة فارسية مغولية ، وكان سقفه من فضة لكنه استبدل  
بالخشب اليوم ، وهنا يحار اللب حقاً لما يرى من مظاهر العظمة شبيهة بما تقرأ  
فى ( ألف ليلة ) وقد نقش على جانبيه بالذهب ما معناه : إذا كان للأرض نصيب  
من الجنة فهو لا شك فى هذه الدار ، وتتوسط البهو قناة من رخام كان يطلق فيها  
الماء المعطر ليرطب المسكان ويعبقه ، وكان يتوسطه عرش الطاووس الساحر الذى  
نقله نادر شاه إلى فارس ، وسمى كذلك لأنه محاط بطاووسين قد نشرا ذنبيهما





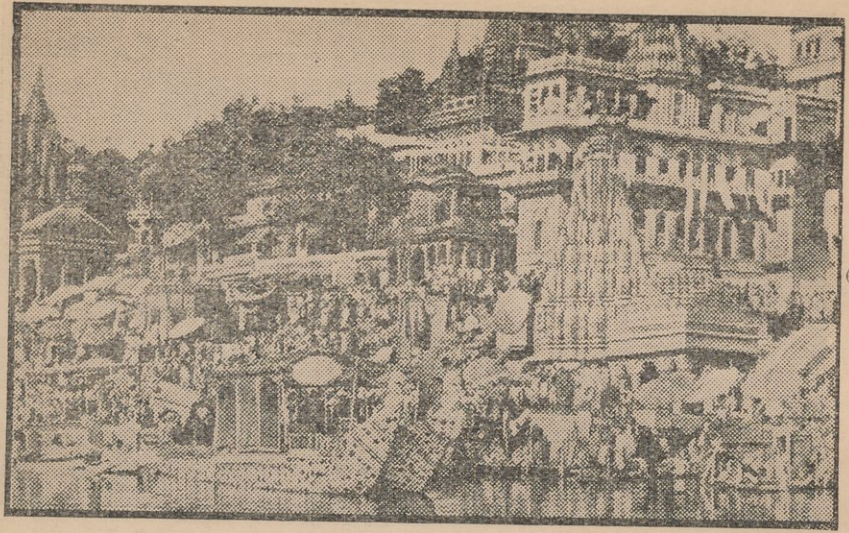
( شكل ٢٣ ) عجوز وشيخ وفتاة من سكان هملايا

المرصعين بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والماس ، وكان ذرعه ٦ × ٤ قدماً ، يقوم على قاعدة من ذهب أصم مرصع بالجواهر ، وبين الطاووسين ببغاء نحت في قطعة واحدة من زمرد ، ويرتفع غطاؤه على عمد من أحجار كريمة ، وكفهم ثمنه عند ذاك ستة ملايين من الجنيهات ، وكان يجلس عليه الملك يستمع للشكاوى بنفسه ويظن أنه لا يزال من محفوظات بلاد فارس ، والمكان أعد لمجلس الملك مع أخصائه ، وبه عدة غرف صغيرة آية في الإبداع والزخرف ، وله شرفة إلى الشرق كان يستقبل منها شمس الصباح ويستمتع لتلهيل شعبه من دونها ، ومنذ سنة ١٩١١ والإنجليز يعيدون تلك الذكري بإقامة حفل يطل منه الحاكم مرة كل عام .

**رانج محل :** أى قصر الزواج البراق وكان خاصاً بالسلطانة ، ولا تزال في

سقفه بقية من الفضة المرصعة بزهور من ذهب يحوطها بريق خاطف ، وفي الوسط نهر السكوثر ونافورة تغص بالسماك الملون ، وكان يطوق جيد كل سمكة عقد من ذهب به ياقوتة ولؤلؤة ، وتحوطه حدائق تزينها مجارى الرخام فى أبهة وجلال فاق كل وصف .





(شكل ٢٤) المباني والمعابد تغطي بها مدرجات نهر الكنج في بنارس كعبة الهندوس  
مسجد اللؤلؤة: أقامه اراجزيب داخل القلعة ، وكان خاصاً بشاه  
جهان الذي أسرف في زخرفته وتنسيقه حتى أضفى أجمل مساجد الهند وأصغرها ،  
وكان يشبه بالدرة أو اللؤلؤة لصغره وجماله .

المسجد الجامع : يتوسط ميداناً من المدينة فسيحاً يشرف عليه من  
ربوة تناهز ستة أمتار ، ويرتقى المرء إليه بسلم عظيم الامتداد في جميع جوانبه  
وأبوابه من نحاس ثقيل وسط بوائك فاخرة تؤدي بنا إلى فناء رحب يتوسطه  
حوض الوضوء ، والليوان يقع تحت قباب ثلاث تجانبها مئذنتان دقيقتان علو كل  
منها ١٣٠ قدماً ، وحول الجوانب الأخرى بوائك ذات سقف منقوشة ، وفي ركن  
منه غرفة صغيرة بها بعض آثار النبي صلعم توضع في عاب من فضة وذهب ودرجاج  
تملاؤها الزهور من داخلها ، وأهم تلك الخلفات التي تبركنا باسمها : شعرة واحدة  
حمراء من لحية الرسول وقطعة من رخام عليها طابع قدمه وحذاء من جلد الجمل  
في شكل الخف ، ومخطوطان للقرآن الكريم كتبوا بالكوفة ، أحدهما بخط الامام  
على كرم الله وجهه ، والآخر بخط ابنه الحسين عليه السلام ، والمسجد فاخر  
يشرف على المدينة فتراه أينما كنت في لونه الأحمر من الخارج وإن كان يبطن





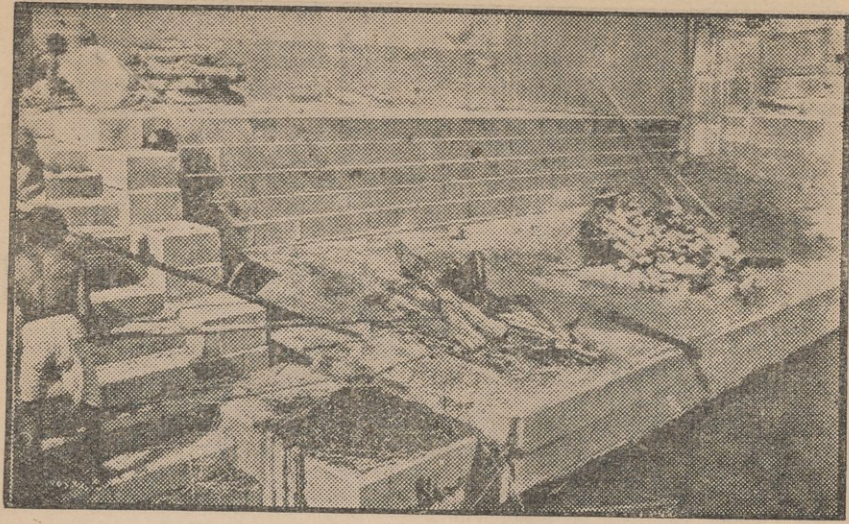
(شكل ٢٥) جماهير المغتسلين في ماء الكنج المقدس

كله بالرخام الأبيض أقامه شاه جهان ، وخص بنفسه باباً يواجه القلعة والمسكن الخاص فيها ، وكان يفتح يوم الجمعة لمروره ماشياً وعندئذ تفرش الطريق كلها بالطنافس الثمينة ، ويخال البعض أن هذا المسجد أكبر مساجد الدنيا .

ومن المساجد الأخرى التي زرتها مسجد سنهري الذهبي الذي جلس فيه نادر شاه أكبر ملوك الفرس السفاحين وهو يراقب جنده يذبجون الناس يوم دخل المدينة سنة ( ١٧٣٩ ) بـ

**منار قطب :** برج نصر بناه قطب الدين سنة ١٢٠٠ على بعد ١١ ميلاً من المدينة وأكمله حفيده ( التمش ) ويتألف من خمسة أدوار في علو ٢٣٨ قدماً وقطره من أسفله ٤٧ ويختنق في أعلاه إلى ٩ وقد أصلح أعلاه فيروز شاه سنة ١٣٦٨ ، أقيم ليخلد انتصار الإسلام على الهندوس ولبث يغالب الزمن طويلاً ويعبد من عجائب بلاد الهند لقدمه وغرابة هندسته ، وإلى جانبه مسجد قطب الدين أقدم مساجد الهند بناه من أنقاض المعابد الهندية التي دمرها المسلمون وفي داخل مقصورته قطعة من حديد مرن ترجع إلى القرن الثالث الهجري وظلت معرضة لتقلبات الزمن طوال تلك المدة ولم تصدأ ولا يعلم شيء عن أصلها سوى





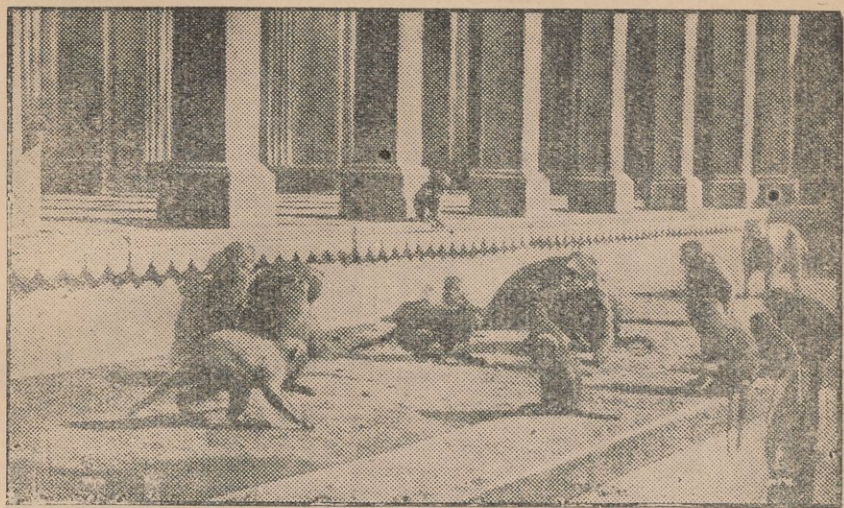
(شكل ٢٦) مدرج الموتى فى بنارس وترى به الجثث التى تأكلها النيران  
العبارة الآتية التى كتبت عليها : هو صاحب الصيت ( راجا دافا ) الذى حصل  
بمساعده على ملك العالم بغير شريك .

وفى ناحية أخرى مقبرة هومايون على نمط شبيه بتاج محل وهو أقدم مثل  
للعمارة المغولية بنى سنة ١٥٥٦ ودفن فيها ثانى عظماء المغول وبجانبه أقرباءه وأهل  
شاه جهان الذى قتله أخوه اورانجزيب طمعاً فى الملك وهنا سلم شاه كاداهوى الحكيم  
المغوليين سيفه للميجر هدرسن سنة ١٨٥٧ وبجانبها مقبرة التيمش والى زوجة  
قطب الدين

ذلك مثل مما يراه السائح فى دلهى تلك البلدة التى تقوم عظمها على منشآت  
الإسلام التى لولاها لما استحققت الذكر حيث لا ترى غيرها سوى بيوت حقيرة  
ومعابد هندوسية صغيرة ولذلك لم ترها انجلترا صالحة لتكون مركزاً لإدارة البلاد  
فأقامت بعيداً عنها مدينة دلهى الجديدة على أحدث النظم التى تحكى إحدى البلديات  
الأوروبية تماماً

الى أجرا : قمت إلى أجرا التى وصلتها فى أكثر من ثلاث ساعات فبدت  
مدينة حقيرة كأنها من مدن الريف القدرة المتربة ، وكان هجير القميط خانقاً لدرجة



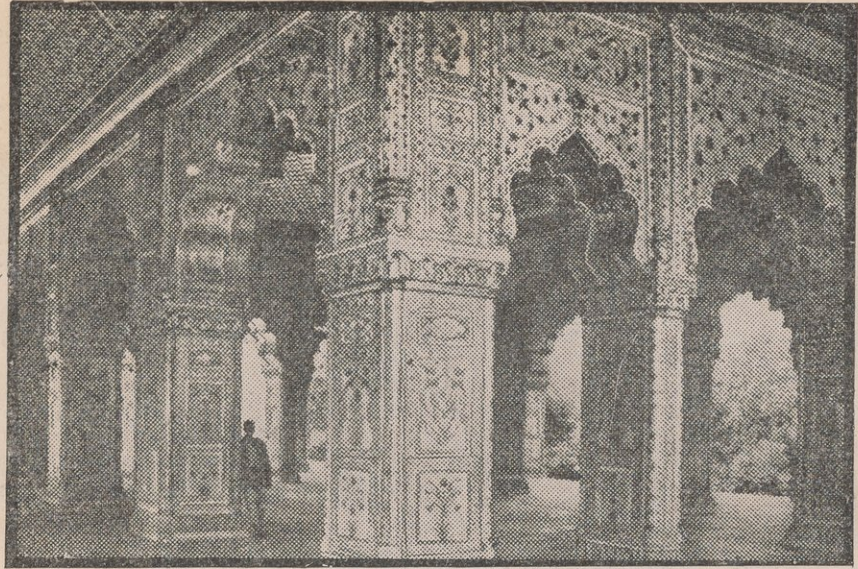


( شكل ٢٧ ) الفردة المقدسة داخل معبد ( درجا ) في بنارس

أن خادم النزل سألني أن كنت أرغب أن يعد لي سريراً في الخارج ( أعني في الشارع ) فدهشت ورفضت أول ليلة مرتكبناً على ( المروحة ) لكنني سارعت برجائه في الليلة الثانية أن يفعل ذلك إذ لم تغمض عيني من شدة الحر فتمت ليالي الباقية على جانب الطريق على أن بها من الدرر القديمة آيات بينات تحوطها تلك الأطلال والأقدار وفي مقدمتها :

تاج محل : بحق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية فما أن وقع ناظري عليه حتى ذهلت من عظمة ما رأيت ، جلال في دقة صنع ورواء في حسن تنسيق وآيات الفن بليغات في كل ناحية من نواحيه ، فهو وحده خير مبرر لزيارتي للهند . تلك البلاد التي كنت حتى الساعة لا أذكرها بالخير الكثير . دخلت من الباب الرئيسي وهو وحده قصر فاخر بأقبيته وقبابه ومناراته فأنكشفت حدائق الناحية الفسيحة التي نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة والنقائع يزينها زهر البشنين وورقه صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق وفي وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس ولكن أنى لقلمي الكليل أن يصور بدائعها ويحكي أعجازه فقد تنقل الكلمات والصور إلى القارىء شيئاً عن المكان ولكن أنى لها أن تشعره

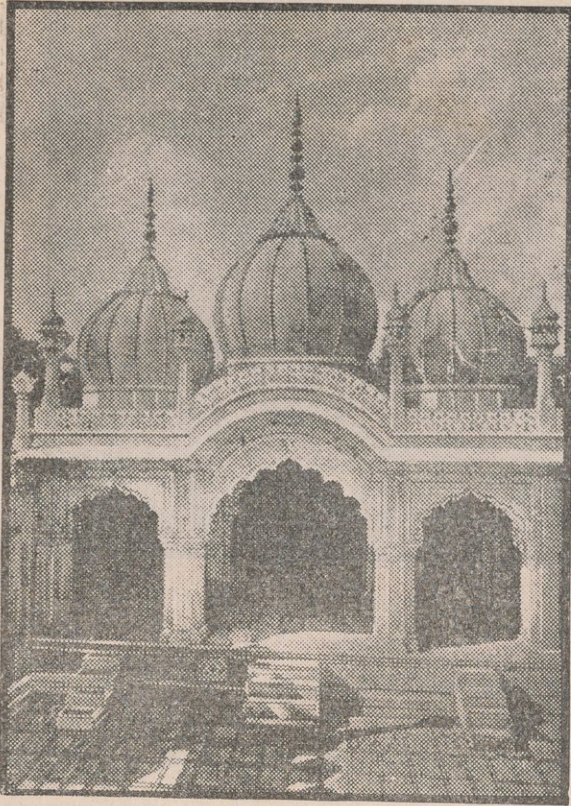




( شكل ٢٨ ) جانب من الديوان الخاص في زخرفته الفاخر  
وهندسته المغولية الاسلامية في دلهي

بالذهول والإكبار الذي يحسه من يراه بعينه ! صور لنفسك قصرًا فاخرًا أقيم كله  
من الرخام الوضاء والمرمر البراق تحوطه في الأركان ما دُن دقيقة رشيقة وتتوسطه  
قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة والمنائر الرفيعة والأرض والجدران قد  
رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية لا بالرسم الزيتي بل بالياقوت والزمرد  
والزبرجد وما إليها وتزين الجدران إلى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها  
لا بالمداد بل بمقصوس الرخام الأسود ألبس الجدران البيضاء ، والمدّهِش أن المهندس  
قد راعى المنظور في كتابتها بحيث أنك تراها تبدو في أعلى المكان وفي أسفلها بحجم  
واحد رغم علوه الشاهق ، وفي بعض الصفحات ترى الرخام قد خرط في أشكال  
شتى بين بارز وغائر ، أما النوافذ والفتحات فأشبهه بشباك الخرمات في دقة فائقة  
وهندسة عجيبة قدت في الرخام وكان يغطي غالب الفتحات الزجاج الطبيعي (الميكانيكا  
البيضاء) ولم يبق منها اليوم سوى لوح واحد ، وفي قلب المكان ترى المقبرة من المرمر  
رصع بمختلف الأحجار الكريمة يحوطها سور من مقصوس الرخام وهذه تضم رفات  
زوجة شاه جهان (ممتاز محل) وكان يحوطها سور من فضة ويكسو القبة غشاء  
( ٤ — آسيا )





ثقل من ذهب خالص كانت  
زنته ٢٦٥٠ رطلاً ، ويدخل  
الضوء من الباب فقط فيسقط  
على المقبرة رأساً فتشرق وسط  
الأركان المظلمة ، وقد الصقت  
بجانبها مقبرة أخرى فيما بعد دفن  
فيها زوجها وكان قد بدأ يقيم  
لنفسه مقبرة على مثال التاج  
في الجانب الآخر من النهر .  
وقد قيل إن السلطان

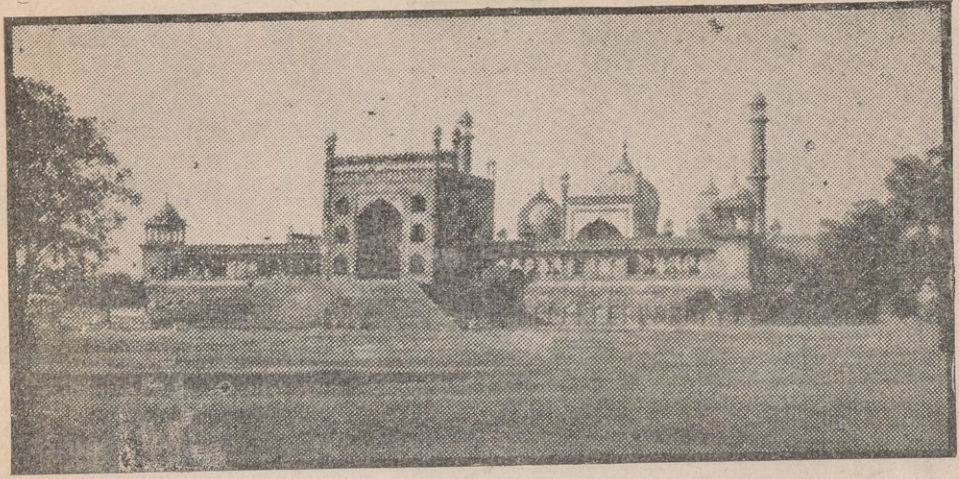
استدعى عباقرة الفن من  
العرب وفارس والهند وأوروبا

( شكل ٢٩ ) مسجد اللؤلؤة في قلعة دلهي  
فاستلزم البناء ١٧ سنة ، وكان طوال هذه المدة يشتغل عشرون ألف عامل  
حتى بلغت أكلافه أربعة ملايين من الجنيهات في ذاك الوقت الذي كانت الأموال  
فيه نادرة .

وللقبة الرئيسية أثر ساحر في ترديد صدى الصوت يفوق ذاك الذي لاحظته  
في پيزا بإيطاليا ، وقفت داخلها وكأني طربت لما أن تصورت المقرئ بصوته الرخيم  
يردد الآيات البينات أو يصيح بعبارات التأبين والندبة في أنغامها الشجية التي تبدو  
وكأنها دوى أصوات الملائكة تردده تلك القبة من السماء ولا أنسى زيارتي الثانية  
للتاج في المساء وكانت ليلة مقمرة فبدا وجهه في ضوء القمر الشاحب وسكون الليل  
الرهيب فأثار في النفس من ذكريات وأهاج من شجون .

تلك هي آية تقدير شاه جهان لزوجته الفاتنة التي أحبها حباً جماً وأخلص  
لها فشاركها الرأي في مهام الحكم وكان خاتم الدولة بيدها وكانت رحيمة بالناس





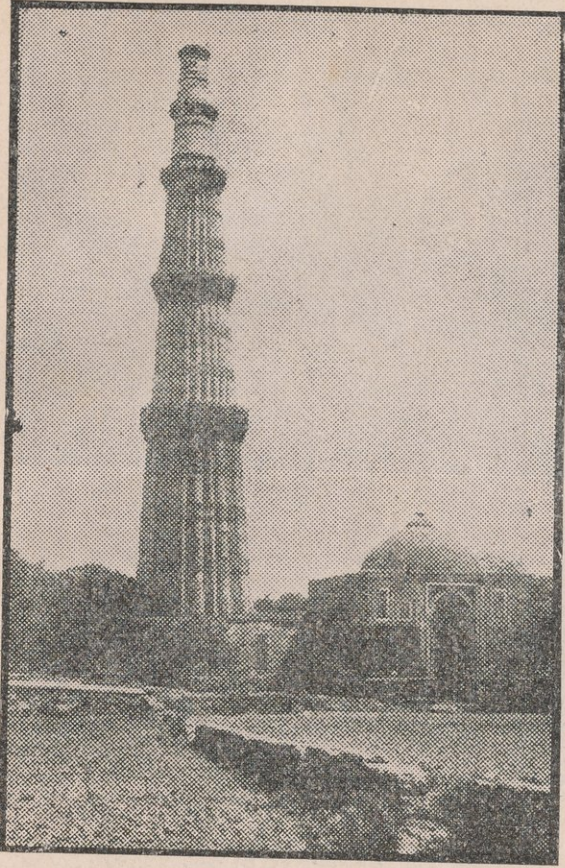
(شكل ٣٠) المسجد الجامع في دلهي وفي ركنه الأيمن بعض مخلفات النبي صلعم

تتدخل لمصلحتهم وكانت تلازم زوجها في حملاته الحربية حتى كانت الحملة التي غزا بها ثاثرى الدكن فاخطفها الموت لما أن جاءها الخاض في طفلها الرابع عشر فعاد محزوناً كسير القلب حتى حرم على رعاياه كل مظاهر السرور طويلاً وحبس نفسه عن الناس وعطل أعمال الدولة وقيل أنه سُم الحكم واعتزم التنازل لابنه .

### مقبرة اعتماد الدولة : أقامتها (نور محل) زوج الامبراطور (جهانجير)

مدفنًا لأبويها وكان أبوها من كبار رجال الدولة وفد مع زوجه من فارس تحت اسم (مرزاغياث) طلباً للجاه والثراء في بلاد الهند فنفدت ذخيرتهم في الطريق وزادهم الحظ ارتبوا كأبمولودة ترددوا طويلاً في التخلص منها حتى مرت بهم قافلة فأقنعتهم جميعاً فلما جاءوا السلطان نالوا لديه حظوة وأحب جهانجير — وكان إذ ذاك أميراً — فتاتهما ذات الجمال الفتان لكن أباه الامبراطور رفض ذلك وزوجها من أحد قواده فلما مات وولى ابنه الحكم كلف الضابط أن يطلق زوجته فأبى فدرس له وقتله وحبس الزوجة في القصر حتى قبلت أن تزوج منه فغير اسمها (نور محل) أى نور القصر وسماها (نور جهان) أى نور الدنيا، والمقبرة آية فنية أخرى تلي التاج في العظمة ودقة الصنع .





### مقبرة الأ كبر :

وهى من المباني الجديدة بالزيارة  
أقيمت من الصخر الرملى الأحمر  
تبطنه من داخله رقائق الرخام  
الأبيض فى رواء كبير وهى تضم  
رفات (أ كبر) مؤسس أجرا  
ولذلك يطلق على المدينة أحياناً  
(أ كبر باد).

### القلعة : شبيهة بتلك

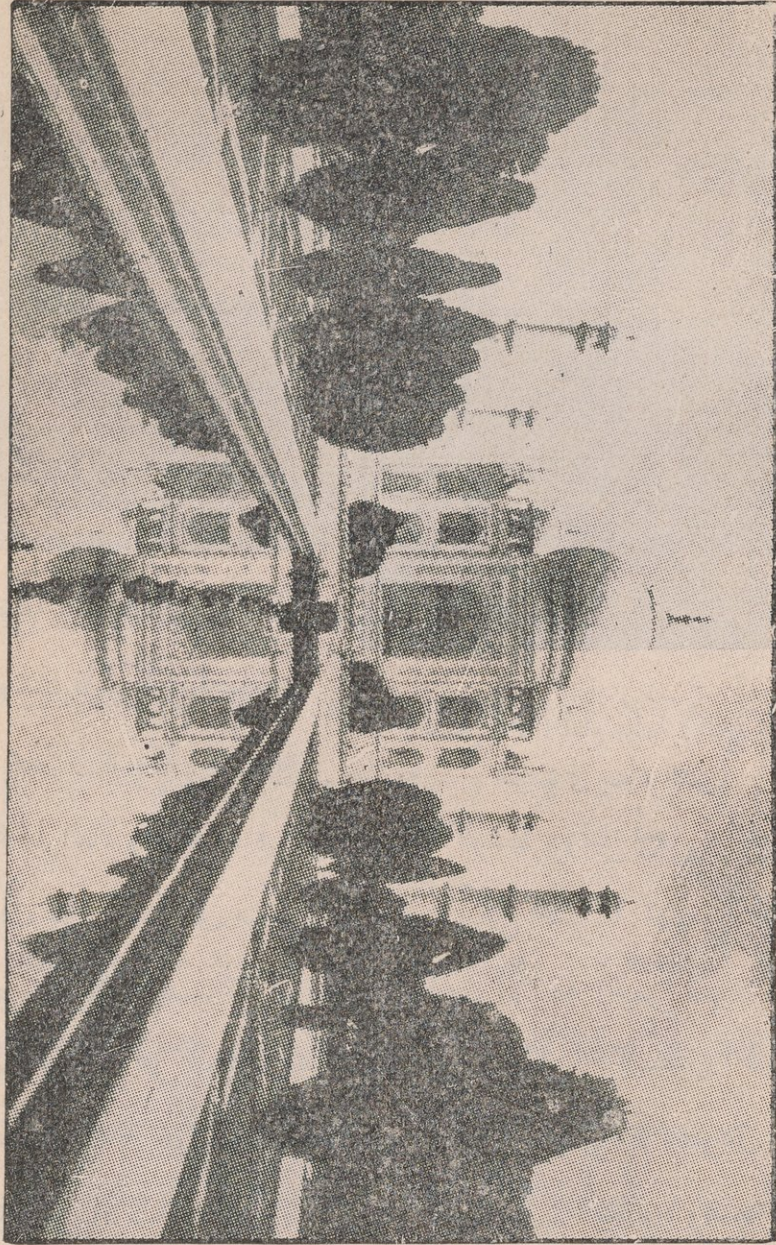
التي فى دلهى فى شكلها  
ومحتوياتها وتزيد قصر الياسمين

وسمى كذلك لكثرة أزهار (شكل ٣١) منار قطب وهو برج نصر مغولى فى دلهى  
الياسمين التى رصع بها المكان ، وقد أعده جهانجير مقر زوجته (نور محل) إذ  
كان يشرف على نهر الجننا ويكشف التاج محل بحداثته على الجانب الآخر من  
النهر ، وقد أقامت به سيدة التاج (ممتاز محل) زمناً طويلاً .

### الى بمباى : غادرت أجرا صوب بمباى (فى ٣٨ ساعة) ، وكنا نمر غالب

الطريق على بقاع شبه صحراوية هى حافة صحراء ثار فى مقاطعة راجپوتانا ، ولذلك  
كان الجو مؤلماً والتراب خانقاً والجفاف بالغاً أشده ، فما كدنا نرى للنبت أثراً  
سوى بعض الشجيرات القصيرة المنتشرة ، على أنا كلما قربنا جانب البحر إلى بمباى  
زادت ثروة الاقليم بالنبت وتحسنت الوجوه الأدمية وقل الحفاة وتقارب الزى  
(سروال أبيض وچا كته طويله) ، ومما ألفت نظرنا بوجه خاص زى السيدات  
وقد بدت الألوان الزاهية الصافية فى ملاءاتهن ، فكثيراً ما كنت أرى جمهرة





( شكل ٢٢ ) الناج محل ، درة الهند وآية الهندسة الغورية

منهن يسرن جماعات كل منهن في لون خاص كأنهن قوس السماء يتحرك في بريق ورواء ، وقد عبرنا قنطرة نهر تايقي الذي يبلغ اتساعه ثلاثة أمثال النيل على أنه كان جافاً لا يكاد يجري له ماء شأن سائر أخوار الهند التي كنا نمر بها كل آن وهي ناضبة مما يشعر بأهمية الرياح الموسمية ، فلولا أمطارها لما كانت بلادهم في الخصب شيئاً مذكوراً .





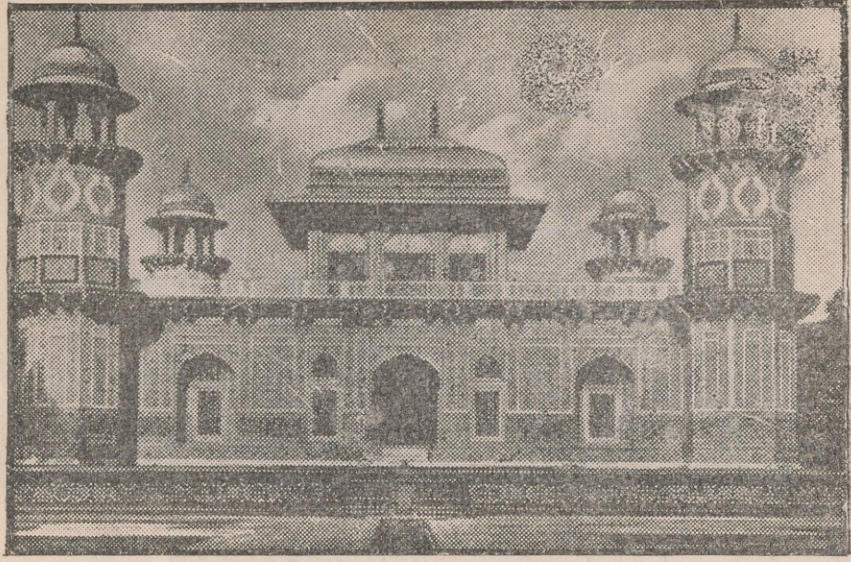
(شكل ٣٣) أمام عظمة (التاج محل)  
الحالدة في ضوء القمر

### بمباي : أو الخليج الجميل

كما سماها البرتغاليون ، وقيل إن الاسم مشتق من آلهة البلدة (مباديشي) في أكبر معابد المدينة بدت مدينة عظيمة حقاً ذات مبان فاخرة وقصور شاهجة وطرق معبدة فسيحة ، فهي في نظري المدينة الهندية الوحيدة التي تحكي مدائن أوروبا وجاهة ونظاماً وهي العاصمة التجارية للهند ، فالحركة فيها صاحبة أبدأ وبها محطتان للسكة الحديدية

من آخر محاط العالم وهما محطة فيكتوريا ومحطة الوسط ، ولعل أجمل نواحيها صخرة ملبار تشرف على الخليج في منظر رائع وهي مسكن الطبقة الارستقراطية كلها قلات فاخرة تحوطها الحدائق الياقة والمتنزهات الأنيقة أخص منها : ( الحديقة المعلقة ) التي تشرف على البحر وتنكشف من دونها أبراج السكون الخمسة حيث ترى رصيفاً حفرت به فجوات يضع فيها شيعة (الپارسي) موتاهم وسرعان ما تنقض عليها العقبان من الأشجار المجاورة فتأكل اللحم وتترك العظام ، وهذه توارى في بثر بدون حرق ، ذلك لأن هذا المذهب يعتقد في طهارة العناصر الثلاثة ( الماء والتراب والنار ) لذلك لا يصح تدنيسها ، ويحمل الجثث وهي عارية عباد ملتحمون إلى ذرى تلك الأبراج ومحيط أكبرها ٢٧٦ قدماً وعلوها ٢٥ ، وعند حمل العظام يلبس القوم القفازات ويقف أهل الموتى طويلاً في الحدائق هناك للتفكير في الموت وحوهم كثير من أشجار (السرو) ، والقوم يعتقدون أنه يشير دائماً إلى السماء لينذركم بالموت ، وعامتهم يديحون استخدام النار في الطبخ لكن غلاتهم

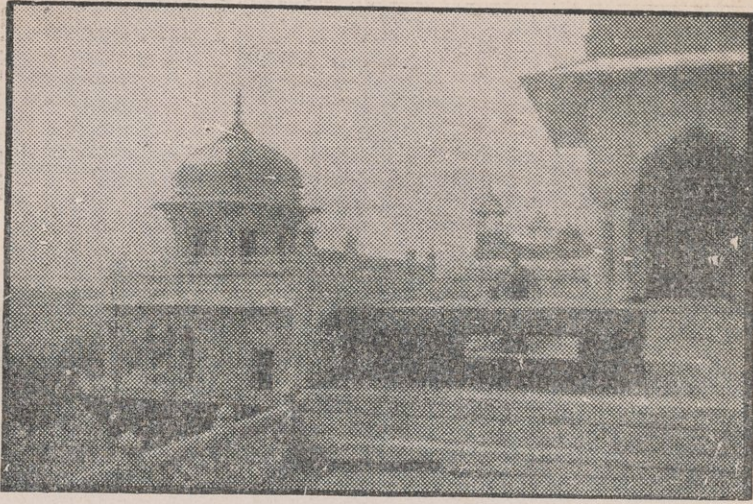




( شكل ٢٤ ) مقبرة اعتماد الدولة ، وهي من آيات الهندسة المغولية الاسلامية في أجرا  
يحرمون ذلك ، وجماعة البارسي من عبدة النار ، وهم أتباع الفيلسوف الفارسي  
( زردشت ) عددهم يناهز المليون ، ويعرفون باستعدادهم العظيم للتقدم وهم في مقدمة  
تجار العالم خبرة وأمانة .

**البقر المقدس :** وقد استرعى نظري في الهند عامة وفي بمباي خاصة  
كثرة البقر الذي يترك طليقاً يجوب أمهات الطرق في غير حصر ذلك لأن الهندوس  
يقدمونه ويعدون قتل البقرة لا بل ومجرد ضربها جرماً لا يغتفر ، فكم من مرة  
كان يفاجئني سائق السيارة أو الترام بالوقوف لأن هناك بقرة تنام وسط الطريق  
فلا يجروا أحد أن يضربها وإن طال وقوفه نزل فمسح عليها برفق حتى تقوم ،  
ودهشت مرة وأنا في محطة ( راتلام ) لأنني رأيت قطار السكة الحديدية أخذ  
يدوي صفيراً وهو مقبل على المحطة ثم وقف فجأة وبالبحث وجد الناس بقرة تمرح  
بجانب القضبان ، وقد حدث مرة أن أميراً هندوسياً صدم بقرة بسيارته فقتلها  
فظل يكفر عن ذنبه هذا بالهدايا الباهظة للبراهما أمداً طويلاً حتى غفر ذنبه ، وكل  
فرد وهو على سرير الموت يمسك بذنب البقرة حتى تفيض روحه إن أراد الجنة .



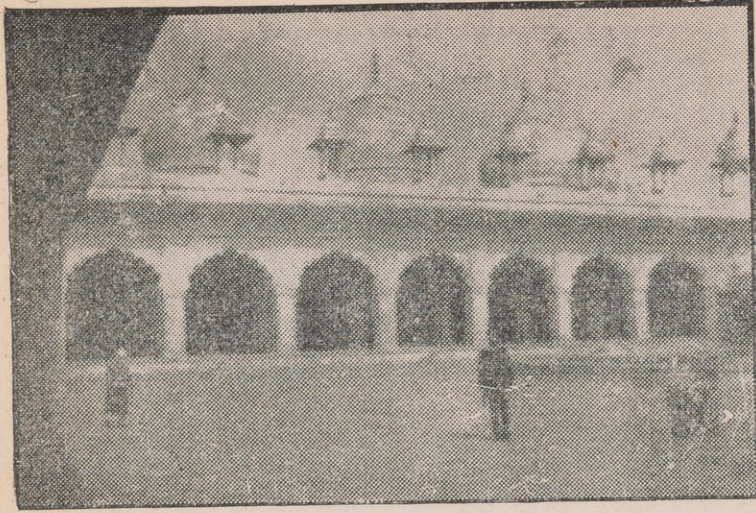


(شكل ٣٥) على شرفة برج الياسمين في أجرا

بلغنى أنه لما حضرت الوفاة مهراجا كاشمير الأخير طلب أن تساق البقرة إليه فى غرفته ، فلما لم يفلحوا فى ذلك حُمل الأمير إليها فأمسك بذنبها حتى فاضت روحه ، وقد قيل إن العصيان الهندى الكبير كان من السهل تلافيه لو أن بريطانيا منعت ذبح البقر ، وكان ولا يزال بعض الجند يأبون حمل السلاح لظنهم أن دهن البقر يدخل فى تركيبه ، وثار الكثير لأنهم كلفوا أن يفرغوا قطراً تملأها لحوم البقر المحفوظة فى علب جى بها من استراليا .

ويقدس الجميع خمسة منتجات فى البقرة وهى : اللبن والمسلى واللبن المتجبن والروت والبول ، وتلك توضع فى أوان ساعة الصلاة ثم تمزج ببعضها ويشربها القوم تبركاً كأعظم مطهر من الآثام ، وهذا المزيج يسمى فى عرفهم ( Panchagavia ) وغريب أن يكون أثر البول فى الطهر أبلغ لديهم ، فكثيراً ما كنا نرى الناس يقفون أثر بقرة لكى يحملوا البول وهو دافى فى آنية ، ويسرعون بها إلى بيوتهم ليشربوه على الفور أو ليدهنوا به وجوههم ورءوسهم . وقد يتلقاه الرجل فى يديه ويحتسيه أمامنا وهم يعدوننا أنجاساً لأننا نأكل لحم البقر ، ولذلك فهم لا يسمون علينا باليد مطلقاً وإن اضطر وجهائهم لبسوا القفازات ، فكم من مرة





مددت فيها يدي  
لأصافح بعض  
من تعرفت بهم  
من زملاء القطار  
من بين المتعلمين  
فكان خجلى  
شديداً عند

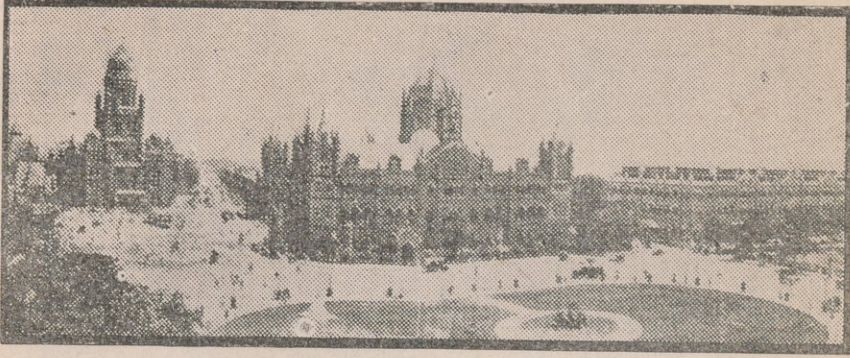
ما كنت أراهم

( شكل ٣٦ ) في فناء مسجد القلعة في أجرا

يرفضون ذلك ويضمون أيديهم إلى صدورهم لرد تحيتي لهم ، وحدث مرة أن  
خادم القطار قدم لى الطعام فى العربة التى كنت أركبها ، وما كاد يقع نظر إخوانى  
الهنود من حولى على اللحم الذى آكله حتى تنحوا عنى ، وأخذت ترمقنى نظراتهم  
بشئ من الاشمئزاز ، وقد عانيت طويلاً حتى استعدت علاقتى الحسنة معهم كرهة  
أخرى ، وصارحنى بعضهم أنه يرى فى ذلك الرجس كله ، وأن نفسه تتقزز  
ويعروه الشعور بالقيء لمجرد رؤية اللحم ، وكثيراً ما كنا نرى البقر تطوق جيده  
العقود ، وتخضب قرونها بالألوان وتزينها أطواق النحاس البراق ، ويقبل المارة  
على البقر لثماً وتقبيلاً .

ومن عجيب أمرهم أنهم يهتمون بإطعام البقر على قداسته ، ويكتفون بتركه  
يجوب الطرق ويرعى ما ألقى فيها من قمامات ، لذلك نرى غالب الأبقار عجافاً  
هزالاً قد أصابتها مختلف الأمراض ، ومما ساعد على انحطاط نوع البقر هناك  
أن من يهب عجلاً أو بقرة للمعبد تبركاً أو لمناسبة موت عزيز لديه يبتاع أرخص  
الأنواع وأردأها وتطلق هذه وتظل ملكاً للمعابد بدون رعاية أو استغلال ، وقد  
قدر عددها بنحو سبعين مليوناً لا يستفاد منها بشئ ، ولو استغل هذا العدد لانتج  
ما قيمته ١١٧½ مليون جنيه فى العام ، وطالما تقع المشاحنات المبيدة بين الهندوس



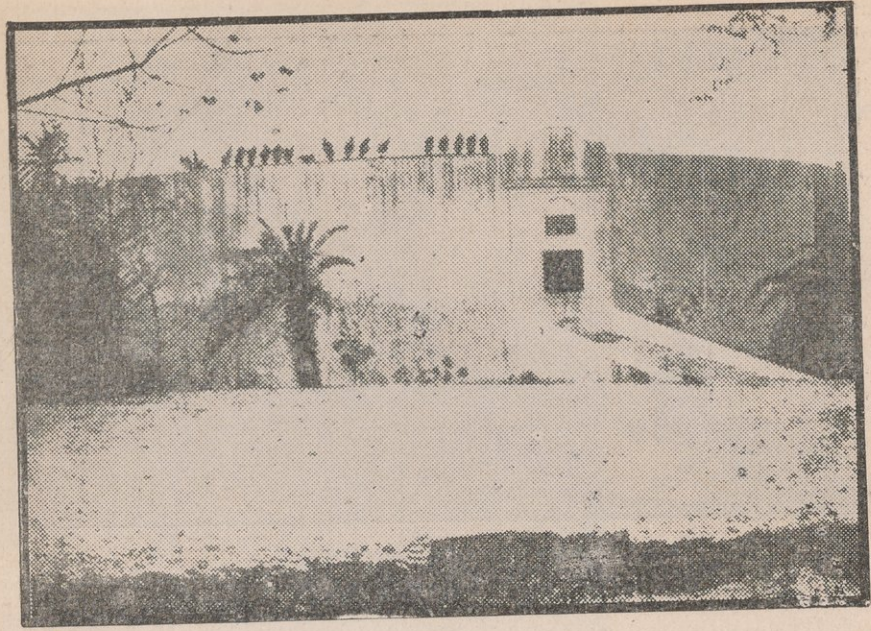


( شكل ٣٧ ) محطة فكتوريا في بمباى من أنفرمباني "العالم" ، وإلى اليسار دار البلدية

والمسامين يوم عيد الأضحى بسبب ذبح العجول ، وإن نعجب فعجبنا من تناقضهم ، فالبرهما هو الذى يبيعها للمسامين أحياناً إلى ذلك تضاف قسوة الهنود جميعاً فى معاملته ذاك الحيوان المقدس عند استخدامه فى جر العربات ، والعجول هى دابة الجر الرئيسية فى الهند ، فلا تكاد ترى حيواناً سايماً الذنب لأن السائق يضغط على فقرات ذنبه طول الطريق يستحثه على مواصلة السير لذلك تراها تتكسر ، إلى ذلك تعذيب البقرة ساعة حلبها إذ يدخل الحالب فى دبر البقرة عصى زودت بأهداب خشنة ولا يفتأ يحركها معتقداً أن ذلك يدر اللبن (Phuka) غير آبه بما يحدثه ذلك فى البقرة من الآلام المبرحة .

**عبر الدكن :** قمنا نتساق الغات الغربية ونعبر هضبة الدكن إلى مدراس (٢٥ ساعة) فجرتنا قاطرة كهربائية ، وأخذت تصعد بنا فى سرعة مخيفة والمناظر من حولنا كأنها من مناظر سويسرا أو اسكندناوه أو الراكس فى النسا بين ربي تكسوها الخضرة الوفيرة وخوانق وهوى غائرة سحيقة ومجارى وغدران وتقايع آسنة وكأنها من لجين ، ظل المنظر هكذا ساحراً زهاء أربع ساعات حتى وصلت پونا ، وهنا عادت المناظر مملة موحدة إذ أصبحنا فوق هضبة الدكن ، على أن الجو قد تحسن ونقصت الحرارة نقصاً محسوساً ، والسكة الحديدية إلى هنا عمل هندسى عظيم غاص بالليات والمطاوى العجيبة والانفاق المتعددة ، والكهرباء تستمد من





( شكل ٣٨ ) برج السكون حيث يعرض جماعة ( البارسي ) جثث موتاهم  
فتتنقض عليها تلك العقبان فتنهش لحمها على الفور

منحدرات للماء حبس ماؤها في أنابيب ضخمة لتزيده قوة ، لبثنا نسير فوق  
الدكن طويلا تلك البلاد التي تسكاد تكون جافة إذ لا يصيبها من المطر إلا النادر ،  
لذلك كنا نرى في الحقول شبه آبار أو أحواض مستديرة يملأها المطر ويدخر فيها  
ليستقي منه القوم ، وقلما كنا نمر بالقرى والساكنين مما يؤيد ندرة السكان هناك ،  
على أن بقاعا من الأرض كان يعدها ذووها استقبالا للمطر الضئيل المنتظر ، والناس  
هنا أكثر همجية من سواهم ولا يزال غالبهم من سلائل ( الدرافيدين ) سكان  
الهند الأوائل ، ومن أعجب عاداتهم أن يشاطر في الزوجة الواحدة أكثر من زوج  
واحد وبخاصة الإخوة ، وكانوا إلى أمد قريب يتعقبون أنسابهم من طريق الأم  
لذلك كان الميراث الرئيسي لابن الأخت أو ابن بنتها أو لأي شخص من فرع  
الأنثى أما الابن فلا يرث ولا تزال لتلك العادة اليوم بقية بين قبائل ( تودا Toda )  
هناك ، ويعد الهندوس أولئك القوم من الطبقات النجسة المنبوذة .

**الطبقات والمنبوذون :** لما أن أغار الهندوس على الدكن من

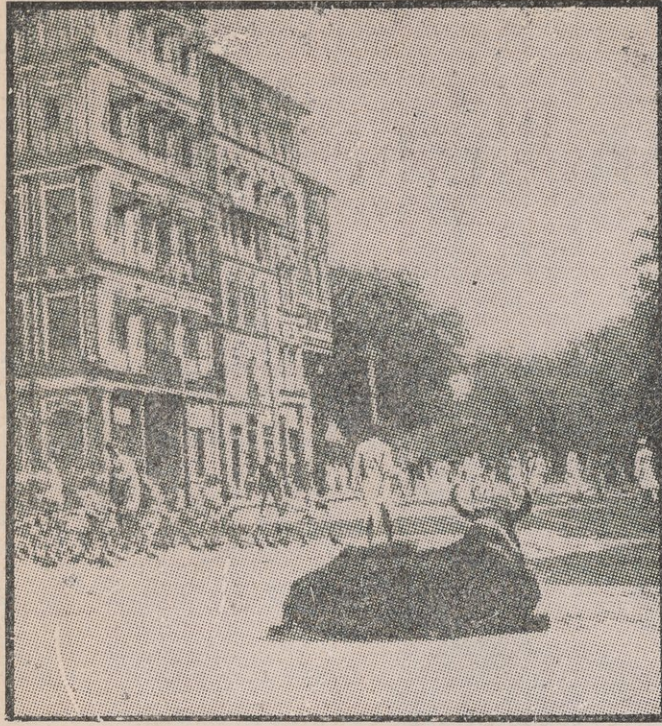




(شكل ٣٩) فريق من عبدة النار في بنارس

الشمال قسموا الناس طبقات بعد أن تملكوا الأراضي ووضع زعماء الدين (البراهما) أنفسهم موضع وكلاء الآلهة ، ويليه في المقام المقاتلة ( Kshattryas ) ثم الزراعة ( Vaisyns ) وكان يحتقرهم أفراد الطبقتين السابقتين ثم يلي أولئك طبقة ( Sudra ) السدرا وهم الخدم والأتباع ، ومن كل أولئك يتكون الهندوس ، وأخذت تلك الطبقات الأربع تتشعب إلى شيع ومذاهب عدة ، فكانت إلى سنة ١٨٧٢ ٦٩ ونما عديدها حتى أصبحت ٢٣٧٨ في سنة ١٩٠١ ولا تزال تزيد في كل يوم ، ويعتقد الهندوس أن الرجز يصيبهم إن اقتربوا من أحد أفراد طبقة أدنى منهم ولا يتبادلون المصاهرة قط ، ويقاطع الجميع كل فرد فقد شرف الانتساب لطبقته فلا تقبله حتى الطبقة التي هي أدنى منه ولا يغفر ذنبه إلا بعد تقديم القرابين الباهظة ( للبراهما ) ، وكثيراً ما كنت أرى القوم في عربة القطار ينتحون جانباً ، ويخبئون طعامهم عن أعين الأجانب أمثالي خشية أن تدنس نظراتنا طعامهم الطاهر ، وكنا نرى جميع الناس حتى المدقعين منهم يحملون أواني من نحاس بها ماء يشرب المسافر منه ولا يأمن لغيره قط أن يمسها مخافة تدينسها وإذا فرغت ينزل في الحائط بنفسه فيملأها بيده من صنوبر محكم الغلق تعده مصلحة السكة





الحديدية في جميع  
المحاط لهذا الغرض،  
وفي السجون يأبى  
المجرم تناول الأرز  
حتى يتأكد أن  
الطاهي من أفراد  
طبقة.

وهناك طبقة  
تعدّها الطبقات  
السافقة دون الجنس  
البشرى ويطلقون

(شكل ٤٠) البقر المقدس يعترض أمهات الطرق في بمباي

عليها كلمة پارياه (Pariah) خصت بهم الأعمال الوضيعة ولحق اسمهم العار، من  
بينهم الكناس والحنوتي والحلاق والمولدة وغيرهم، وقد حرموا التعليم، فلا يباح لهم  
القراءة حتى في الكتاب المقدس ولا يدخلون المعابد، وليس لهم أن يستقوا من  
الآبار العامة، ولا يتقاضون أمام المحاكم، ولا يدخلون صيدلة ولا حانوتاً، وفي  
بعض المقاطعات لا يباح لهم المرور في بعض الطرق العامة مخافة تدنيسها، فيبتاعون  
حاجاتهم بوساطة قوم يؤجرون على ذلك، ولهم أن يمارسوا مهنة التسول وعندئذ  
لا يقفون في الطرق بل يصيحون وهم على بعد فإن ألقى إليهم المارة بالصدقات  
انتظروا حتى يفرغ الطريق من المارة وأسرعوا لالتقاطها والعودة عاجلاً، ويعد  
البعض ظل أولئك نجساً فإن سقط على طعام وجب إتلافه، ومن هنا فهمت  
السبب الذي من أجله كنت أرى كل ركاب القطار يحملون (أعمدة الطعام)  
من أربع (طاسات) أو خمس، كلها من الأرز ذلك مخافة أن يصيب الدنس





الطعام وعندئذ يمكن إتلاف  
( طاسة ) واحدة لا الجميع ،  
وبعض أفراد تلك الطبقة  
يدنس غيره وهو بعيد عنه  
من أثر تنفسه أو رائحته ،  
لذلك يقف أولئك على بعد  
قد يفوق مائة متر عن  
الطريق العامة ، فإن قرب  
أكثر من ذلك وجب عليه  
أن يضع في عرض الطريق  
ورقة شجر خضراء ، وعليها

كومة من تراب ليدل ( شكل ٤١ ) إحدى نساء طبقة المنبوذين الأنجاس  
الناس بذلك أن هناك فرداً نجساً على مقربة ، فإذا رآها ( البراهما ) وقف وصاح  
غاضباً ، وعندئذ يعدو النجس حتى إذا ما بعد عنه بالمسافة المعينة صاح هو بدوره  
معلنًا ( البراهما ) بالمرور ، وفي بعض الجهات ( كساحل مالابار ) لا يباح لهم إقامة  
المساكن الثابتة بل أخصاص مؤقتة ، ولقد كان من حق سائر الطبقات الممتازة  
أن يطعنوا من يعترضهم من هؤلاء طعنات قد تودى بحياتهم ، وإن حرم القانون  
ذلك اليوم ، وعدد تلك الطبقة من المنبوذين ستون مليوناً ، أى نحو خمس سكان  
الهند ، ولقد تخصص فريق منهم اليوم في الإجرام والتشرد والدعارة ، وعدد هم  
نحو ٤ ١/٢ مليوناً ينبشون في طول البلاد وعرضها تحت اسم القبائل المجرمة .

ولقد منحت الحكومة طبقة المنبوذين اليوم كثيراً من الامتيازات على رغم  
معارضة الطبقات الأخرى ، لكنك تجد هذا محترماً في المدن الكبرى ، أما في





( شكل ٤٢ ) مثل من أمراء الهند الذين ينعمون على  
حساب شعوبهم البائسة

الأرياف فيسلمون  
عملياً جميع حقوقهم ،  
ففي مقاطعة مدراس  
مثلاً يبيح القانون  
قبول أولادهم في  
المدارس ، لكنهم  
لا يدخلون سوى  
٦٠٩ مدرسة من  
بين ٨١٥٧ مدرسة ،  
ويرى كثير من  
المتعلمين ورجال  
التشريع من الهنود  
وجوب مساواتهم  
بالغير ، لكنهم  
يقولون أن عملاً

كهذا يثير السواد الأعظم من الهندوس ، لأن نظام الطبقات في صلب الدين ،  
وقد بدأ منبوذو بنغالة وعددهم مليونان يناضلون ليدخلوا أبناءهم المدارس ، ويعتقد  
كثير منهم الإسلام والمسيحية تخلصاً من ظلم الطبقات المبيد .

والعجيب أنك لا ترى فرقاً في الشكل بين الطبقات النجسة وغير النجسة ،  
وقد ترى من أفراد الأنجاس من يروك منظره أكثر من أفراد الطبقات  
المتأزاة ، على أنهم لا يجراؤون أن يدخلوا مكاناً به أحد هؤلاء ، والمدهش أن  
غالب المنبوذين راض عن هذا النظام ، لأن الدين هو الذي يأمر به ، وإن أخذ  
عدد الثائرين عليه منهم يزيد يوماً فيوماً خصوصاً في مدراس ويكتب كثير من

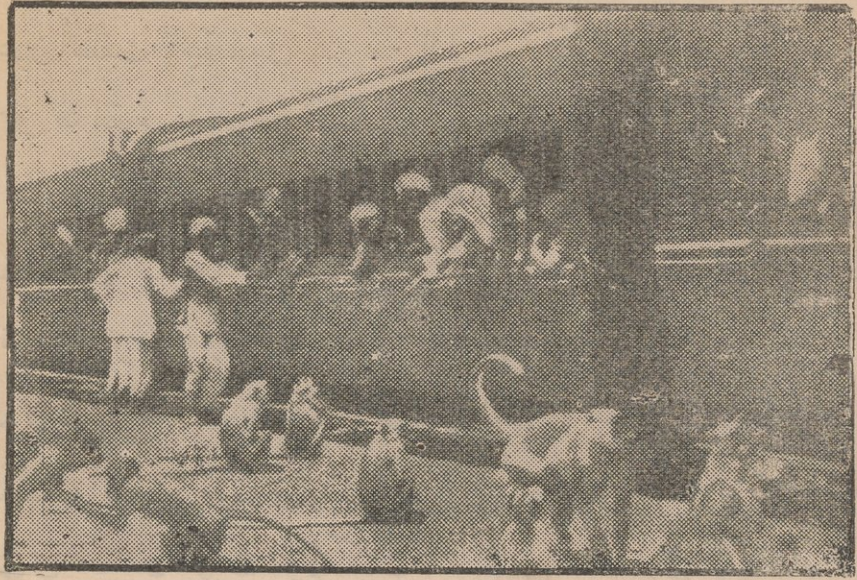


المتنورين من الهنود في ضرورة بقاء نظام الطبقات احتفاظاً بأوامر الدين وهم يرون أن الأنجاس يكفيهم أنهم لم يغطوا حقهم في الآخرة !

إلى مدراس : ظل القطار ينهب الأرض فوق الدكن ، واخترق جزءاً من مقاطعة ( حيدر باد ) أكبر المقاطعات المستقلة ، حاكمها أوتوقراطي شديد البأس وصاحب ثروة خيالية تحكى ثروة سليمان ، إذ يعد أغنى أمراء الدنيا ، قدرت كنوزه بأربعين مليون جنيه ، والعجيب أنه مسلم مع أن تسعة أعشار رعاياه من الهندوس ، وهو أكثر الأمراء ولاء لانجلترا ، ويطلق عليه ( نظام حيدر باد ) وهو الوحيد الذي يسك نقوداً خاصة به تغاير سائر نقود الهند ورعاياه في الجنوب من الدرافيديين وفي الشمال من الآريين ، والأراضي هنا فقيرة ذات حزون غالبها مهمل ، ولم أر بها من دلائل الخصب والغنى الذي كنت أقرأه شيئاً ، وعلمت أن الأهالي يدفعون للحكومة رويية ( ٧ قروش ) عن كل فدان انجليزي في كل عام ، وغالب الجهات المنزرعة ينمو بها بعض أنواع الفول ثم العظم ( النيلة ) وكان يبدو عشباً كالبرسيم في ورق عريض ، على أنه يكبر في شجيرات قصيرة تقتلع وتعطن في الماء ، ثم تغلى فتسيل العصارة السمكية وتجهز في أقراص هي النيلج المعروف ، وكان أظهر الشجر هنا نخيل ( بالميرا ) وهي شجرة تؤتي ثمرأ كالنرجيل يأكله القوم ويستخرجون منه السكر ، وإذا خدشوا الجذع سالت منه عصارة سريعة التخمر يعمل منها خمر الطبقة الفقيرة المسكر القوي الذي يسميه القوم ( تودى Toddy ) وإذا زرع الشجر حديثاً كون جذوراً نشوية خلال الثلاثة الشهور الأولى تقتلع وتجفف ويستمد منها دقيق الحلوى .

وهنا زاملني في القطار رجل تعرفت به بمناسبة عجيبة ذلك أنني لاحظت بجانبى على زجاج النافذة حشرة تطير ولها طنين أزعجني فعمدت إلى قتلها فتعرض الرجل ومنعني ثم تناولها بمنديل وألقى بها من النافذة وبمحدثته علمت أنه يدين بمذهب :





( شكل ٤٣ ) القردة تمرح آمنة حتى في جوار السكة الحديدية

الجانيه : وهذا يحرم إتلاف الحياة كائنة ما كانت من بينها الحشرات الضارة ، والنحل وما إليها ، حتى أنهم يحتمون كنس الأرض قبل الجلوس ، وعدم رش الأرض بماء كثير خشية قتل بعض الأرواح الطاهرة ، وتراهم يغطون أفواههم بقطعة من حرير خشية أن تدخل فيها حشرة أو بعوضة فتموت ، وهم لذلك يفضلون الاشتغال بالتجارة والصناعة ، ويكرهون الزراعة لأن المحراث يتناف كثيرًا من الحيوان ، وتلك جريمة كبرى .

وعدد أولئك في الهند يناهز أربعة ملايين ، وهم يدعون أنهم كانوا بوديين قبل أن يخلق بودا نفسه ، وهم يتفقون مع عامة الهندوس في الاعتقاد في تناسخ الأرواح ، فهم يرون أن الروح تحل أجساداً أخرى قد تكون آدمية ، وقد تكون لطائفة من الحيوان بعضها من طبقة عالية ، والبعض من طبقة خسيصة ، فالرجل الفاسد قد تحل روحه بعد موته سمكة أو حشرة ، ولما كانت جميع الحيوانات عرضة لانتحال روح آدمية حرم الجميع قتلها حتى ولو كانت مؤذية ، ففي سنة ١٨٩٦ حين فتك الطاعون بالهند فتكا ذريعاً عين مجاس أمر تسار جوائز تصرف ( ٥ - آسيا )



لمن يمسك بالفيران كي تجلس بما فيها من براغيث ملوثة حتى إذا ما انقضى خطر الطاعون أطلقت ثانية ، وفي كثير من البلدان تكثر الطيور الضارة كثرة هائلة فلا يتعرض لها القوم . فمثلاً لما كنت في كولمبو كانت صيحات الغربان المنفرة تلك التي تسير في سحابات تكاد تكسو أعلى البيوت تقلق راحتي ، وكنت كل يوم أستيقظ حول الساعة الرابعة صباحاً على أصواتها المزعجة ، وكانت تقيم أوكارها في جوانب الحجرات ، وزواياها بكثرة عجيبة ، وبعض الطيور يتلف المزارع ، ومع ذلك لا يمسها أحد بسوء ، وكأن طوائف الحيوان أحست ذاك الرفق ، فأضحت مستأنسة ، أذكر مرة أني رأيت سرباً من الطاووس يمر بجانبى في محطة مغول سراى في اطمئنان غريب ، ولم كنت أدخل من معابد أرى بها القرود تقف على كواهل الناس وتداعبهم في غير خوف ، وقد رأيت قروداً في سوق دلهي يسترق الفاكهة المعروضة ويأكلها ، والبائع يراه بعينه فلا يتعرض له ، وقد بلغ احترامهم للحيوان حد التقديس . فهم يقدسون القرود والفيل والنسر والطاووس والبيغاء ، وحتى الأفعى التي يموت بسببها عدد كبير كل عام ترى لها معابد خاصة تمرح الأفاعي فيها ، وتنحت لها تماثيل يسجد القوم أمامها .

وصلت مدراس ومنها قمت صوب الجنوب فزادت الأرض فقراً وجذباً ، ومررنا بمحطة ترتشنو بولي ذات الصخرة التاريخية المشهورة ، وهنا ركب إلى جانبي هندي بادن الجسم منفر المنظر ، وكأنه ( الغول الآدمي ) فجلس بجانبى ، ونصفه الأعلى عار ، ويطل بشيء كالدهن لامع تعلوه وجبهته خطوط من التراب الديني الذي كان يحدده بأصابعه بين ساعة وأخرى ليدل الناس على طبقته الدينية الممتازة خشية أن يدنسه من هو أدنى منه ، وهو من الوجهاء لما بدا من أتباعه وخدمه من ركاب الدرجة الرابعة الذين كانوا يفدون إليه في الدرجة الثانية كلما وقف القطار ، وكان طوال الوقت يتمخط في الهواء مرة كل دقيقتين ، ويبصق السائل الدموي من أثر العشب الذي يمضغه القوم جميعاً ، وكانت سيقانه وأقدامه عارية ،





(شكل ٤٤) ما زال قبائل القدا أهل سرنديب يجوبون الغابات بحالتهم الممجية ولما حان ميعاد الغداء أخرج من جانبه قطعة من ورق شجر الموز ووضعها بجانبه وفتح عامود الطعام واغترف بكامل يده الأرز مرات ووضعها على ورقة الموز ، ثم صب عليه بعضاً من مسلي البقر وعجنه بيده ثم أخذ يلققه بسرعة واضطراب مخافة أن يقع نظري على الطعام وهو ياتهمه فيفسده ، وقد أعاد الكرة من الطاسة الثانية ثم الثالثة وكلها من الأرز المسلوق ليس غير ، واختتم الوجبة بمسح يديه في جسمه في شكل قدر ، على أنى لا أغمطه حقه في التأنق إذ كان يحلى يديه بالسوار العريض وأصابعه بالخواتيم الثقيلة وجسده بالعقود ، وأذنيه بالاقراط ، والشيب والشيخوخة قد نالا منه كثيراً .

وصلنا نهاية الهند الجنوبية ، وانتقلنا إلى جانب البحر كي نستقل السابحة عبر خليج منار إلى جزيرة سيلان ، وهنا جاء الطبيب وحجر على جميع الركاب الوافدين من مدراس لأنها كانت مصابة بالكوليرا ، وكاد يمنعني من الدخول إلى الجزيرة لولا أن أبرزت له تذكرة السفر على الباخرة ( فوشيمي مارو ) إلى اليابان من كولمبو في اليوم التالي مباشرة .



خاتمة : ذلك بعض ما رأيته في بلاد الهند التي يخطئ الكثير فيعدونها قطراً واحداً على أنها في الحق قارة لا بل عالم بأسره إذ زاد عديدها على خمس سكان الدنيا ، وتعددت شعوبها الذين يتكلمون ٢٢٢ لهجة مختلفة ، ونحو خمسين لغة كتابية متباينة ، وقد اتسع نطاق عقائدهم من أعماق الفلسفة البرهمية الهادئة إلى سذاجة عبادة الطبيعة وتقديس الحيوانات الدنيا ، والهنود أكثر الناس تديناً وبخاصة الهندوس وهم ٢١٦ مليوناً ومجموع سكان الهند ٣٢٠ مليوناً ، وكانوا عباد الطبيعة منذ ثلاثة آلاف سنة ، ثلوثهم المقدس (المطر والنار والشمس) ، ثم أعقب ذلك اعتقادهم في براهما روح القدس الذي يتغلغل في كل شيء ويسود كل نفس ، ولا تكاد ترى عملاً أو تصرفاً يتم في معزل عن الدين ، لذلك مثلوا براهما في رموز شتى نراها نحن مضحكة عجيبة ، فبراهما هو الخالق وله أربعة رءوس وأربع أذرع ، وهو في معنى آخر يتمثل في قشنو الإله الحافظ لكل شيء (يحمل طوقاً وصدقة ومضرباً وغصناً من البشنين كلا في يد) ، وفي معنى ثالث يتمثل في سيفا إله التدمير والإ إنشاء يحوط أفضاه جلد النمر ، ثم أعقبت ذلك رموز براهما المقدسة وهي : السمكة والسلحفاة والحلوف والإنسان يبدو في صورة الأسد ، والبطل راما وكرشنا وآخرهم بودا الذي ضم إلى القائمة المقدسة استرضاء للبوديين ، أما البطل راما فكان له خادمه هانومان يعبد القوم في شكل قرد عليه طلاء أحمر ، أما كرشنا فيخضب باللون الأزرق ويطاء أفعى بقدميه ويعزف على مزمار ، وكان له زوجات عدة وذرية لا حصر لها وتقده بصفة خاصة طبقة العمال وكانت زوج قشنو آلهة الجمال والثراء ظهرت من تحت ماء البحر وكأنها الزهرة ، ويقدها أصحاب المتاجر والخوانيت ، أما سيفا فيختلف إلى المقابر ومحارق الجثث وزوجته قالي (الفضيحة) التي لا يمكن استرضاؤها إلا بسفك الدماء ، وتقديم الذبائح ، وابناها (جانش) مجدد الخطوط بجسمه البادن يتوجه رأس فيل ، وكارتيكيا إله الحرب وقائد الأحياء من الجن .





( شكل ٤٥ ) أحد أبدال ( الفقراء ) خزم ظهره  
بين إعجاب مواطنيه

هكذا نشأت عقائدهم  
وتعددت آلهتهم وملأت  
آفاق الهند معابدهم وأنصابهم  
في غير حصر حتى حق عليهم  
قول هيرودوت في أجدادنا  
قدماء المصريين ( أنهم  
أكثر شعوب الأرض  
تعبداً ) لذلك أضحت البلاد  
مربى خصيباً للشعوذة  
والخرافات والمعجزات التي  
يعتقدها الجميع بآيمان وثيق ،  
فالقديسون في زعمهم  
يستطيعون قطع الألسن  
وإرجاعها إلى حالتها الأولى ،

وإلقاء جبل في الهواء يظل عالقاً ثم يصعد عليه القديس ويعود وفي يده أشلاء  
ابن عاق لا يفتأ أن يعيده القديس إلى الحياة ، وأمثال تلك الخرافات عديدة  
بحيث يخيل للإنسان أن كل شيء مهما بدا معجزاً يمكن حدوثه في تلك البلاد  
الحوطة بالأسرار .

وعقلاؤهم يمضون وقتهم في التفكير العميق ويضمنون أجسادهم في سبيل  
تغذية نفوسهم فتقتصر أمانيتهم على خرقة تستر العورة ، وطعامهم لا يتجاوز سد  
الرمق ، وغلاتهم من مختلف المذاهب يسمون ( الفقراء ) ويقدمهم مواطنوهم لأنهم  
نبدوا الدنيا ورغبوا في الآخرة ، فبعضهم يعذب نفسه وينام على القتاد ، والبعض



يخزم ظهره ويعلق من جسده في الهواء طويلاً استرضاء للآلهة سيقا ، والبعض يدفن نفسه حياً أو يرفع ذراعه إلى السماء حتى تتصلب عضلاته أو يقف طواً حياته وهو يرعش جسمه ولا يتكىء على شيء يخفف من آلامه وتميز كل أولئك جدائل من الشعر ترسل في غزارة منفرة .

ولا يفوتني أن أشير إلى مبلغ الجهل المطلق والفقر المدقع الذي كنت ألمسه في كل نواحي الهند حتى كدت أشك فيما قرأته طويلاً عن تلك البلاد وما فيها من منابع للثروة والعلم لا تنفذ . فالأمية هناك عامة والجهل منتشر ، وقد ساعدت على ذلك عوامل من بينها تعدد اللغات وتعدد حروف كل واحدة ( بين ٢٠٠ و ٥٠٠ حرفاً ) وتعدد الطبقات وتعدد القرى وتفرقها بحيث يصعب أن تزود بالمدرسين إلى ذلك عدم الرغبة في تعليم النساء وهن نصف السكان تماماً وكذلك طبقة المنبوذين مما أخرج من دائرة التعليم نحو ١٥٠ مليوناً بين منبوذين ونساء إلى ذلك اعراض الأمراء عن تعليم الأفراد خشية أن يشوروا عليهم ، وعدم توافر المال للانفاق على التعليم .

أما جانب الثروة فمهم إلى حد كبير ، فالأراضي تزرع بطرق عتيقة و بغير تسميد ، والملكية مشتتة في مساحات متفرقة ، و انتاج الماشية معطل لأن ٧٠ مليوناً منها في ملكية المعابد إلى ذلك نفقات الزواج التي تلزم الآباء أن يدفعوا لبناتهم أموالاً طائلة . أما الاستدانة بالربا الفاحش فشائعة بين الجميع حتى قدر الدين على الهند من تلك الناحية بنحو ٤٠٠ مليون جنيه ( الربا بين ٣٣ و ٢٠٠ ٪ ) ويميل عامة الهنود إلى اكتناز المال وبخاصة الذهب ما استطاعوا بغير توظيف ، ولا يقل ما هو مكنوز عند الأهالي عن ٥٠٠ مليوناً ، فلو وظف هذا لأصبحت الهند من أغنى بلاد الدنيا ، ويقول رجال الاقتصاد إن الهند وحدها تبتلع ٤٠ ٪ من انتاج الذهب في الدنيا و ٣٠ ٪ من الفضة في كل عام ، ولا تنس أثر التسول في فقر البلاد ، فالدين البرهمنى يحث الناس على التصديق للتساوين لأن ذلك يعد ديناً لهم





( شكل ٤٦ ) الفقير المحزوم يتدلى من تلك الرافعة  
إمعاناً في تعذيب نفسه

يتقاضونه في الآخرة ، ولقد  
نما عدد أولئك حتى بلغ  
٧١ مليوناً من بينهم طبقة  
الفقراء وهم مليون ونصف  
تقريباً هذا إلى عدد البراهما  
الذى يتعذر حصره .

ويُعد كثير من الهنود  
نفقات الدفاع أكبر مبدد  
لثروة البلاد إذ تستنفد في  
زعمهم ٥٩ ٪ من الميزانية  
فلا يبقى شيء يذكر لينفق

منه على إصلاح شئون البلاد ، وإن قرر الانجليز أنها لا تزيد على ٣٠ ٪ أى  
بمعدل ٢١ شلن على كل فرد في الهند يدفعها في كل عام أعنى فوق ثلاثين مليوناً  
من الجنيهات .

على أنا يجب أن نذكر أن مدينة الهند بدأت قبل المدينيات الأوروبية وإن  
ظل سيرها بطيئاً وتقدمها غير محسوس ويرى بعض أبنائها أن مدينة الهند لها فضل  
على العالم من الناحية المعنوية التى تسعى وراء المثل الأعلى لا المادة كما فى الغرب ،  
ويرى بعض الحكماء أن الهند منشأ الإنسان ومنبت فطنته ، فى تلال ( سيواليك )  
الواطئة جنوب سملا وما يليها شمالا بغرب إلى أفغانستان دفائن قيمة لفصائل بائدة  
من حيوان يرجع عهده إلى العصر الثالث الجيولوجى ، وهى أكبر مجموعة كشفت  
لحفريات الحيوان الثديي دلت على أن شمال غرب الهند هى المنطقة التى نشأت فيها ،  
ومنها تشعبت سلاسلها إلى جميع الأصقاع ، ولذلك أصبحت تلك الزاوية من الدنيا





( شكل ٤٧ ) فى مواسم الحىج تأكل كل طبقة من الهندوس وحدها وتقدم  
الصدقات من طعام الأرز على ورق الموز بدل الآنية خشية تدنيسها

محط أنظار الباحثين من مختلف الأوساط العلمية ، وهم يرجحون أنها مولد  
الإنسان الأول .



## الملايو

### جنة الدنيا وبستانها اليانع

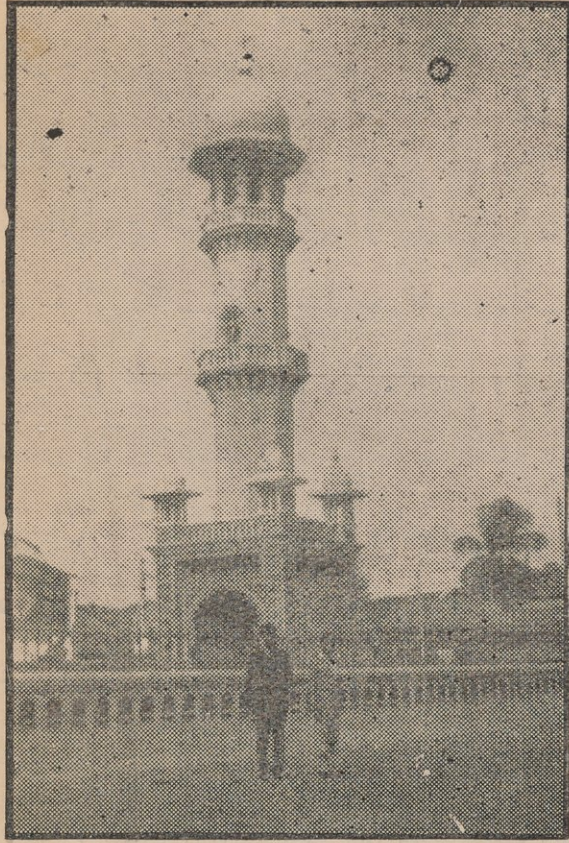
الى سنغافورة والملايو : في خمسة أيام بعد مغادرة كولومبو أقبلنا على سنغافورة وسط الجزائر المنشورة إزاء ساحلى سومطرة إلى اليمين ، وشاطئ الملايو إلى اليسار ، والبلاد صخرية على الجانبين ، وبخاصة سومطرة التى بدت فى شكل مخيف برباها المعقدة التى تتعاقب كأنها عقد من جبال لانهائية ، وكنا نقدم ساعاتنا كل يوم حتى بلغ مجموع ما قدمناه من كولمبو ساعة ونصفا ، وكأنا بذلك كنا نتعجل الأيام ونسابقها إذ كنا نقارب مشارق الشمس فيبكر ميقات الظهر كل يوم عن سالفه .

سنغافوره : ( ومعناها مدينة الأسد ) : بدت ممدودة الأرضفة على جوانب الربى التى يتلوى خلالها البحر فى عدة أجوان مكنتها أن تؤوى من السفن شيئاً كثيراً ، كل طائفة فى مقصورة منعزلة عن الأخرى ، وعلى جوانب الربى تقوم المساكن بسقوفها الحمراء المتحدرة ، وتشرف عليها الحاميات العسكرية العاتية . حلت المدينة فاسترعى نظرى بها حسن القيام على طرقها الفسيحة النظيفة ، بجانبها الجارى لتصريف مطرها الوابل المستمر ، والترام هناك يسير على الأرض فى غير قضبان يكسو عجله المطاط المصمت ، وله سنجتان متجاورتان تتصلان بسلكين ، وهو يسير بمهارة عجيبية ، ويتلوى من جانب إلى الآخر ، والسنبجة لا تزال متصلة بالأسلاك وغالب البيوت فى هندسة بسيطة لا تزيد على طابقين ، وتشرف على الطرق بيوائك ضيقة بدل الأطارين انقاء المطر ، وغليها تقوم المحال التجارية باعلاناتها التى تكتب بالصينية والانجليزية .



في شرايح مستطيلة ، وغالب السكان من الصينيين يليهم الهنود ثم الملايو ، ومن الغريب أن الذين يفهمون الإنجليزية قليلون ، ويشق الجزيرة نهر سنغافورة الصغير بجانبه شعاب البحر الضيقة وكأنها القنوات تعبرها القناطر العديدة ، والمتنزهات الجميلة والميادين الجذابة لا تدخل تحت حصر ، والمدينة خفيفة الروح إلى حد يجعلها من المدائن النادرة ، وفي المساء دخلت ملهى تعرض به بعض ألعابهم أذكر منها مقصورة الغناء الصيني ، كان يجلس الفتيات حول مائدة عليها الأنوار وحوها المصابيح المعلقة من الورق الصيني الملون ، وكان يقف خلفهن قارع الطبل وضارب الناقوس وعازف ( الرباب ) ، أما الغناء فتوجع في غير توافق ، وكانت تخفى شدة الطبول المزججة تلك الأصوات المنفرة ، ثم مقصورة للرقص الصيني وغالبه بحركات الأرجل والأيدي ، وثالثة للتمثيل على النمط الهزلي المصرى ، ولم يكن تراحم القوم على تلك الملاحى كبيراً رغم رخص أجورها ، وكانت تسترعى نظرى الثروة الهائلة فى النبات من حولى أينما حلت ، مما أيد القول بأن الملايو جنة الدنيا وبستانها اليانع ، وأخص أنواع النبات هناك ( المطاط ) بأشجاره الفضية النخيلة الباسقة التى تعد اليوم أعظم موارد الثروة هناك ، على الرغم من أن أثمانه قد تدهورت تدهوراً مخيفاً حتى بدأ القوم يفكرون فى استبداله بغيره ، وقد كانت النباتات متعددة وغللات البلاد متنوعة ، لكن علو سعر المطاط حدا بهم إلى استئصال كل ما عداه حتى كاد شجره اليوم يسد الآفاق مع أنه دخيل أتى به القوم من أمريكا عقب أن كشفها كولب الذى رأى صبية الأمريكان يلعبون بالمطاط الكرة فتساءل ماذا عسى أن تكون تلك المادة التى تبدو صماء ثقيلة فإذا مالمست الأرض أضحت جوفاء خفيفة ، فأجابه القوم قائلين ( كاوتشو ) وأروه شجره وعصيره الذى إذا سخن جمد وكون تلك الكور والأقراص السوداء ، وكذلك رآه يتزارو فيما بعد فى بيرو وقد ضايقه المطر فرأى الأهالى يلبسون أحذيتهم وأغطية رؤوسهم من ( الكاوتشو ) فنقلوه إلى الشرق ولم تعرف فائدته





( شكل ٤٨ ) أمام مسجد سنغافورة

في مسح الكتابة إلا بعد  
قرنين ونصف ، وفي القرن  
التاسع عشر استخدم في  
الأنابيب ، ثم صنع منه  
( ما كنتوش ) رداءه الواقى  
من المطر بأن ألصق قطعتين  
من القماش بمطاط رخو لين  
وأخيراً عرفوا كيف يخلطونه  
بالكبريت ليحتمل تقلب  
الأجواء ، ولما زادت شهرة  
المطاط زرعه الانجليز في  
حديقة ( كيو ) في لندن داخل  
بيوت زجاجية ، ومنها نقل

إلى المستعمرات الشرقية ومن بينها سيلان والملايو ، وهنا أحرق القوم أشجارهم  
جميعاً ليخلو الجو لشجر المطاط ، وكذا نرى العمال في المزارع يجوبون أرجاءها  
بمشارطهم التي يشقون بها خدوشاً تسيل منها العصارة إلى كيزان معلقة ثم يجمع  
العامل الواحد في كل يوم محصول ٣٠٠ أو ٤٠٠ شجرة وينقله إلى المصنع وسط  
المزرعة ليغلى ويصير أقراصاً هي المطاط الخام ، وقد كان يباع الرطل قديماً بستين  
قرشاً فنزل اليوم إلى قرشين ونصف ، لذلك حل بالبلاد كساد لم يسبق له مثيل ،  
وأفلس في المطاط كثير من كبار التجار هناك ، على أن البعض يرى بصيص  
أمل في أن هذا الرخص سيزيد الطلب على المطاط ، فيعود إلى حالته المربحة رغم  
ثمنه الضئيل .



**سلطنة جوهور :** من ضواحي سنغافورة ركبنا إليها سيارة عبرت جزيرة سنغافورة كلها سائرة إلى الشمال صوب الملايو ، ولا تسلك عن ثروة الطريق في الأدغال والغابات بعضها غفل لم تمسه يد الإنسان ، وهنا كدنا نذهل لتعدد الفصائل من الشجر والعشب والسرخس إلى ذلك الحيوانات الوفيرة ، وبخاصة القردة التي كانت تطل علينا من جميع جوانب الغابات ، ويقول القوم بأن تلك الأماكن غنية جداً بالأفاعى والخفاش واليراعة وبعض الوحوش ، أما طريقنا فكان يتلوى كالأفعى وسط الغابات القائمة ، وحيث كانت تتعهد الأرض يد الإنسان ، كنا نرى أشجار المطاط في صفوف متوازية تكاد تملأ ثلاثة أرباع الأراضي ، وقد مررنا ببعض المزارع وفيها بدأ ذووها يستأصلون الشجر لينسحوا المجال لغيره كالخضر والفاكهة ، وبخاصة الأناناس الذي كان يبدو نباته وكأنه الصبار الكبير تتوسط كل شجيرة ثمرة واحدة في طول ( كوز الشام ) وفي لون يرتقلى وملامس خشن محبب ، وكلما قطعت الثمرة أعقبتها غيرها ، ويستمر الثمار طول العام .

لبثنا نسير بالسيارة وسط تلك الجنة النادرة زهاء ساعتين ، وبعدها عبرنا البوغاز إلى الملايو فدخلنا سلطنة جوهور ، وهي إحدى ولايات الملايو التي يحكمها سلطان مسلم تحت إشراف الإنجليز ، وعند ما قاربنا قصر السلطان دخلنا في مجموعة من متنزعات أبدع تنسيقها ، يتوسطها قصر من طبقتين ، تمتد في الدور الأسفل غرف الولائم وعليها السمط الفاخرة وغرف المعروضات من الهدايا بين فضاء وذهب وأسلحة ، وفي الدور الأعلى غرف الجلوس والنوم وكلها على النمط الغربي والسلطان زوج لأحدى الأوروبيات قلما يقيم هناك ، فهو يمضي تسعة شهور خارج بلاده يعيش عيشة بدخ وإسراف شديد ، والناس من دونه يكاد يقتلهم الفقر ، وهكذا سائر الأمراء أمثاله في تلك الولايات ينعمون على حساب الرعايا البائسين ، فسيحان مقسم الأرزاق ! وبجانب القصر مسجد في هندسة شبه مغولية



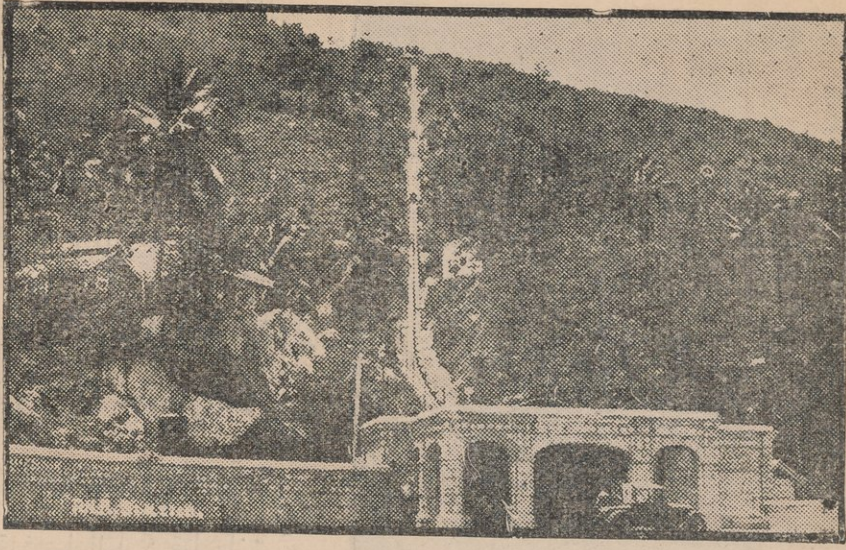


( شكل ٤٩ ) فتيات الملايو في سجنهم العربية  
الجميلة يجمعن المطاط

تقوم حوله أبراج بدل المآذن  
وبهوه فاخر النقش والأثاث  
ينزل الإنسان درجاً من رخام  
إلى المغسل ( الميضة ) الفسيحة  
للوضوء ، وفي عودتنا إلى  
سنغافورة زرنا حديقة النبات  
ذائعة الصيت ، وبخاصة في  
مجموعة أشجار الفاكهة الممتازة .  
أبحرت الباخرة وظلت  
تسير خلال مجاميع الجزائر  
تكسوها الغابات والربى زهاء  
ثلاث ساعات مما يقنع المرء  
بعظمة هذا الموقع من الوجهة  
العسكرية فهو حقاً مفتاح

الشرق الأقصى ، ولذلك ليس بعجيب أن وجدنا العمل سائراً على ساق وقدم في  
إنجاز القاعدة البحرية الكبرى رغم أكلافها الباهظة التي لا تقل عن أحد عشر  
مليون جنيه ، وأول من احتل جزيرة سنغافورة ( السير ستامفورد رافل ) سنة ١٨١٩  
وكانت تكسى بالغابات المهمة ، وبها قرية حقيرة فابتاعها الانجليز من سلطان  
جوهور بخمسة آلاف جنيه و ١٥٠٠ جنيه كمرتب سنوي يدفع مدة حياة ذاك  
السلطان ، واليوم تضخم سكانها فأضحوا ٤٢٠ ألفاً منهم ٣١٥ صينيون و ٥٤٠ ملايو  
و ٣٢ هنود ، ولكثرة التزاحم هناك بدأت الحكومة تفكر في تحديد المهاجرة إليها  
واعترافاً بفضل ( السير رافل ) ترى تمثاله يزين أكبر ميادين المدينة ، واسمه ذائع  
في كثير من منشآتها .



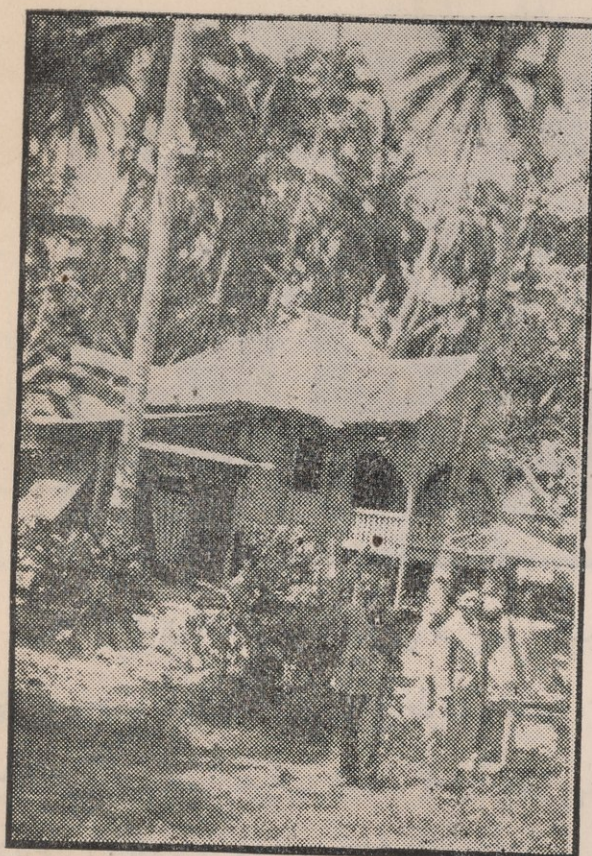


( شكل ٥٠ ) صخرة پناج تكسوها الغابات ويتسلقها ترام الجبال

أما سائر الملايو فتتألف من ولايات بعضها مؤتلف والبعض تحت سلاطين مستقلين وجميعهم تحت إرشاد الانجليز ، وأول مكان احتله الانجليز من شبه الجزيرة مدينة ملقة التي انتزعوها من هولندية ، ثم پناج وهي جزيرة على الساحل الغربي ، وكانت تدير كل ذلك شركة الهند الشرقية ثم انتقلت للتاج البريطاني ، ويغلب أن تكون الجهات التي تقام بها الحصون الانجليزية إلى الجانب الغربي من الملايو لتشرف على البوغاز .

رسونا على پناج : في عودتي لمصر ويفصلها عن الملايو بوغاز ضيق يؤوى عدداً كبيراً من السفن ، والجزيرة صخرية يحيط بشاطئها طريق مبسوط يحيطه ٢٦ ميلاً ، وتقام غالب المساكن على جانب ذلك الطريق ، على أن بعضها كان يقوم على منحدراتها التي يعلو بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم . أما الطبقة الممتازة فتقطن الذروة التي تصلها بقطار كهربائي هوائى . ومن هنالك ينكشف منظر البحر وشتى جزائره في رواء ساحر ، ومبانيها شبيهة بتلك التي في سنغافورة وكذلك ساكنوها ، ولعل أجملهم سحنة الملايو فهم أقرب إلى الملامح العربية في سمرة خفيفة ، وهم أخف روحاً وأكثر جاذبية من الصينيين والهنود وتعوز الجميع النظافة



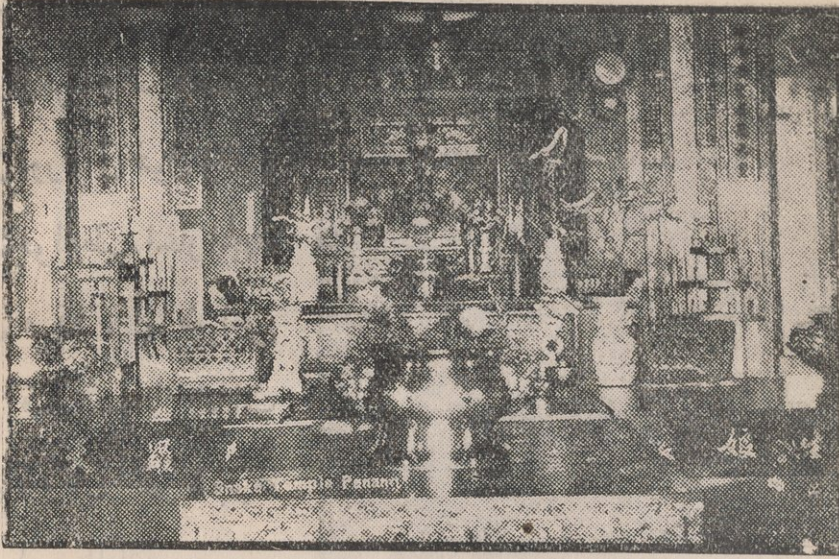


وغال بهم يبدو مجسمه العارى  
البراق المنقر ، وقد التصقوا  
بجدران دورهم فى خمول زائد ،  
ولعل للجو الرطب الحار المجهد  
أثراً فى هذا ، أما ضواحي  
المدينة فتكسوها الغابات  
الكثيفة وكان أظهر شجرها  
الترجيل والمطاط وبعض  
أشجار الفاكهة الغريبة  
كالمانجوستين والراموندان  
والدوريان ، ولغالها أهداب  
فى ألوان مختلفة ، كذلك  
فاكهة الخبز والأناس

( شكل ٥١ ) تقوم بيوت الملايو على عمد  
من خشب وسط الغابات

وكثير غيرها ، وكانت تقوم مساكن القوم وسط تلك الغابات شأنها فى جميع بلاد  
الملايو على عمد من جذوع الشجر لاجتناب السيول والحشرات وليستظلوا بالشجر  
الكثيف من وهج الشمس الاستوائية ، وهناك حديقة للنبات شبيهة بتلك التى  
فى سنغافورة ، ولعل أغرب ما زرته هناك معبد الأفاعى ، دخلناه فراعتنا كثرة  
الأفاعى الطليقة التى لا تصيب أحداً بأذى رغم أنها كانت تسير حولنا وترحف  
فوق أكتافنا بأحجامها المختلفة ونقوشها البديعة ، وكان كثير منها يتدلى من  
الأركان والمصاييح والشرفات وعددها مائتان تستهلك فى اليوم مائة بيضة ، وهى  
تخرج لتروح فى الغابات المجاورة للمعبد ليلاً ، وتظل طوال نهارها داخل المعبد ،  
وعريب أنها لا تؤذى رغم وجود أسنانها ، وكنا نرى كثيراً من جلودها الشفافة





( شكل ٥٢ ) معبد الأفاعى تمرح به الحيات وتتدلى من جميع الأركان  
التي انساخت عنها معلقة في كامل طولها ونقشها ، وهناك في قفص كبير أفعى بالغة  
الحجم والطول تنفر نفرات مخيفة كلما أحطنا بها ، ورواد المعبد يقدسون تلك  
الأفاعى ، ويقدمون لها المساعدات المالية إبقاء عليها وإجلالا لها .  
ونفقات المعيشة في تلك البلاد عالية إلى حد لا يطاق رغم أن المرء يزهد في  
المقام في جوها المحرق القتال .  
غادرنا الملايو وسنغافورة صوب بلاد اليابان وبعد خمسة أيام وصلنا هنج كنج  
وفي ثلاثة أيام أخرى رسونا على شنغهاي . ثم تبعها كوبي أول تغور اليابان في  
ثلاثة أيام أخرى .



## اليابان

### آية العصر في الاخلاص والنهوض

نبذة تاريخية : يبدأ تاريخ اليابان منذ عهد الامبراطور ( كيامي تنو ) سنة ٥٤٠ ميلادية ، وسبقه نحو ألف عام سادتها الأوهام والأقاصيص عن بعض الأبطال إذ لم يدون عنها شيء باليقين ، وفي القرن السادس دخلت البوذية البلاد وبدأت مدنية اليابان الحقة ، فلقد أحضر القسس من كوريا كتبهم المقدسة ، ونقلوا معهم فن الطباعة وتمثيل بوذا وطائفة من صانعي التماثيل وبناء المعابد والمصورين والمثالين والمدرسين ، ونشروا التقويم والحساب الصيني ، ولقد ساد الدين الجديد عقول البلاط حتى عدوه دين الدولة سنة ٦٢١ ، وعد الأمير ( شوتوكو ) مؤسسه ، على أن دين البلاد — الشنتوى — قاوم الدين الجديد في البدء ، لكن سرعان ما تهادن الإثنان لما أن اعترف البوذي بالآلهة الشنتوية ، نهض عندئذ الفن الياباني ، ونشطت العمارة فظهرت آثارها في معبد ( هوريوجي ) أقدم بناء أقيم من الخشب في العالم والأثر الوحيد الباقي اليوم الذي أقيم على نمط الهندسة الكورية والصينية منذ ١٣٠٠ سنة .

وفي صدر القرن السابع سادت الحضارة الصينية الناس جميعاً حتى في نظام الحكومة الذي تغير من الحكم الإقطاعي إلى الملكية ( سنة ٦٠٣ ) فقسمت فروع الادارة على النمط الصيني ، ونشأت طبقة من الأشراف ، على أن هذا النظام كان له خصوم فساعدت المشادة بين الفريقين على قيام هيئة عسكرية امتازت على جماعة الزراع واتخذت ( نارا ) عاصمة البلاد كلها سنة ٧١٠ وهنا ازدهر الفن ، يؤيد ذلك التمثال الأكبر ( ديابوتسو ) لبودا ولا يزال أكبر تماثيل اليابان من النحاس ثم الناقوس الأكبر وكذلك أقدم كتاب خط باليابانية .



وعلى أثر ازدياد الحماسة للدين الحديث كثرت المنشآت الدينية ، واتسعت  
أملاكها وثروتها تحرسها فئة مسلحة لم تلبث أن تدخلت في شئون الدولة ، فلم  
تر الحكومة بداً من نقل العاصمة إلى كيوتو سنة ٧٩٤ التي ظلت مهذاً للحضارة  
أربعة قرون ، حتى كانت سنة ١١٩٢ حين أقام ( يوريتومو ) حكومة عسكرية  
في كاماكورا فأصبح نفوذ الحضارة الامبراطورية ( كيوتو ) صورياً بجانبها واختار  
وزراءه من زعماء عائلات خاصة طالما أدى التنافر بينها إلى قتال داخلي ، وآلت  
سلطة البلاد إليهم ، وأصبح الميكادو لا حول له ولا قوة .

أخضع ( يوريتومو ) البلاد جميعها وازدهر في كاماكورا نوع من الحضارة  
ساذج يلائم الروح العسكرية إذ ذاك ، ومن العائلات التي سادت متعاقبة  
فوجيوارا ، وطائرا ( هايكي ) وميناموتو ( چنجي ) ، ومن الأسرات العامة عائلة  
( هوجو ) التي سادت مائة سنة ، حتى غلبتها أسرة ( تيتا ) حين أحرقت العاصمة  
كاماكورا وأعيد الامبراطور ( جودايجو ) من منفاه ، فزادت حركة العصيان  
حتى قامت حكومة ( شواجن آشيكاغا ) في كيوتو ، وهنا امتاز العصر بالتهذيب  
الدوقي والرقى الفني ، وانتشرت حفلات الشاي والتمثيل والرقص على نمط ( نو )  
القديم ، ونشطت التجارة مع الصين ، وتزاور القسس ورجال الفن بين البلدين ،  
وفي سنة ١٥٤١ وصلت أول باخرة برتغالية وتبعها الاسبان ، ثم أسست أول بعثة  
للجزويت سنة ١٥٤٩ .

سادت الفوضى البلاد مائة عام حتى جاء ( هيديوشي ) فهداها وحاول فتح  
كوريا والصين سنة ١٥٩٢ ، لكن أهل كوريا بمعاونة الصين وقفوا في سبيله وتبع  
هذا نزاع داخلي أدى إلى انتصار ( أياسو ) من أسرة ( طوكوجاوا ) سنة ١٦١٥  
وظلت حكومة شواجن تلك الأسرة ٢٥٠ سنة استتمعت البلاد خلالها بالسلم  
والانتعاش ، خصوصاً وأنهم أباحوا حرية الاتجار والعقائد ، فشجر النزاع بين  
الهولنديين والبرتغال سنة ١٦٣٧ فتدخلت الحكومة اليابانية وقاومتهم بالشدة



وحرمت على الأجانب الدخول إلى بلادها ، حتى كانت سنة ١٨٥٣ حين أقبل  
الكومودور بيرى من أمريكا يطالب اليابان بفتح ثغورها للتجارة الأجنبية ،  
فأسرع الشواجن إلى الميكادو ، وكان قبل مهمل ، فطلبوا منه السماح بذلك ،  
فرفضت الحاشية وقرروا طرد الأجانب جميعاً بقوة الدايمو ، فرجع الأجانب  
يطالبون بالتعويض عما فقدوا من بواخر ورعايا ، ولما ظهر الشجون ( كاكي )  
إذ ذاك بالعجز عن معالجة الموقف تنازل عن حقوقه للميكادو الذى استعاد سلطته  
لأول مرة بعد أن سلبها ألف عام .

ومنذ ١٨٥٨ أمضت البلاد عدة معاهدات مع الأجانب وبدأت تشعر  
بحاجتها للنهوض كي تتشى مع العالم المتمددين ، وكان في عجزها أمام الأجانب حين  
أرغموها على التعويض خير حافز لها على بناء الجبوش والأساطيل التى زادت  
سمعتها فى انتصارها على الصين سنة ١٨٩٢ وعلى روسيا سنة ١٩٠٤ حين بسطت  
نفوذها على كوريا وشبه جزيرة لياوتونج وسكة حديد منشوريا وجنوب سخالين  
وفى ١٩١٠ تم لها ضم كوريا نهائياً ، وتعاونت مع الحلفاء فى عصيان الملا كين  
( Boxer ) وفى الحرب الكبرى خلت إلى الأمام خطوات الجبارة وأصبحت  
آية الدنيا جميعاً فى التقدم والنهوض .

## اليابان

أصبحنا والجزائر الصخرية تنتثر من ايماننا وشمائلنا فى غير حصر ، وشعر  
اليابانيون أنهم فى دارهم لما كان يبدو على وجوههم من بشر وكبرياء وتفاخر ،  
إذ كنا نرى البواخر اليابانية تمخر عباب الماء بين الجزائر المترامية فى كثرة هائلة ،  
وكانت تبدو على ذرى تلك الجزائر الحصون العاتية وساريات البرق اللاسلكى ،  
وكما أوغلنا فى تلك المياه اليابانية بدت منعة المكان ذاك الذى لن يدركه العدو  
كأنه ما كانت قوته ، ولا شك أن لموقع جزائر اليابان فضلاً كبيراً فى دفع غائلة

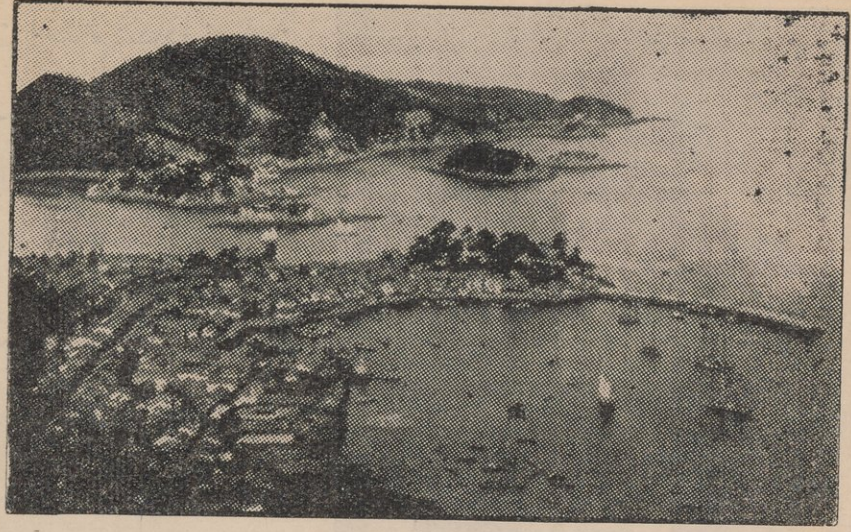




الأجنبي عنها ، ويحظر القوم إظهار آلة التصوير في تلك البحار ، وكنت أراهم طوال المدة يتطلعون بشيء من الإكبار لوطنهم والإخلاص له ذاك الإخلاص الذي أضحي مضرب الأمثال ، ولم كنت أغبطهم على موقفهم هذا وأتألم لنصيبنا من تلك العزة ، بدت إلى يميننا جزيرة كيوسيو (ومعناها أرض القارات التسع) ثم تبعها جزيرة سيكوكو (أرض القارات الأربع) وكانت تبدو مداخن المصانع العديدة شاحخة في السماء ، ولبثنا النهار كله والجزائر تترامى والبواخر اليابانية تمر تباعاً ، أما مشاهد الطبيعة هنا فساخرة ، جزائر تترامى في أشكال هندسية متباينة تميزها الخاريط البركانية وتسكوها الخضرة المدرجة والسماء تنتثر بالسحب الخفيفة التي تنعكس عليها أضواء الغروب في بريق يستهوى القلوب ، ويسمون ذاك القسم البحر الداخلي وهو يمتد بين الجزيرتين السالفتين جنوباً وجزيرة هندو (القارة الرئيسية في لغتهم) شمالاً وامتداده ٢٧٠ ميلاً ويتسع ما بين ثلاثة أميال وثلاثين ومجموع جزائره تناهز ثلاثة آلاف ، ولعله أجمل بحار اليابان طراً .

أقبلنا على كوبى : أكبر ثغور اليابان التجارية ، وهي تقوم في حجر جبل مشرف تكسوه الغابات وتزين منحدراته مباني المدينة في رونق جذاب ، وما كدت أطأ أرضها حتى بدت الحياة اليابانية في مظهرها العجيب الجميل ، الناس يسرون في سيل دافق ، كل إلى عمله بنشاطه المشهور ، وأنت لن ترى





( شكل ٥٣ ) البحر الداخلي وجزائره الأنفة المترامية

منهم عاطلا أو خاملا ، ولا تسمع لكثرتهم جلبية ولا ضوضاء ، اللهم إلا قعقة أحذيتهم الخشبية ( قباقيهم ) نساء ورجالا تلك التي تسترعى الأنظار ، وقد تشير السخرية بادی الأمر على أنها خير دافع عنهم أثر رطوبة جوهم إلى الاقتصاد في أكلها ، والعجيب أنك تراهم يسرون بها في سرعة عجيبة وإن اعوجت مشيتهم حتى ليخيل إليك أن في أرجلهم غمزا ، والجميع يلبسون الأردية الفضفاضة التي يسمونها ( كيمونو ) وكأنها ( القفطان ) بأكامه الهائلة المتسعة وحزامه العريض والرداء يكاد يمس القدمين لطوله ويغاب أن يكون من قماش خشن بسيط اللون للرجال لأنهم يمتدحون الخشونة والتكشف ، أما النساء ففي حرائر مهففة وألوان فنية ساحرة وتحاول كل سيدة ألا تلبس من لون سبقتها إليه غيرها ، لذلك اضطر النساجون أن يحيكوا هذه الأقمشة قطعاً مختلفة تكفي كل لرداء واحد ، ولعل أعجب ما في السيدة حزامها وشعرها ، أما الحزام ( أوبي ) فبالغ الطول والعرض عرضه فوق ثلث المتر وطوله أربعة أمتار إلا قليلا ، يلف حول الجسم مرتين ، ثم يربط الباقي فوق الظهر في شكل متنفخ كأنه الفراش بديع اللون ، خلته بادی الأمر وسادة تحملها السيدة كي تتكىء عليها إذا ما جلست ، وما كان أشد خجلى عند





(شكل ٥٤) حسناء يابانية في كامل  
ردائها القوي

ما سألت أحدهم: لماذا تحمل  
السيدات تلك الوسائد  
الثقيلة؟ فخبّرني وهو يضحك  
أنه رباط الزينة والتجمل  
(فيونكا)، وقد علمت أن  
متوسط ثمنه لا يقل عن عشرة  
جنيهاً.

والنساء سافرات،  
ورؤوسهن عارية يكسوها تاج  
طبيعي من شعر أسود براق  
ثقيل، يعنون بتنسيقه العناية  
كلها وهو الذي يعد مقياس  
الجاه والجمال، وتراه يكور  
ويطوى فوق شباك من

السلك في أشكال هندسية عجيبة جذابة تختلف باختلاف الطبقات والأعمار،  
والأغنياء يستقدمون الماشطات في كل أسبوع لتعده ولا يقل أجرهن عن جنيه،  
وتظل شباك الأسبوع كله أو تزيد.

أما الوجوه فمصفرة اللون منحرقة العيون، ويغاب أن يستخدم من الأدهنة  
البيضاء لا الحمراء، وجمال الوجوه نادر وإن كانت الرشاقة والجازبية بالغة حدّاً  
كبيراً يزيد لها حسناً ذاك المندام العجيب في ألوانه الرقطاء الزاهية، وتلك المشية  
التي تخب بها السيدة وكأنها البجع الساحر.

قمنا بجولة في جهة ريفية تسمى: أراشياما في قاطرة كهربائية سلكت طرائق





(شكل ٥٥) الشعر آية التجميل  
عند اليابانيات

متلوية تحوطها الغدران والتلال تجللها  
الغابات في مناظر ساحرة شأت سائر  
الريف هناك ، وأخيراً حللنا القرية التي  
تقوم على جدول ماء يتلوى يمنة ويسرة  
وسط الربا الشاهقة تتخللها البيوت من  
خشب في شكل نظيف أنيق وبعض  
أجزائها تتخذ حوانيت ومقهى صغيرة ،  
وكنا نرى السلع تعرض وعليها أثمانها  
فيمر الواحد ويتناول ما يريد ويلقى  
بدرهماته في صندوق مغلق في غير  
حاجة إلى رقيب ، فانظر مبلغ الأمانة

والثقة المتبادلة بينهم ! أخذنا زورقا وذهبنا في الغدير بعيداً وسط الخضرة  
الوفيرة والجنادل والمنحدرات تحوطها الزهور ، وهكذا طبيعة اليابان في كل ناحية  
منها ، فليس بعجيب أن يقدرها أهلها ويعشقوها بل ويعبدوها ، وهم ينقلون عنها  
أسماءهم إذ تراهم يحملون اسم جبل شامخ أو ذروة سامقة أو حقل ممتد أو مرج  
جذاب ، كذلك فهم يقدسون المكان الجميل ، فتقوم عند مدخله أقواس من  
خشب هي شعار التقديس لديهم ، ولا يخلو مكان جميل من معبد لأنهم عبدوا  
طبيعة بلادهم الطاهرة ، ويخال بعضهم أن تقديسهم لوطنهم أثر من آثار جمال  
بلادهم التي استمالتهم فعبدوها وقدسوها ، إلى ذلك الزهور التي نبغوا في تمييقها  
وترتيبها حتى الأطفال منهم فلهم في تنسيقها نظم مختلف باختلاف البيئات والمناسبات  
فكل تصنيف منها يدل على معنى خاص يفهمونه لجرد النظر إلى باقة من الزهر ،  
وهي في مقدمة ما يتعلمه النشء في المدارس وبخاصة الفتيات ، ولا يكاد يمضي  
شهر لا بل أسبوع لا ترى به طائفة جديدة من زهور وهم لذلك يجذبون الحساب





(شكل ٥٦) تربية الزهور يدرسها  
حقى الأطفال منذ نشأتهم

بالتقويم الزهرى فتراهم يؤرخون  
الخطاب مثلاً بزهرة كذا بدل  
كتابة التاريخ لأن لكل أسبوع  
طائفة خاصة من زهور يعرفها  
الجميع .

آوينا بعد تلك النزهة  
الساحرة إلى نزل يابانى وما  
كادت تقف بنا السيارة أمامه  
حتى أسرع أصحابه رجالاً ونساء  
ملا كما وأتباعاً يتقدمهم رئيسهم  
لاستقبالنا شأنهم مع كل ضيف  
وصاحوا جميعاً صيحة ترحيب

أعقبها سلسلة انحناءات عاجلة متكررة تكاد تلمس فيها جباههم الأرض احتراماً  
وتأديباً ، والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسن منها وإلا عد ذلك من سوء  
الأدب فأخذنا ننحنى مرات كنت خلالها موضع سخرية أمام نفسى لأنى لم  
أكن أعرف كيف تكون وما حدودها . بعد ذلك تقدمنا نحو المدخل فراعنا  
صنيف (القباقيب) والأحذية على جانبيه وكلها لنزلاء الدار إذ يجب خلع الأحذية  
جميعاً أمام البيوت والفنادق فخلعنا عنا أحذيتنا وناولتنا الفتاة (خفا) من الخوص  
وكلها صغيرة الحجم لأن أقدامهم أصغر بكثير من أقدامنا ، أخذنا نسير به فى دهاليز  
الدار وكلها تقام من خشب يطلى بأدهنة براقه غاية فى النظافة ويهتز تحت أقدامنا  
وكان النزل من طبقتين ، ولما أن وصلنا غرفتنا خلعنا الخف أمامها ودخلنا غرفة  
صغيرة تفرش أرضها بقطع من الحصير السميك الطرى يحوط كل واحدة افريز  
أسود ، ولا تكاد ترى داخلها من الأثاث إلا منضدة واطئة فى الخُرط اليابانى



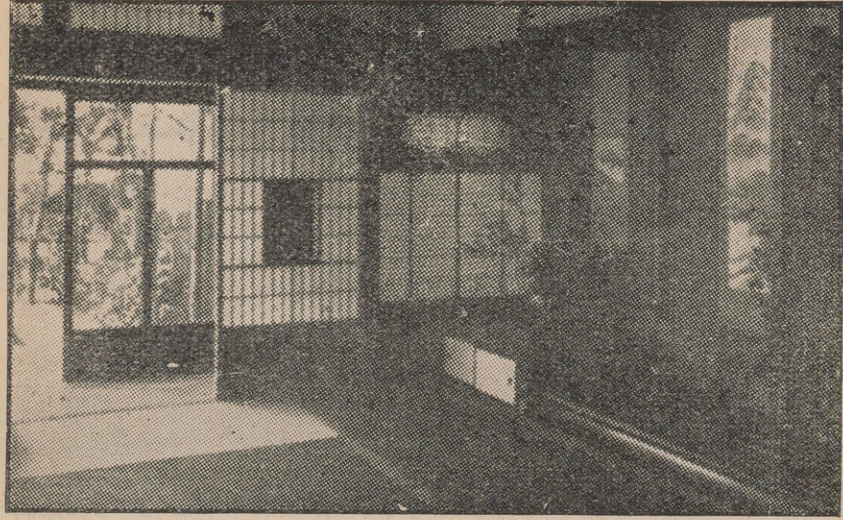
حولها الحشيات (الثلث) الوثيرة يجلس القوم عليها ركعاً طوال الوقت ، وخلف الضيف مقصورة هي لديهن موضع التجلة والتقديس (توكونوما) بها (فاز) ثمين يملأ بالزهر المناسب للمقام ويغلب أن تطل الباقية نحو الضيف علامة الترحيب به وهم يقرأون في كل باقة معنى جديداً لجرد النظر ، وعند المدخل حاجز (پاراقان) قصير أنيق ، وتتدلى من الجدران ألواح مصورة (كا كيمونو) برسوم يابانية ثمينة ، أما النوافذ فمعدومة لأن جانب الحائط ينفتح كله بالانزلاق وراء الذى يليه بحيث يمكن أن تصبح الحجرة شرفة (بلسكونة) أو تزال فواصل الحجرات كلها فتظهر اللوكاندة كلها بهوا واحدا ، كذلك الحالة فى مساكنهم جميعاً فى الريف والخضر .

أخذنا مجلسنا (القرفصاء) من المائدة فتقدمت منا فتاة بكوبين صغيرين من شراب أخضر يعتقدون أنه قاتل للعطش لم يرقنى طعمه وعلمت أنه مسحوق الشاى يغلى فى الماء ، ثم دنت منا فتاة ثانية ويدها سلة صغيرة من خيزران (بامبو) وبها قطيعة (فوطه) مبللة بماء مغلى يتصاعد منها البخار فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا فشعرنا بانتعاش كبير فى ذلك الجو الحار وتلك تقدم فى كل مكان حتى فى المحال التجارية ، وبعد هنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاى اليابانى الخفف الذى لم يكذبصفر ماؤه والذى يتناوله الجميع بدون تحلية قط (بدون سكر) فى قعاب صغيرة مكورة من الخشب اليابانى الثين (اللاكيه) وما كاد يستوى بنا المجلس حتى أقبلت الفتاة تهمس فى أذنى فلم أفهم اليابانية فخبرنى صاحبى أنها تريدنى أن أخلع حلتى لأرتدى (الكيمونو) فقممت وهى تلازمنى وتتقدم بنفسها لنخلع عنى ملابسى وترخى الكيمونو على جسدى وكان يملكنى الحياء لولا ما رأيته من جرأة صديقى الذى علمت منه ألا حرج فى ذلك فتلك عادة القوم هناك ، ولما أن عدت إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول أنها أعدت لى فقلت لصاحبى لا حاجة لى به ، لكن علمت أن ذلك ينافى طباعهم إذ هم يرونه



فرضاً على الجميع أن يستحموا مرة أو اثنتين في اليوم ، قادتني هي وجمع من صويحباتها إلى الحمام وهناك دخلت غرفة صغيرة صفت بها الحشيات والتسكات للاستراحة قليلاً بعد الحمام ومن داخلها حوض الحمام من خشب نظيف يملؤه ماء ساخن جداً في درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ م وإلى جانبه مقاعد صغيرة من خشب وأكواز ومناطيل خشبية ، وقفت الفتاة وانتظرت في حيرة حتى تخرج لأوصد الباب فما كادت تجتاز الباب إلى الخارج حتى أسرعت بغلقه لكنني لم أجد به ما يجبسه عن الفتح فخلعت ثيابي وإذا بالفتاة تدخل وتنظر إلى كأنها تريد أن تخدمني في شيء ، فجلست خجلاً إلى جوار الحوض ، ولما أن أدركت ما كنت فيه من ربكة خرجت فأسرعت بدعك جسمي بالصابون ، وما كان أشد دهشتي حين دخلت مع زميلات لها وكأنها شكنتني إليهن ، فما كان مني إلا أن رميت بنفسي في الحوض رغم مائه المحرق ، هنا علت صيحة الضجر منهن وأسرعن إلى الخارج ، ولم أدر ما الخبر فعجلت بالخروج ، وإذا بالهرج قد زاد وعلا وعلمت بعد أنني ارتكبت خطأ فاحشاً ، لأنه لا يجوز النزول في الحوض مخافة تدينسه فكانت مني اعتذارات لا أظن أنها كفرت لديهم عن سيئتي هذه لأنني حرمت الاستحمام كل نزلاء اللوكاندة سحابة اليوم حتى يطهر ويجدد ماؤه وعجبت لما علمت بعد أن رؤية الأجساد عارية من الجنسين أمر طبعي لا غبار عليه عندهم ، فالفتيات يناولن الرجال ما يطلبون ، ويغسلان لهم ظهورهم وهم عرايا وكثيراً ما يغتسل اليابانيون نساء ورجالا أمام بيوتهم في جانب من الطريق لا ينظر إليهم أحد خصوصاً بين الطبقات الفقيرة ، وقد كانت الحمامات العمومية خليطاً من الجنسين معاً ، ولما أن كثر نقد الأجانب لهم أمروا بوضع حبل يفصل بين ناحية النساء والرجال ، أمر نراه نحن شائناً وهم يرونه عادياً لا يقع بسببه فساد قط ! ولا يأمن الغريب وهو في الحمام أن يطل عليه الجميع من شقوق الدار الخشبية خصوصاً وأنهم يعجبون لأجسادنا الطويلة وسحننا الغريبة عنهم !





(شكل ٥٧) جانب من بيوتهم الخشبية المنسقة

ويستنكر الأجانب رؤية أجساد اليابانيين أو اليابانيات عارية ، على أن اليابانيين يرون ذلك أمراً طبيعياً ، فهو مهدى للميول الجنسية التي تبدو واضحة في غالب الأوروبيين ، حدث مرة أن نادى أحد القناصل خادمه الياباني فجاء يرتدى قميصاً ونصف جسمه الأسفل عار ، وكان في مجلس القنصل بعض السيدات فنفر من هذا وطرده الخادم لوقته .

عدت إلى المائدة فأحاطت بنا الفتيات يحاولن مسامرتنا وتلك عادتهم في كل مكان حتى في البيوت إذ يجلس حول الضيف فتيات الدار يسامرنه إمعاناً في التأدب والتظرف ، وفي عرفهن لا يجوز أن يترك الضيف وحده لحظة واحدة حتى يحين وقت النوم ، ولما كانت ساعة الطعام أقبل الفتيات يحمان القزامير (الصواني) الصغيرة من الخشب اللامع ، عليها الأواني المكورة الصغيرة من خشب براق ، وفي مقدمة الجميع (برميل) نظيف من خشب يملؤه الأرز المسلوق .

ملأت الفتاة لى آنية الأرز وسلمتنيها ، وفيها عصوان دقيقتان أتناول بهما الطعام وكان أول صنوف اللحم قطعاً من سمك نيء عليه قطع الثلج ، لك أن تغمس القطعة قبل تناولها في سائل أحمر قاني حريف كالخل ، وما كنت أخاله



نيثاً فما كدت أعض على قطعة السمك حتى عاقتها النفس ، وجزعت جزءاً شديداً وآثرت أن أزدردوها صحيحة لأنجو من رأتحتها وفساد طعمها ، ثم تبعها صنف من حساء السمك البارد ثم الساخن ثم شواؤه فنوع يحكى (الجنبرى) إلى جانب شىء كالبطاطا الحلوة وبعض الأعشاب ، أخصها أعشاب البحر التى يحبون رأتحتها المنتنة والخضر (الحللة) ، كل هذا نتناوله فى مجاورة الأرز الذى كلما فرغ إناءه عجلت الفتاة بملئه من جديد ، ولما انتهى اللحم قدم صنف من الفالودج (مادته من الأرز) لا تسكاد تحس حلاوته ثم أعقب ذلك بعض الفاكهة وكانت من خوخ ونوع آخر لم أره من قبل ، وكأنه قرون البازلاء البالغة ، وخلال كل ذلك كانت الفتاة تملأ لنا كأس النبىذ اليابانى (الساكى) الذى يتخذونه القوم من الأرز فى طعمه المنفر ، وتعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع وبين آونة وأخرى يجب علينا بعد احتسائه أن نغسله بالماء ونملأه ثم نقدمه للفتاة فتشربه ، ثم تعود فتغسله هى وتقدمه لنا ثانية ، وتلك من آداب المائدة لديهم لا يصح إغفالها ، وفى نهاية الطعام نبقى فى آنية الأرز قليلا ونصب عليه الشاى وترتشفه بصوت مرتفع منفر علامة على ختام الطعام ، فترفع (الصوانى) ويقدم الشاى المر نشرب منه ما نشاء ، موقف ساحر حقاً لولا ما كان يحوطنى من ارتباك شديد فى أداء التحيات المتكررة على الوجه الأكمل ، وفى استخدام العصى بدل الملاعق والشوك فهى تتطلب مراناً طويلاً .

وكان فى الغرفة المجاورة لنا قوم لعب (الساكى) بعقولهم — واليابانى سريع التأثير بالخر على خفته — فأخذوا يصيحون ويغنون وهم جلوس وأمامهم (الصوانى) الصغيرة والفتيات يعزفن على الآلات الموسيقية اليابانية (الشامسين) شبيه (الطنبور) الكبير برقبته الطويلة و (قصعته) المربعة وله ثلاثة أوتار منفردة رنينها يحكى رنين المزهر (العود) القوى ، والعزف يكون بقطعة من خشب كالمروحة ، وهذه لا يكاد يخلو منها بيت أو منزل ، والقطعة الثانية تحكى (القانون) من ثلاثة عشر





( شكل ٥٨ ) أحب الآلات الموسيقية لديهم الشامسين  
إلى اليمين والكوٲو إلى اليسار

وتراً منفرداً ويسمى ( كوتو ) والأنغام متشابهة بسيطة في غير تعقيد على أنها  
تعوزها الجاذبية ، أما أغانيهم فمنفرة للغاية حتى الفتيات اللاتي يهززن في أصواتهن  
بتقطيع منكر وكأنها أصوات ( الماعز ) ، اعتزمت الارتحال فودعنا الجميع بأدبهم  
الجم ، ثم قدم لنا رب المنزل هدية صغيرة منديلا منقوشاً يلف في غطاء من ورق  
أبيض ثقيل يربط بشريط نصفه أبيض والنصف أحمر ، وفي عقدة قطعة من  
سمك مجفف تيمناً ، ومثل تلك الهدايا يتبادلها الجميع كلما تزاوروا في مناسبات كثيرة  
ويغالى بعضهم حتى يبيح الاستدانة كي يؤدي هذا المظهر من الكرم ، ولذلك  
كثرت المحال التجارية الخاصة ببيع تلك الهدايا .

عدنا إلى كوبي وتفقدنا بعض معابدها وجلها متشابهة تعوزه الفخامة ، ومن  
أجلها معبد القمر في قمة ماياسان (ومعناه الجبل المحترم) ، ويتوجون بتلك الكلمة  
( سان ) كل الجهات الطبيعية الجميلة ، وهذا المعبد في ذروة الجبل المشرف على  
المدينة تسلقناه بترام هوائى كان يديره سويسريون إلى أمد قريب واليوم يديره  
اليابانيون بعد أن استغنوا عن معونة الأجانب شأنهم في جميع المنشآت الكبيرة



الأخرى ، لذلك ترى الأجانب حائقين عليهم . من هذا العلو الشاهق بدت المدينة ممدودة على شاطئ البحر في رواء بالغ ، وكنا نرى مبانيها على بعد تتصل بضواحي أوزاكا أكبر البلاد الصناعية ، وفي نهاية الترام كثير من المقاهي والمطاعم زهيدة الأسعار ، رغم نظافتها التامة وفخامتها الرائعة ، حتى أنى تساءلت عن سبب ذلك فعلمت أن الجهة يعدها الجميع متنزهاً شعبياً يشجع الفقراء على حب الرياضة والاستمتاع بالطبيعة ، وللناس أن يستأجروا خياماً زهيدة الأجر للمبيت فوق منحدرات الجبال حيثما شاءوا ، من هنا بدأنا بصعود الدرج الموصلة للمعبد وعددها ثلاثمائة وسط الأدغال والنبت الوفير ، كابدنا كبير المشقة في ارتقاؤها فكان لنا في سحر المناظر هنالك خير عوض عما صرفناه من عناء وجهد ، ويحج إلى هذا المعبد نحو ثلث مليون في السنة إجلالاً لتمثال صغير لأم بودا ، وعند ما أظلم الجو بدت المدينة من دوننا تحكى بسيطاً من الجمر المتلائي ، أوقبة السماء وقد انقلبت بنجومها ، فبدت من تحتنا وكانت ثريات الخط الكهربائي تبدو كالعقد الرائع البديع .

وفي المساء زرت بعض دور الملاهي ، ولعل أحبها لديهم الخيالة (السينما) التي لا يكاد يخلو منها شارع ، وللقوم بها ولع شديد ، وأعجب ما يسترعى النظر بها رجل يقف بجانب اللوحة ويشرح باليابانية في صوته المنفر كل ما يعرض من المناظر ، وكان سبب ذلك عرض أفلام أجنبية ، لكنهم يتبعون نفس الطريقة ، رغم أن غالب الأفلام اليوم تصنع في اليابان وتكتب إيضاحاتها باليابانية ، وقد يرفع الستار عن مسرح يظهر فيه فتياتهم وهن يرقصن ويغنين ، وقد يمثلن روايات بلباقة لا تنقص عن الأوروبيات ، رغم أنه لم يسمح للنساء باعتلاء المسارح هناك إلا قريباً .

ومن أكبر دور الملاهي التي زرتها ملهى (تكاراسوكا) في قرية بين كوبى واوزاكا يتسع لألف وخمسمائة ، وهو فاخر إلى حد كبير ، على أن أجوره زهيدة



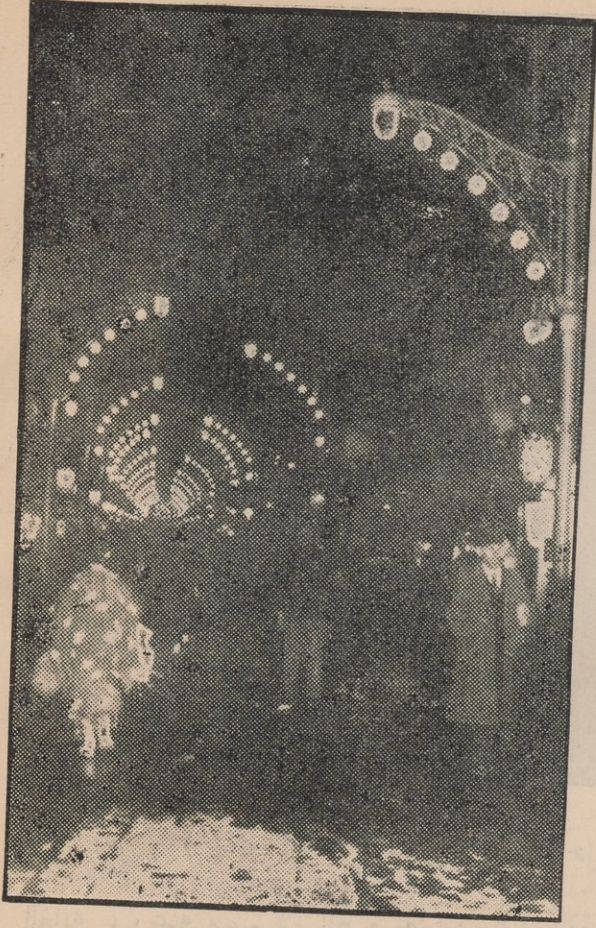


( شكل ٥٩ ) طريقة اليابانيات في حمل الأطفال وراء ظهورهن

للغاية ، رغبة منهم في الترويح عن عناء الفقراء . وكأنه مدينة صغيرة تمون أهلها بكل شيء من مطاعم وملاعب وحدائق وحمامات وما إليها ، والتمثيل فيه على النظام الحديث في الغالب ، والممثلات كلهن فتيات وقد يلبسن أثواب الرجال وقد يمثلن على أنغام الموسيقى ، وأجل ما هناك الأزياء الخلابة وسرعة تغييرها رغم الكثرة الهائلة في عدد الممثلات ، كما أن مشاهد المسرح رائعة وأضواءه خاطفة مما يشهد لهم بالتقدم العجيب .

ومما أدهشني في هذا المجتمع الهائل ميل الناس إلى الهدوء وبخاصة الأطفال فقد كنت أرى السيدات يحملن أطفالهن وقد ربطوا إلى ظهورهن ، فلا يكاد يرى منهم سوى رأس ناتئ — وتلك عادتهم في حمل الأطفال — ولم أكد أسمع همساً طوال الوقت ، والمعروف عن الياباني أنه هادئ الأعصاب بارد الطبع ، ويظهر أن تلك فطرته منذ طفولته ، لذلك لا تكاد تسمع لسيل الناس الدافق





(شكل ٦٠) سوق موتوماتشي الزاخر ليلاً  
ومصابيحه تحكي البوائك شأن أسواق اليابان طراً

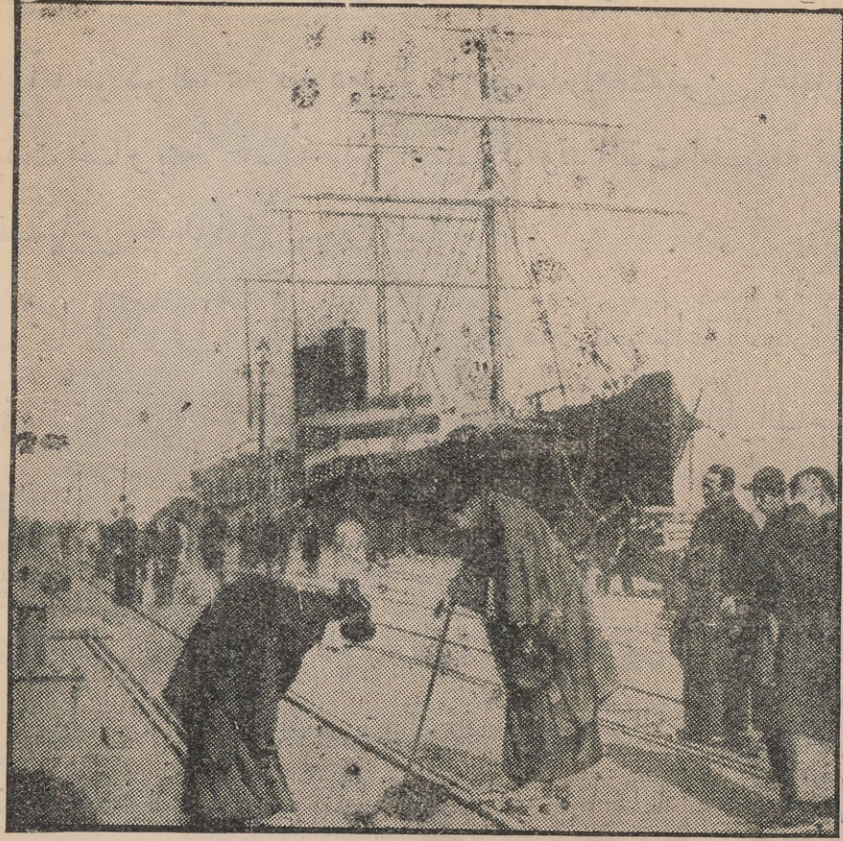
في الطرق من جلبه اللهم إلا  
قعقعة (القباقيب) هذا إلى  
صغير السيارات ودوى  
الراديو المنبعث من غالب  
الحال التجارية .

أذكر أنني تركت آلة  
التصوير هنا بين فصول  
الرواية ولما عدت لم أجدها  
فأبلغت الأمر لرجل البوليس  
وهنا رأيت عجباً إذ عرت  
الرجل هزة قومية وساده  
هو وإخوانه اضطراب وخجل  
وأخذ يدافع عن اليابان  
ويعتذر للحادث بأن عامة

الناس هناك من طبقة العمال فقد يسف بعضهم إلى حد السرقة على أنه أكد لي  
أنه لا يمكن أن يضع شيئاً في بلاد اليابان ، وأنه سيرسل إلى الفتوغرافية قريباً  
أينما كنت بعد أن أخذ عنواني وهو مضطرب متألم لأن في ذلك جرحاً للعزة  
اليابانية التي يقدها الجميع .

عدنا إلى كوبي وتجولنا في إحدى أسواقها (موتوماتشي) الذي لا يكاد  
المرء يشق طريقه وسط جماهير الغادين فيه والرائحين ، وأجل ما يرى في المساء  
حين تضاء مصابيح الأسواق في بوابات من حديد ترص عليها الثريات الكبيرة  
في تلالؤ شديد إلى ذلك أضواء الحال التجارية بمفروشاتها اليابانية الجذابة وهذه





( شكل ٦١ ) ثغر يوكوهاما وترى طريقهم في الترحيب والاستقبال

تظل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وفي فروعها أزقة تحكي خان الخليلي عندنا يلاذ للمرء التجول فيها طويلا لغرابة المناظر وجمال الألوان وشدة بريق المسكان ونظافته ، وهناك دار وطنية للسينما يجلس المتفرجون فيها على الحشيات ( والثلث ) على نظام البيوت اليابانية .

إلى يوكوهاما : قمت بالباخرة ظهراً صوب يوكوها التي وصلتها الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي ، أما البحر فقليل الجزائر ، موحد المناظر ، ممل ليس فيه شيء من جمال البحر الداخلي سالف الذكر ، حلت المدينة فبدت ثغراً عظيم الحركة نظيف الطرق فسيحها ، وهي مدينة تحكي في كثير من الوجوه المدن الأوربية ، لولا هندام الناس وسخنهم لذلك لم ترقني كثيراً ، ولقد أنشئت منذ ١٩٢٣ حين دكها الزلزال عن آخرها ، وفي ثلاث سنين أعيد بناؤها على



أساسها الجديد ، وبلغت أكلافها عشرين مليون جنيه .

أما طوكيو العاصمة فقد دمر الزلزال نصفها وأهلك من أهلها ٥٨ ألفاً ، وكبدت خسائر بنحو خمسمائة مليون جنيه ، وقد أنفقت الحكومة على تعميمها وإنشائها من جديد فوق السبعين مليوناً .

**كاما كورا :** ضاحية تبعد عن يوكوهاما بنحو ساعة بالسيارة التي مرت

بنا في طرق متلوية تعلو وتهبط ، ومن حولها الرابي ذات المناظر الساحرة ، تجلها الغابات ، وتكسو مدرجاتها منابت الأرز ، ولقد اتخذ المدينة ( شوجون مينا موتو ) عاصمة اليابان في القرن الثاني عشر ، وظلت كذلك مائتي عام ، وكان سكانها يناهزون نحو ثمانمائة ألف ، لكنها انضمرت اليوم وأصبحت مزاراً صيفياً ، ولا يزال بها بعض المعابد الهامة ، ولعل أجملها



( شكل ٦٢ )

معبد بودا الذي يقوم فيه تمثال هائل لبودا يعد أجمل تماثيل بودا في نظراته الودعة اليابان طراً ، علوه خمسون قدماً أقيم سنة ١٢٥٢ وسط معبد دمرته عاصفة سنة ١٣٦٩ ، واكتسحه المد سنة ١٤٩٤ — واليابان تعرف بقسوة عواصفها المسماة بالتيفون وبعثو مدها — وكانت عيون التمثال من ذهب ، ونطاق جبهته من فضة زنتها ثلاثون رطلا ، وهو يمثل ( Amida ) أحب معبودات اليابان ، وتعجبك نظراته الهادئة ، ويداه المبسوطتان على حجره ، والأبهامان يتلامسان علامة الأيمان الراسخ — وفي بعض التماثيل ترى اليد اليسرى مبسوطة على حجره واليمنى مرفوعة وهذا دليل التبشير ، وفي غيرها تضم اليدان إلى الصدر دليل الجمع بين الحياة الروحية والمادية . وثم معابد كثيرة فاخرة تزينها تماثيل بودا وحفظته في أشكالها المنفرة المروعة ويحفظ في بعضها شيء من مخلفات عصر كاما كورا من أثاث وأردية وأسلحة وما إليها .





عدت إلى يوكوهاما ،  
ومنها إلى طوكيو حاضرة البلاد  
فوصلتها في ثلثي ساعة ووسائل  
النقل إليها متعددة ، وفي  
اتقان ودقة ونظافة ترى المقاعد  
وقد أعدت بالفرش الوفيرة  
بعضها يسير بالبخر والبعض  
بالكهرباء وهذه تكاد تعم  
البلاد كلها في كثرة هائلة  
وأجور زهيدة جداً هذا إلى  
الترام والأتوبيس والسيارات .  
والحق أن وسائل النقل في

اليابان كلها مما يدعو للعجب ( شكل ٦٣ ) أمام نصب بودا الرائع في كاماكورا  
والأكبار ، فهي ترعى صواح الجهور وتوفر له الراحة التامة والأمن المكفول فترى  
في الحاط كافة وسائل الارشاد والهدى من خرائط ومصاييح إلى ذلك عناية حارس  
القطار وأدبه الجم ، فعند ما تقارب كل محطة يستأذن ويدخل العرب ، ثم ينحني  
ويرفع قبعته احتراماً ويخاطبنا في بشاشة قائلاً : سادتي نحن مقبلون على مكان  
كذا وقبل مبارحته العرب يدير لنا وجهه وينحني ثانية ثم يخرج ، إلى ذلك  
كنت ألاحظ أدب سائقي السيارات فلا يمر أحدهم على زميله دون أن يحيمه  
بأنحاءاته الوديعه ، وهو يتقبل منك ما تعطيه أجراً مهماً قل ولا يناقشك قط بل  
يصيح قائلاً ( آريجاتوسان ) أعني شكراً سيدى المحترم ويشيعك بأنحاء وابتسام ،  
وإن سألت أحد المارة شيئاً بالغ في خدمتك وإكرامك فإن لم يفهمك استرشد  
بغيره في الحال . أدب جم وتسامح جميل امتازت به اليابان على سائر الشعوب .



طوكيو : ( ومعناها العاصمة الشرقية ، سكانها ٢½ مليوناً ) بأى لسان أستطيع أن أقص ما أرى من عظمة ودقة ، تميّز حسن وذوق سليم ، مدينة تتجلى في كل مناحيها أبهة الملك وعزة السلطان ، هي تفوق في نظري كثيراً من عواصم أوروبا بقصورها الشائخة وطرقها الممدودة ، وحدائقها الورافة ، تكاد تمتد كل طرقها الرئيسية على نمط واحد واتساع رحب يتوسطها ممر الترام والعجلات الكبيرة . ثم أفريز من خضرة ثم ممر للعجلات الصغيرة فأطار للمارة ، والمصاييح تعلو في عناقيد إلى مد البصر ، ورجل البوليس يتوسط مفارق الطرق ، ويسير الحركة بالمصاييح الملونة والصفافير واليدين في دقة عجيبة ومهابة يقدرها الجميع . وتوزع مخافر البوليس في بلاد اليابان ، يغايروا في البلدان الأخرى إذ ترى جوسقاً صغيراً به ضابط البوليس ومعاونه ، وحوهما التليفون والسجلات والخرائط ، وتتوزع تلك الجواسق في مسافات متقاربة ، وحتى داخل الأزقة لتسكفل الأمن من جهة ولتهدي المارة لما يطلبون . أما نظام البوليس المركز في أقسام كبيرة نائية عن بعضها كما نراه عندنا فليس له وجود ، لذلك فإنك ترى البوليس ملأً هناك بكل شيء ، عالمًا بدقائق منطقته الصغيرة وسكانها . حدث مرة أن أحد النزلاء من الطليان انتقل إلى دار جديدة ، فلما كان المساء عاد الرجل فاشتبه عليه الأمر وضل طريقه إلى داره الجديدة ، فباغته رجل البوليس وهو حائر قائلاً : أنت فلان ؟ ماذا تريد ؟ فخبّره أنه ضل طريقه ، فقاده رجل البوليس إلى بيته الجديد ! لذلك قلما تفلت البوليس هناك جريمة لا يهتدى إليها عاجلاً .

حلت نزل (Chuo) الفاخر ، وهو على النمط الأفرنجي يديره اليابانيون رجالاً ونساء ، فقبولت بالانحناءات والابتسامات وما أن حلت غرفتي حتى أقبلت الفتاة تقدم شاي التحية — وهذا يكرر كلما عدت إلى النزل وفي أية ساعة — ثم عقبته بأخباري أن قد أعد الحمام ، وحتى في غرفة الطعام الأفرنجية تراهن وقوفاً زرافات يحاولن تسليمك ولو لم يعرفن لغتك ، حدث أن مر فتاتان





( شكل ٦٤ ) المدخل الرئيسى لطوكيو فى وهج المصاييح الوضاء ليلا

بباب النزل ، وأنا فى غرفة الطعام يعزفن على الشامسين ويرقصن ويغنين ، فأسرعت إليهن ومعى صاحب الفندق وفتيانه ، وقالوا إن تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يباح فيها الاستجداء ، يؤيد ذلك أنى لم أر متسولاً واحداً فى جميع البلاد التى جبتها هناك ، وما كدت أبرز آلة التصوير لأخذ صورتهم حتى غضب الجميع ومنعوني دفاعاً عن عزتهم القومية ، فاعتذرت لهم رغم أن الفتيات كن فى هندام نظيف جذاب .

هدانى تجوالى فى المساء إلى شارع ( جنزا ) بأضوائه الخاطفة وتنسيقه اليابانى الخلاب هو متنزه الشباب ، ومحط سروره حوى ٣٤٨ من الأنزال والملاهى ومشارب الشاي وما إليها ، إلى ذلك بعض المحال التجارية تعرض بها المستحدثات التى تروق الشباب ، ولن أنسى قعقة ( القباقيب ) ولا سحابات الفراش الآدمى فى ألوانه الجميلة ، ومن المقاهى ما هو يابانى ترى الأحذية والقباقيب ، وقد صفت أمام الباب إذ يجب خلعهما قبل الدخول ، ولعل أكبر مميزات هذا الشارع الباعة الرحل الذين يقترشون الاطارين بسلعهم طوال الطريق ، وهى نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة التى تدل على مهارتهم الكاملة خصوصاً إذا علمت أن غالبها



يصنع في البيوت ( كلعب الأطفال وأشغال الورق والغاب وما إليها ) ، وإذا ما انتصف الليل عكف كل يطوى معروضاته قطعة قطعة بثبات وصبر غريب ، ثم يحملها إلى بيته ليعيد الكرة في الغد . نشاط وصبر إلى نظافة وتكشف امتاز بها الياباني فكان مزاحماً قوياً لزميله الأمريكي والأوروبي .

قصدت قصر الامبراطور ، وهنا تجلت العظمة بأجلى معانيها ، هو شبه قلعة مشرفة كأنها الجبل يحوطها خندق تعبره القناطر تؤدي إلى القصر ، وهندسته مزيج من اليابانية والصينية في طابق واحد ، وسقوف منحدرية خشبية تنقوس أركانها إلى السماء ، ولا يباح لأحد دخول القصر ولا تصويره تقديساً له وللإمبراطور ابن السماء ، حدث أني كنت أحاول أخذ صورة فلم أشعر إلا وفارس قد أقبل مسرعاً وأخذ الفتوغرافية وأفسد الفلم بيده وهو يعتذر بأن ذلك غير مباح وتركني بعد أن بش في وجهي وانحنى تأدباً ، أما الميدان الذي يتقدم القصر فعظيم لا يعرف مداه ، وتقوم عليه حول القصر كثير من دور الحكومة في قصور سامقة أحصها دار البرلمان في هندستها الغربية ووزارة البحرية والبحرية بأعمدة اللاسلكي تسامت السماء وتهول الناظر بضخامتها وتتناثر هنا وهناك تماثيل عليتهم ممن أبلوا للوطن البلاء الحسن .

وتقديس القوم للإمبراطور يثير الدهشة فكل شيء هناك يتلاشى إلى جانبه فهو مطلق التصرف في البلاد وسلطة البرلمان ضئيلة أمامه خصوصاً فيما يختص بالمالية والشئون الحربية ، ومجلس الوزراء مسئول أمامه فقط وهو الذي يعين رئيسه ولا يشترط اختيار الوزراء من رجال الحزب السائد في البرلمان ، ووزير البحرية والبحرية يقابلان الإمبراطور رأساً ولا يسقطان بسقوط الوزارة .

ويتساءل المرء كيف يقبل القوم هذا الخضوع والولاء الشديد لهذا النوع من الحكم المطلق ، على أن نظام اليابان الاجتماعي والديني يساعد على ذلك حتى الهيئات التجارية والصناعية ، فهي تقوم على صوالح الأسرة والقرية والدولة ،





وتلقين النشء الإخلاص  
للوطن فرض على الجميع  
خصوصاً منذ عهد الامبراطور  
ميجي (١٨٦٨ — ١٩١٢)  
جد الامبراطور الحالي وخالق  
النهضة اليابانية ، ذاك الذي  
حول مبادئ الديانة السائدة  
في اليابان ، وهي الشنتوية  
— التي تعبد الأجداد —

إلى عبادة الوطن ، فكل  
آلهة العائلات تمثل آلهة

(شكل ٦٥) الموسيقى المتجولات في طوكيو ، وتلك  
هي الطريقة الوحيدة التي يباح فيها الاستجداء  
الشمس ، وهي جدة الأسرة الحاكمة ، فالامبراطور أذن هو ممثل الآلهة في الأرض  
لا يعصى له أمر ، وساعدهم على ذلك حماسه النادرة في النهوض ببلاده ، لذلك  
عد البيت الامبراطوري مقدساً ، حتى أن القوم لا يصح لهم ذكر اسم الامبراطور  
بل يسمونه ( Tenno Heka ) أي ابن السماء ، حدث مرة أن سمي ريفي ابنه  
باسم الامبراطور على غير علم منه ، فلما عرف أن هذا هو اسم الامبراطور انتحر  
خجلاً وخزياً ، وحدث آخر أن أحد أكابر الموظفين تعرض في محاضرته لمستقبل  
اليابان ، وأشار إلى النزعة الديمقراطية التي تتزايد ، وتآلم لما عساه أن يحل باليابان  
من الويلات إذا حدث لا قدر الله وزال حكم الأسرة المالكة ، فكان هذا مبرراً  
لفصله على الفور . ويحمل الجميع صور الامبراطور ويخفونها في صدورهم إلى يوم  
عيد الميلاد حين تعرض في حفل كبير يقام في المدارس وغيرها ، وعند كشفها  
يخر الجميع ركعاً ، ويخالون أن روح الامبراطور تحل بعض المعابد أحياناً ، لذلك

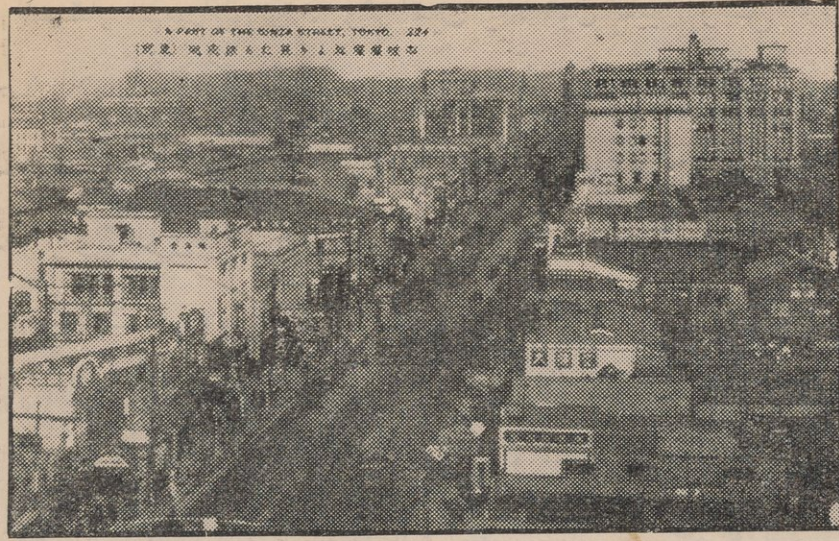


علمت أن قاضى القضاة الذى كلف الحكم فى قضية خطيرة تمس الاشتراكية كان يذهب إلى معبد طوكيو كل صباح ليستمد الإلهام الصادر من روح الامبراطور ميجى لى يوفقه فى الحكم .

وقلما يخرج الامبراطور ليراه الناس ، وإن حصل ذلك أغلقت جميع النوافذ على جانبي الطريق حتى لا ينظر إليه أحد من عل ، ويصطف الناس وعيونهم إلى الأرض ، ولا يجروا أحدهم النظر إليه مهما علت مرتبته ، ويقف البوليس وظهره إلى الامبراطور ، ويجب على مصلحة الصحة أن تطهر الطريق كلها قبل مروره ، وقلما يحضر الامبراطور بنفسه الولائم والحفلات الرسمية التى تقام فى القصر ، ويحضرها كبار الأجانب وسفرائهم ، ويغلب أن ينيب عنه أحد الأمراء ، وقد يطلع عليهم وهم وقوف فى صف ويرفع لهم يده ، حتى قيل أن غالب السفراء لا يطيقون ذلك رغم أنها من تقاليد البلاد .

فليس بعجيب إذن أن يخلق هذا حكومة مركزية مدعمة الأركان فى آمد وجيز ، فالى سنة ١٨٦٨ كانت اليابان مقسمة إلى اقطاعات تحت أمرة (الدايميو) الذين كان يرأسهم (الشواجن) ، أى الحكام العسكريون ، وهم حكام اليابان الحقيقيون ، وكانت أسرة (توكوجاوا) هى السائدة خلال ٢٥٠ سنة ، وكانت من قبل من أسرات (الدايميو) ، أما الامبراطور فكان فى كيوتو كأنه سجين لا دخل له بالسياسة ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بدأت حكومة الشواجن تضمحل بسبب سوء الحكم وبدء تدخل الأجانب الذين هددوا استقلال البلاد إذ أرغموهم على فتح ثغورهم للأجانب سنة ١٨٥٤ فبدأ جلياً (للساموراى) مديرى المقاطعات من قبل زعماء الأقطاع أن تغيير الحكومة واجب إذا أرادوا المحافظة على استقلال اليابان ، فأغروا الزعماء من الدايميو الذين كانوا حائقين على (الشواجن) ، فثاروا جميعاً بزعامة أسرتى (تشوشو ، ساتسوما) الذين ناشدوا رجال الحرب أن يخلعوا نير الشواجن ويعيدوا للامبراطور سلطته ، فنجحوا وبدأ العصر الجديد سنة ١٨٦٨





( شكل ٦٦ شارع جنزا مستراض الشباب في طوكيو

حين تسلم الامبراطور (ميجي) الأمر بعد ما حرمته الأسرة تسعمائة سنة ، وفي ١٨٧١ زال حكم الاقطاع تماماً وسلم الداييمو بلادهم ثم تنازلوا عن جميع امتيازاتهم المالية الموروثة بمحض اختيارهم رغم عدم وجود موارد أخرى لهم ، وهنا تبدو متانة الخلق الياباني في التضحية والاخلاص ، إذ تركوا صوالحهم الذاتية وتعاونوا على معاضدة النظم الجديدة لصالح اليابان ، أما الشعب فلم يقيم بشيء إيجابي قط .

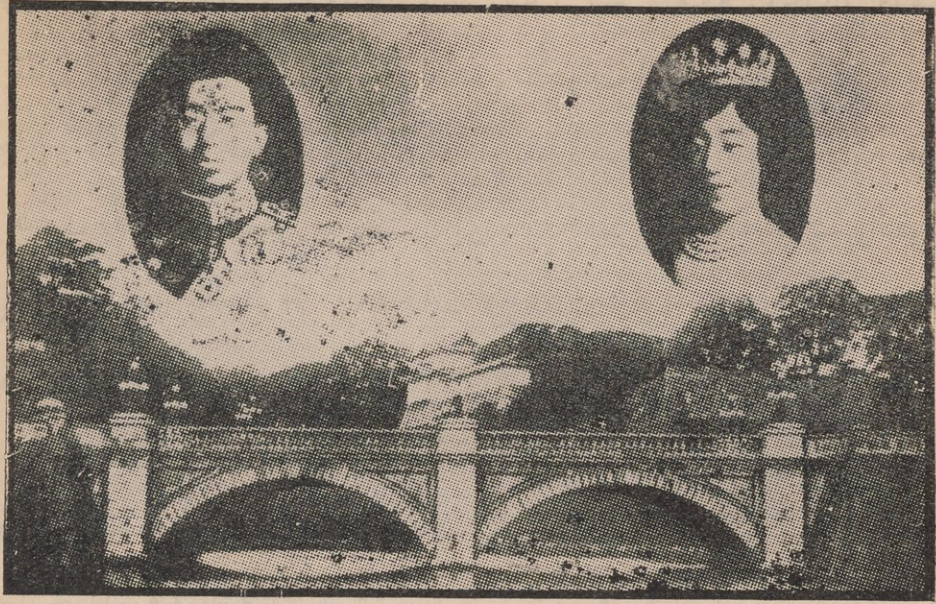
ولكن تمشي البلاد مع الدول العظمى شعروا بالحاجة للجيش والأساطيل الحديثة والنهوض بالصناعة ، ووسائل النقل والتعليم ، وقد وقع جل هذه الأعمال على عاتق أسرتي ( تشوشو ، ساتسوما ) الذين أتوا بالمعجزات لإنقاذ البلاد من المخاطر التي كادت تحيق بها ، ولم يروا لازماً أن يقلدوا أوروباً في كل شيء ، بل في تنظيم الحكومة ووسائل الإنتاج ، وقد نقح الأمير ( أيتوا ) الدستور سنة ١٨٨٩ على أساس دستور ألمانيا ، وعين غالب زعماء الأقطاع ( الداييمو ) أعضاء في المجلس الأعلى ( والساموراي ) في المجلس الأدنى ؛ وخصت أسرتا ( تشوشو ، ساتسوما ) بالحرية والبحرية ، وكان لهم الرأي الأعلى حتى بدأ يناوئهم بعض الهيئات الأخرى فلجأوا إلى تشكيل هيئة أسموها ( Genro ) ، أي جماعة السياسيين المخضكين لتقوم



بوظيفة المستشار الإمبراطورى ، وهم الذين يقترحون تعيين رئيس الوزراء ، وينصحون للإمبراطور بكل التصرفات ووزيرا البحرية والبحرية يختاران من بين رجالها ، فالحكومة اليابانية نوع من الأجرارية ، لكنها مصاحبة لعمل للرأى العام حساباً ، والرأى العام فى اليابان قوى جداً ، فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة سنة ١٩١٤ استقالت هى ، وكذلك التى تبعها سنة ١٩١٨ حين احتجوا على وزارة ( تيروشى ) الذى كان ينتمى إلى ( الجنزو ) ويومئذ قام الناس باعتصاب الأرز الذى أسقطت الوزارة لوقتها ، وفى سنة ١٩٢٣ استقالت وزارة ( ياماموتو ) على أثر اغتيال حياة الأمير نائب الملك ، الأمر الذى عده الشعب دليلاً على عجز الوزارة أن توطد الأمن فى البلاد ، وكما حدث اعتداء من هذا القبيل أسرعت الوزارة أو رؤساء الشرطة بتقديم الاستقالة كما حصل فى يناير الماضى حين حاول شاب ثورى من كوريا أن يغتال الإمبراطور بقمبلة انفجرت فأصابته أحد خيل المركبة فاستقال مدير الشرطة وكبار البوليس اعتقاداً منهم أنهم المسؤولون عن ذلك ، وكذلك انتحار الأميرال شنوازادى قائد أسطول اليابان فى مياه شنغهاى ، لما أن عزل بسبب سوء تصرفه هناك فى الحرب الحالية بينها وبين الصين .

على أن جماعة الجنزو ممثلى عهد الأقطاع اليوم بدأوا يشعرون بمنأى قوى اليوم هو نفوذ رجال الأعمال التجارية والمالية والصناعية خصوصاً فى طوكيو المركز المالى ، وفى أوزاكا المركز الصناعى ، وكثير من أولئك من سلائل الساموراي وأسرة ( متسوى ) أغنى الجميع وهى تشتغل تحت إرشاد الحكومة ، وقد بدأ نفوذها يؤثر فى الحكومة ويسود رجال الهيئة العسكرية ، لذلك بدأت تنتعش سلطة المجلس الأدنى الذى يستمد المال من تلك الهيئات الصناعية لمناهضة رجال الحرب ، وقد نجحوا فى إسناد الوزارة إلى ( كاتو ) من نصرائهم سنة ١٩٢٤ لذلك كان يطلق عليها ( حكومة متسويشى ) هذا وقد أدى نمو الصناعة إلى الدعاية الاشتراكية لصالح العمال ، وبدأ يظهر أثر هذا فى التحفز للاضراب ،





( شكل ٦٧ ) مدخل القصر الامبراطورى ، وفى أعلاه صورة  
الامبراطور والامباطورة

وفى النزاع الذى بدأ بين المزارعين والملاك على أن الحكومة تقاوم كل ذلك مقاومة فعالة خصوصاً ، وأن غالب الصناعة ووسائل النقل تحت إشرافها المباشر .

وتمتاز طوكيو بمتنزهاتها الكثيرة زرت فيها متنزه ( هيبيا ) عظيم الاتساع وفير الزهور وبخاصة ( الأزاليا ) ويجد القوم فيه مكاناً صالحاً للنزهة واللعب ، ولذلك ترى أدوات اللعب كالصوالج والأراجيح وما إليها منشورة فى أرجائه الفسيحة كذلك متنزه ( شيبيا ) ويشتهر بمدافن أسرة طوكوجاوا من الشواجن ، وبعضها فاخر النقش فى الخراط اليابانى الغريب ، وأغشية الذهب والفضة فى إسراف لا يفوقه سوى مدافن نكو .

ولعل أكبر المتنزهات وأجملها ( وينو ) تزينه أشجار الكريز بزهرها الجميل ، وفى داخله كثير من الملاعب إلى ذلك حديقة الحيوان المتواضعة ، ودار السكتب ، والمتحف الفنى ، والمتحف الامبراطورى ، وهذا أهمها وإن بدا صغيراً قليل المعارضات بالنسبة لمتاحف أوروبا ، ومجاميعه فى الطابق الأعلى رسوم خيالية



مطرزة على ستائر ثقيلة . ثم منتجات اللاكيه المرصع بالصدف وجدائل الذهب في إتقان كبير ، وفي الدور الأسفل تعرض الأدوات النحاسية والخشبية . ثم الزجاج والخزف والأحجار الملونة . ثم تماثيل كبيرة لبودا وحراسه وعفاريته بعضها من ذهب وفضة ، والبعض من خشب إلى ذلك بعض الأسلحة القديمة والنقود ، على أن الفن يعوز غالبها وفقر المعروضات لا يكشف للقوم عن ماض مجيد قط ، فهم لم يرثوا عن آبائهم من عظمتهم الحالية مما يزيدهم إكباراً وفخراً .

قصدت إلى متنزه (اسا كوسا) ، وفي مدخله معبد شعبي لآلهة الرحمة نصل إليه وسط طريق صفت على جانبه الحوانيت بمعروضاتها اليابانية الجذابة ، ومصاييحها الورقية الملونة وشرفاتها الخشبية وأنت تذهل هناك لسيل الناس الجارف صباحاً ومساءً وكلهم في أرديتهم القومية الجذابة ، والمعبد فاخر وأعجب ما رأيته هنالك لفائف ضخمة من شعر آدمي جدل في حبال بالغة الطول والسمك تبرع به فتيات ذاك العصر كي يعاونوا على سرعة إقامة المعبد بعمده الضخمة التي لم تقو الحبال العادية على رفعها ، وفي ذلك مثل لميلهم الشديد للتضحية خصوصاً وأن الشعر أكبر ما تعتز به الفتاة اليابانية وتتجمل بمرآه ، وهذا المعبد هو المكان الوحيد من ذاك الحى من طوكيو الذى لم يحترق على أثر نسكة الزلزال الكبرى سنة ١٩٢٣ فعزا القوم ذلك إلى قدسيته ، وعجيب أن ترى خلف المعبد مباشرة أكبر مناطق طوكيو للمجون والملاهى الشعبية تلك التي يعدها الجميع خير مكان للتسلية ، لذلك لا تهدأ حركة المتنزه ولا تنخبو أضواؤه الخاطفة طوال الليل .

في المساء طلبت إلى صاحب النزل أن يدلنى على دار للتمثيل اليابانى القديم وهو أحب أنواع التمثيل لديهم فأرشدنى إلى (تيا ترو شمشى) من أفخم دور التمثيل في طوكيو وما أن وصلت الباب وهممت بشراء التذكرة حتى تقدمت إلى فتاة تجيد الإنجليزية تقول : أنت يا سيدى المستر ثابت النازل في لوكاندة شوو؟ فدهشت وقلت نعم . فقادتني إلى داخل المكان بعد أن رفضت بتاتاً أن أدفع ثمن التذكرة





( شكل ٦٨ ) الطريق النجاري إلى معبد أسا كوسا بجوانبه الحشبية وسيل المارة اندافني وأحلتني مجلساً فاخراً ، وقالت بأن التياترو ملك لشقيق صاحب النزل ، وقد أعطانا إشارة تليفونية أن نكرم وفادتك ، فغمرتني تلك الأخلاق الجميلة ، وظلت الفتاة تشرح لي بالإنجليزية كل مشاهد التمثيل طوال الوقت حتى برحت المكان ! أما التمثيل فغاية في الإتقان ، ومناظر المسرح رائعة ، وكلما أريد تغيير مشهد دار المسرح كله على كبره حول نفسه ، فبدا منظر جديد ، والرواية كانت قصة لفتاة زوجها أبواها من صبي لا تحبه وهي طفلة كهادة اليابانيين قديماً ، ولا يزال للعادة أثر إلى اليوم ، وكانت تحب فتى آخر جندياً لم يسعها إلا أن تسير إليه مخالفة أبويها ، فتلاقى الفتى مع غريمه ، وكان معه أعوان كثيرون بارزهم جميعاً وغالبهم فصرعهم عن آخرهم ، وأجل مراقبي منظر ( خمار ) ضمت القوم وهم يرقصون ويهللون ، وقد أخذ ( الساكي ) بلبهم جميعاً بشكل يدل على أن الألمان كان ديدنهم ( ولا يزالون يكثر من تناول الخمر ) وختمت الرواية بفصل المبارزة التي يفخر بها القوم ويجلونها إلى اليوم ، وكان المتفرجون يصفقون بحدة تشجيعاً لهم ، وبقدر التكلف في نعومة اللفظ والتدلل من جانب النساء ، كانت غلظة الرجال في حديثهم وانتحالهم وجوههم فطبة وهم يتكلمون في نغمة الأمر المستبد ، ولأقل



سبب كانوا يستلون سيوفهم ، وهذا النوع من التمثيل يسمونه ( نو ) ، وتقام له أكبر دور التمثيل في جميع البلدان ، ويتسابق القوم لاقتناء تذاكره في تهافت عجيب .

زرت بعض معابد المدينة ، وأخرها معبد الإمبراطور مييجي ، خالق النهضة اليابانية ، مداخله ممتدة تتخللها البوابات الخشبية الشاحخة — وهي تتقدم مداخل لمعابد كلها — وفي قراره مقصورة الهيكل يسجد الناس أمامها ، ويلقون بقطع النقود تقرباً وزلفى ، ثم زرت معبد ( سنجاكوجي ) ، ويشتهر بمدفن جنود ( الرونين ) ، أي فاقدى الرئيس ولهم قصة عجيبة إذ كانوا أتباعاً لرئيس لحقته إهانة من غيره فهم بطعنه ، لكن حيل بينه وبين رغبته وقضى عليه بالانتحار كهاتهم فهم أتباعه هؤلاء ( وكانوا ٤٧ ) لا يهناً لهم عيش حتى يأخذوا بشار سيدهم ، ولما حققوا أمنيتهم أسرعوا إلى قبر سيدهم ، وأعلنوا أنهم أدوا الأمانة ثم انتحروا جميعاً بجواره خشية أن يحكم عليهم بالموت بشكل غير مشرف ، لذلك أقام اليابانيون لهم معبداً لأنهم يقدسون الشجاعة والوفاء ، ولو في مظهرها الوحشي .

والأخذ بالثأر كان لديهم مقدساً لمحو العار ، فإذا أهان أحدهم غيره قتله ، لكن يعود القانون فيحكم على القاتل بالانتحار ، وإلا قتل نفسه قبل ذلك ، فإن نفذ فيه الحكم ظل الثأر في رقبة أتباعه الذين لا بد أن يأخذوا بشار سيدهم يوماً ما ، وعجيب أن كان قانونهم يبيح ذلك ، وكان يحتم على المنتقم أن يبلغ الأمر للمحكمة لكي تحدد له ميعاد الانتقام ، وإذا احتمى القاتل في الأشراف أو أصبح جندياً سقط عنه القصاص وقيل أن تلك التعاليم أخذت عن ( كنفوشيوس ) . والانتحار أشرف لديهم من الاعدام ، لذلك كان يفضل القاتل أن ينتحر أمام الناس بيديه ، وكان القانون يعطى للمجرم الحق في الانتحار أمام الناس أو ينفذ فيه الاعدام ويؤثر المنتحر أن يموت بسيفه الخاص ( Harakiri ) وهاك وصف حادثة انتحار حدثت أمام جمع من الأوربيين :





(شكل ٦٩) أحد مشاهد التمثيل القديمة أحب أنواعه لديهم

حكم على الأمير تانكي زنزا بورو بالانتحار ترضية للأجانب لأنه هو الذي أمر بضرب النار عليهم سنة ١٨٦٨ فدعا الميكادو الأجانب إلى أحد المعابد واصطف الجند وجيء بالمنتحر ومعه اثنان من أعز أصدقائه ليساعده على قتل نفسه إن خائته قواه وتسلم الخنجر المذنب ماضي الحدين وجلس القرفصاء كعادة اليابانيين ، ثم رفع الخنجر فوق رأسه شجاعة واحتراماً وأخذ يعترف بجريته في جرأة واقدام وطلب معذرة الحاضرين وسألمهم أن يسبغوا عليه شرف مشاهدتهم إياه وهو يبقر بطنه ، ثم انحنى مرات احتراماً ورفع قميصه ومال إلى الأمام قليلاً مخافة أن يقع على ظهره ساعة انتحاره ، وهو عار لا يمحى ، ثم أخذ يرمق الخنجر بنظرات العجب والتيه وطعن به جانب بطنه الأيسر وطفق يشقه محرّكاً يده إلى الجانب الأيمن ، وهنا اجتذبه إلى أعلى إمعاناً في الشجاعة والجلد ، وهو خلال ذلك كله لم يمتنع وجهه ، بعد ذلك انحنى إلى الأمام ساجداً ، وفي لمح البصر هوى سيف صديقه على رأسه ففصلها عن جسمه ثم مسح الحسام بورقة وأعادته إلى غمده بعد أن انحنى وانسحب .

منظر مزعج ؛ لكنه يدل على مبلغ ضبط النفس ، و رباطة الجأش ، و هدوء

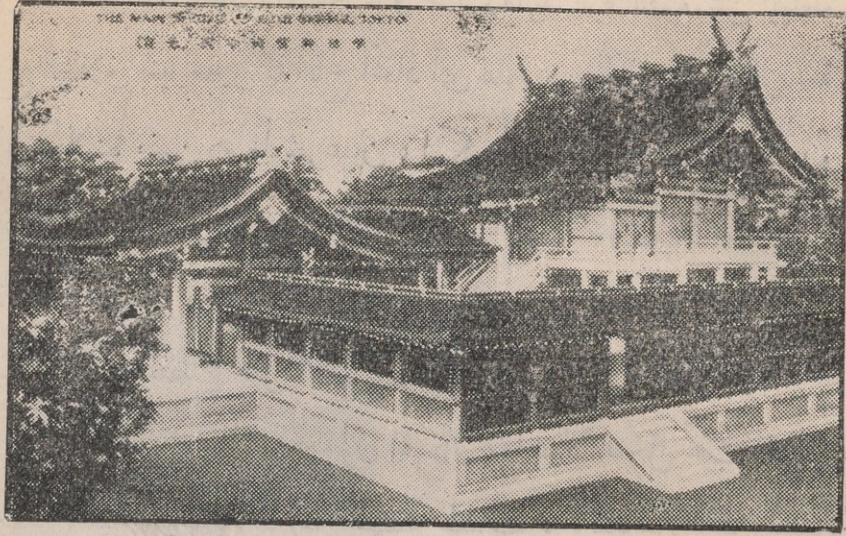


الأعصاب في المنتحر وأصحابه ، وعجيب أنهم يعدون ذلك أكبر فخر خصوصاً إذا قام أقرب المقرين بالاجهاز على حياة صديقه ، وهذا يقدره جميع اليابانيين لدرجة أن بعضهم عرض على البرلمان سنة ١٨٦٩ إلغاء الانتحار فرفض اقتراحه بأغلبية ٢٠٠ ضد ٩ بحجة الإخلاص للمبدأ ، والشعور القومي وحفز الفضيلة ، وعجيب أن (أونو سيجورو) ، وهو الذي اقترح هذا الإلغاء مات بالطريقة نفسها بعد ذلك بزمان يسير ، هذا ورغم تحريم القانون ذلك اليوم نرى الانتحار منتشرًا هناك ، لمناسبات تافهة .

تفقدت بعض المحال التجارية الكبرى ، وأخصها (متسو كوشي) شبيهه لافاييت بباريس ، وشكورييل بمصر ؛ إلا أنه أفخم بناء وأعظم امتداداً حوى كل شيء حتى الطيور والفاكهة ، والمطاعم ، والمقاهي . إلى جانب مستلزمات النساء والرجال جميعاً ، وفوق سطحه بعد الدور السابع حديقة يابانية أشبه بالحدائق المعلقة ينمو شجرها ويتفتح زهرها وتتوسطها النافورات والصخور ، وترى المقاعد صفت للمترىضين ، وأراجيح الأطفال ، وملاعبهم منتشرة خلالها ، وأمثال تلك الحدائق تعلو غالب المباني وتسمى بالحدائق السماوية ، وفي أقصى أركان الحديقة هيكل يقام لإله النجاح يزوره الجميع لكيلا تنسيهم المادة واجبههم المعنوي ، وللمحل عدد كبير من السيارات الضخمة الفاخرة تنقل رواد المكان إلى محطة سكة الحديد ومنها بدون مقابل .

إلى نكو : مصطفى ملكي ساحر صافي السماء — ومن ثم سمي نكو أعنى ضوء الشمس — يقع وسط الجبال المعقدة تفصل ما بينها وديان متلوية سحيقة تغص بالشلالات والخوانق ، وغابات صنوبر تكاد تكسو المدينة كلها ، وصلتها في ثلاث ساعات بقطار الكهرباء فبدت مناظر الطريق في قسمه الأول سهولاً يكسوها الأرز الذي يخطط الأرض في تماثل جميل وبين آونة وأخرى تبدو منابت الكتان والخضر ، وعلى مقربة من نكو ظهرت الربى والغابات وأخذنا في الصعود





( شكل ٧٠ ) داخل معبد ميجي في كامل روعته

حتى حللنا القرية ببيوتها الخشبية اليابانية التي يستخدم ظاهرها لعرض المنتجات اليابانية الدقيقة ، وأهم جانب هنالك ناحية المعابد فهي عديدة لا تحصى ، وغالبها جميل الهندسة موفور الطلاء ، سلكنا سبلنا إليها صعداً ، وصرنا بجانب قنطرة مقوسة صغيرة في لون أحمر جذاب ، تقع على نهر دايا المقدس ، ويسمونها القنطرة الإلهية ، ولا يجوز أن يعبرها غير الامبراطور وأسرته فحسب ، وأخر المعابد طراً معبد ( ايباسو ) ومدفنه ، وهو مؤسس أسرة شواجن طوكوجاوا ( ١٦٠٠ - ١٨٦٨ ) بناها حفيد ايباسو ثالث الشواجن سنة ١٦٢٤ ، وظل العمل ١٢ سنة يبذله من العمال ١٥ ألفاً كل يوم حتى قدرت نفقائه بملیونی جنيه ، أخذنا نجتاز بوابات من خشب باسق من خرط ياباني تطوقها رقائق النحاس البراق وطلاء الذهب الخاطف ، وتلفت النظر بنوع خاص ، البوابة الثانية التي تبهر النظر لكثرة زخرفها وبريقها ، ولا يكاد يفوقها جمالاً سوى ( تاج محل ) في الهند ، وفي داخلها تقوم المقبرة في هرم مدرج من نحاس يضم الرماد الخلف من احتراق جثة ايباسو ، وعندما تم بناؤه خشي مهندسوه حسد الآلهة وحنقها على الامبراطور من فرط جمال البناء ، لذلك أقاموا نماذج مصغرة للبناء فوق بعض الأعمدة وهي منسكة ( ٨ - آسيا )



دفعاً لذلك واتقاء غضب الآلهة ، وأغرب ما يذكره القوم عن ايباسو أنه أباح للزوج الطلاق بغير مبرر كما أباح اتخاذ أى عدد من الخليلات مع الزوجة ، على أن يكون أولاده منهن جميعاً شرعيين ، لكن ابن الزوجة هو الوارث ، وإلا وراث أخوه أو أقرب الناس إليه ، وإذا لم تعقب الزوجة سوى الأنثى تبني أحد أفراد عائلة أخرى ، ولا يجوز لمن دون ١٦ سنة أن يتبنى غيره إلا إذا كان على فراش الموت خشية انقطاع حبل الأسرة ، وكان يبيح للزوج قتل زوجته مع خليلها ، فإن قتل أحدهما عد مذنباً ، وحول المكان معابد لا تدخل تحت حصر ، وبجانبه (پاجودا) تمثل برجاً يابانياً من سبع طبقات ، وتعد من أجمل منتجات الفن اليابانى ، وترى فى مداخل أغلب المعابد خصوصاً البودية تماثيل حفظة المكان وقتلة الجن فى أشكال مزعجة منفرة ، لا تسيع لك نفسك النظر إليها ويسمى بعضها بعضهم (يأجوج ومأجوج) ، وكنت ألاحظ الزائرين اليابانيين يمسحون عليها قطعاً من ورق يمضغونها ، فان التصقت لبابة الورق بالتمثال كان خيراً وإلا دل على غضب الآلهة وعدم قبول الصلاة .

وللمدينة مدخل رائع بين صفتين من شجر (Cryptomeria) السامق الرهيب الذى يكاد يتعانق من أعلاه ويخط طريقاً قائماً رائعاً يمتد ٢٢ ميلاً فى تماثيل جذاب أقيمت أشجاره سنة ١٦٤٨ فبلغت ٤٠ ألفاً وهى اليوم ١٨ ألفاً ، والسير فى الطريق يذهب بخيال المرء كل مذهب بحيث يترك فى الخيلة أثراً لا تمحوه السنون ، وهنا أقلتنى سيارة وسارت صعوداً بين الربى والشلالات والنقائع فوق طريق لياته من الأعاجيب عدت منها ٣٥ لية ، وكانت السيارات تسير كأنها متوازية تماماً كل درجة من الطريق تعلو الأخرى ، وكما علونا بعد غور الوديان وقرر منظرها لكن ظل دوى مائها يتردد فى أرجاء الربى من حولنا فى شدة رهيبية وبعد ساعة كاملة فى ذاك الصعود ، وقفنا إلى جانب شلال كوجون وغور مسقطه ٣٣٠ قدماً ، وقد أعد القوم قبائله مشرب شاى جميل ، أخيراً وصلنا منبع النهر





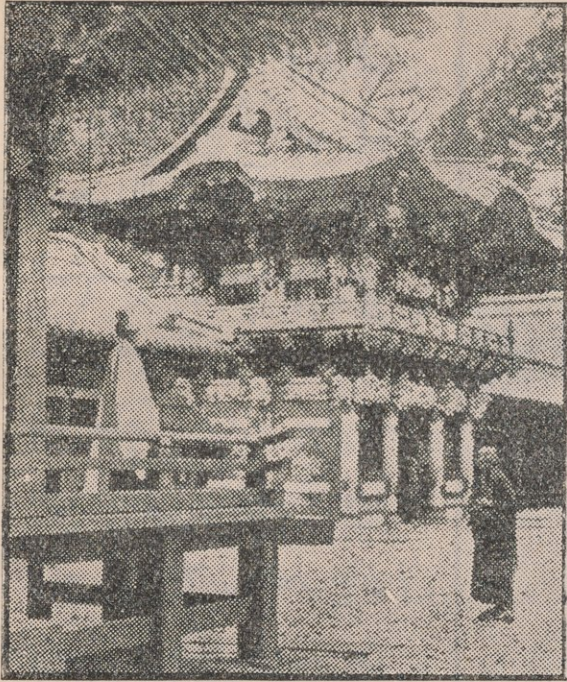
( شكل ٧١ ) حديقة معلقة فوق الطابق السابع  
من محل متسوكوشي التجارى فى طوكيو

من بحيرة ( شوزنجى ) على  
علو ٤١٩٤ قدم تنعكس على  
صفحتها اللجينية الآسنة الربى  
السندسية ، ومنظرها من  
داخل المعبد الذى أقيم تقديساً  
لها ساحر جدير بعبقريّة  
الشعراء التى تستطيع ترجمته  
للناس فى جلاء وسحر بيان  
ويقينى أن نكو جمعت بين  
جمال الفن الأثرى والابداع  
الطبيعى فهى مقام هانى لحبى  
الفنون ورواد الهدوء وواسعى

الخيال ، ولليابانيين الحق فى مثلهم السائر : — لا تقل نكو ( Neko أى فخم ) إلا  
بعد أن ترى نكو ( Nikko ) على أنى لاحظت افتقار مناظر اليايات الطبيعية  
لطوائف الحيوان على اختلاف أنواعه فهى لا تلائم الصياد قط ، وقلم يسمع الرء  
فيها تغريد طائر فأحراشها وغاباتها سا كنة سكون الموت مما يجعلها موحشة رغم  
جمالها الساحر .

قت بجولة على ضفاف نهر ( سوميدا ) فى طوكيو فهالنى منظر المصاييح الملونة  
من الورق تصف على جانبي النهر ، وعلمت أن يومى هذا صادف حفلة يسمونها :  
عيد المصاييح حين تحرق سيقان جافة من السكتان فى مدفن العائلة وقبل خمودها  
يشعل فيها مصباح المدفن ، ومنه يضاء مصباح آخر ينقل إلى البيت ويضاء منه  
الهيكل ، ويزعمون أن هذه النار توقظ أرواح الأجداد فتسير على هديها إلى البيت





(شكل ٧٢) البوابة الفاخرة في معبد أيباسو

لذلك يقدمون القرابين من  
المأكولات أمام الهيكل في كل  
بيت ويركعون للآلهة ، وفي نهاية  
الليل تعود الأرواح إلى مقرها بعد  
أن تبارك الذرية وتكفل لها  
السعادة طوال العام ، وفي غالب  
البلاد تضاء مصابيح لا حصر لها  
في شكل طيور الماء وتعموم في اليم  
إلى المصب وسط تهليل القوم في  
الضفاف والزوارق في مشهد  
غريب .

وأمثال تلك الحفلات يقيمونها في كثير من المناسبات من بينها : حفلة رأس  
السنة القمرية — لأن حسابهم القديم كان وفق التقويم القمري <sup>(١)</sup> فتقام شجرة  
أمام كل بيت تدخلها الآلهة في زعمهم فان حسن استقبالها كانت سنتهم سنة خير  
ومرحة ، لذلك يقطع الجميع الشجرة المقدسة قبل نهاية السنة بأربعة أيام وتغطى  
بالعشب في زاوية من البيت ، ويقدم ( الساكي ) حولها ، وفي ليلة رأس السنة  
تزرع أمام الدار ومنها تصنع عصي الأكل التي تستخدم في حفلات السنة كلها ،  
وبعد أسبوعين تقتلع هذه الأشجار وتحرق خارج المدينة وسط تهليل الجماهير  
توديعاً للآلهة ، وفي هذا العيد يؤدي كل مدين دينه ، وإلا فقد شرفه بين الناس

(١) لا يزالون يقسمون اليوم إلى ١٢ ساعة مزدوجة يرمز لكل بحيوان : فمن منتصف  
الليل إلى الثانية صباحاً ساعة الفأر ، تليها ساعة الثور ، ثم النمر ، ثم الأرنب ، ثم التين ، ثم  
الأفعى ، ثم الحصان ، ثم الجمل ، ثم القرد ، فالديك ، فالقنفذ ، فالثعلب ؛ فيقول لك أحدهم  
سأزورك ساعة الأفعى أي بين العاشرة والثانية عشرة وهكذا





(شكل ٧٣) في مدخل معابد نكو ومن وراثنا  
البرج القديم

لذلك يحاول دفعه ، فان أعجز  
عرض بعض ما يمتلك للبيع  
ويحاول اجتذاب المشترين  
ولذلك تكتظ الأسواق في  
الأسبوع الأخير من السنة  
بالباعة والمشتريين لوفاء دينهم ،  
وعجيب أن يحل بعضهم  
السرقه لسد دينه لأنه يرى  
في عدم الوفاء بعهده جرماً  
أكبر من السرقه ، ولهذا  
كانت أغلب الجرائم هناك  
في هذين الأسبوعين ،  
وأعجب من ذلك أن الدائن  
لا يأخذ صكاً على مدينه بل

يقول له : إن لم تدفع في الميعاد قلت الأمر لجيرانك ، وفي هذه الفضيحة الكبرى  
ومن أجمل حفلاتهم : حفلات الأطفال : حفلة الفتيات ( هينا ما تسوري )  
تقيمها كل عائلة عقب فتيات ، ويكون ذلك يوم ٣١ مارس وهو موسم أزهار  
شجر الخوخ ، ويشترك فيها جميع أوانس الأسرة ، ولا يشترك فيها الذكور قط ،  
فتقوم دميستان كبيرتان تمثلان نبيلاً وزوجته ومن حولهما دمي كثيرة تمثل الخدم  
والأتباع ، ويلبس الجميع ثياباً فاخرة وتعرض بجانب الدمي سائر أدوات المنزل في  
حجم صغير دقيق ، وبعض تلك يتطلب نفقات باهظة لذلك قامت مصانع لاعداد  
ذلك ، وفتيات الجيران يدعون لتناول الطعام في تلك الآنية الصغيرة وإلى جانبه  
شراب مخفف من ( الساكي ) ، وبعد ذلك يلعبون ويعزفون ويغنون ، وقبل بزوغ





الفجر تلف كل المعروضات  
لكي يعد ذلك فالأ بزواج  
الفتاة المبكر ، ويقولون إن  
تلك العادة خرافة قديمة نقلت  
عن تفاؤلهم بالبنات لأنهن  
بشير إنتاج الأرض الوفير ،  
لذلك كانوا يكلفون البنات  
بعمل الدمى لتدفن في الحقول  
ثم تطورت إلى الاعتقاد بأن  
الدمى توائم تقي الفتيات الشر ،  
وكان من عاداتهم القديمة أن  
تحلق الفتاة يوم الزفاف حاجبيها

(شكل ٧٤) ندخل نكو من طريق تحفه أشجار  
(الكربتوميريا) إلى مدى ٢٢ ميلا

وتخضب أسنانها باللون  
الأسود علامة الوفاء ، لذلك

تراهم يمثلون ذلك في الدمى المعروضة في هذا العيد  
أما الفتيان : فيقيمون لهم حفلة (تانبجونوسكو) كل معروضاتها من دروع  
وحراب وأعلام وأردية عسكرية يقدم أمامها الساكي والخلوى ، ويأكل الأطفال  
كعك الأرز تكسوه أوراق الشجر ، وفي هذا العيد يستحم جميع الأطفال في ماء  
ساخن جداً تعطره أوراق شجرة خضراء و يقيمون أعمدة تطير فوقها مقاصيص  
الورق وكأنها الطير أو السمك يسبح في الهواء

الى ها كوني : قطعنا ٥٢ ميلاً إلى ضاحية تسمى ميانوشيتا (أعنى أسفل  
الجبيل) في مناظر لا تقل سحراً عن مناظر نكو وبها من المقاهي والانزال الشيء  
الكثير حللت أفرها على نهر (هايا) وحول النزل كثير من الينابيع التي قد تبلغ





حرارة بعضها  
٧٥° م يوم القوم  
الاستحمام  
والاستشفاء ،  
ومن هنالك  
أقلتني سيارة  
إلى بحيرة

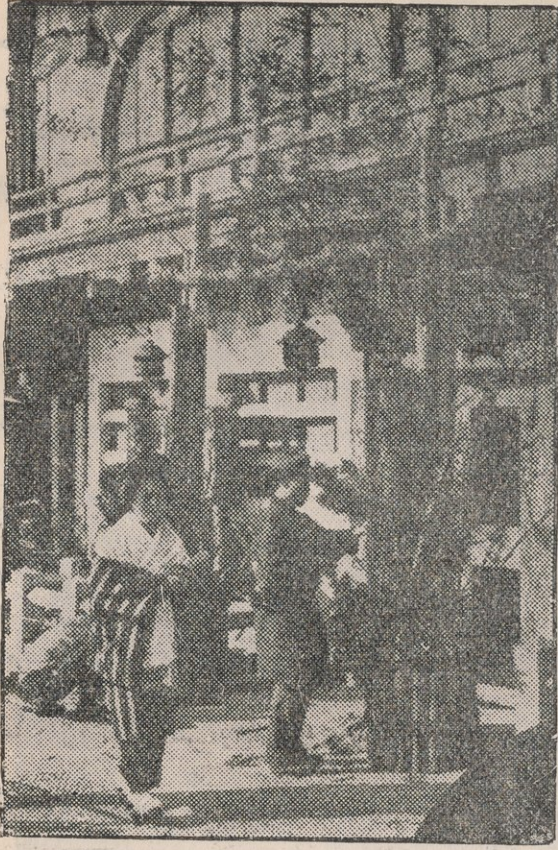
( شكل ٧٥ ) المصاييح الملونة تلقى في اليم وهي تتلأأ فيذهب  
بها التيار بعيداً وسط تهليل القوم

ها كوني التي

تبعد بنحو ٨ أميال فوق الرابي هنالك بدت صفحة من فضة ينعكس عليها ( فوجي  
ياما ) أروع مناظر اليابان وأعلاها ذروة وأسمها مكاناً حتى عده الجميع خير الجهات  
المقدسة قاطبة ويحج إليه الجميع في مواسم معينة بمصاييحهم وقرابينهم ويتسلقون  
مخروطه القاتم تجلله خطوط الثلج الوضاء وهو أبداً يرسم على محيا البحيرة حتى في  
ضوء القمر لذلك أسماها القوم بحيرة ( ساكاسافوجي ) أعنى فوجي المزدوج ، على أن  
يومنا كان غائماً كثيف الضباب غزير الأمطار لذلك أخفى عنا جانباً من روعة  
المناظر ، ولم أكدر أرى من فوجي إلا قبساً ضئيلاً لم يشف غلة ، فكأنه آلى إلا  
أن يحرمني الاستمتاع به كاملاً لأنني غريب عن أهله مارق عن مذهبه ، على أني  
في عودتي من طوكيو إلى أوزاكا كنت أراه بكامل روائه طوال الطريق .

عدت إلى طوكيو ورغبت في زيارة بعض دور العلم بمعاونة صديق ياباني هو  
( المستريوكوياما ) أقام في مصر سنتين في رئاسة المعرض الياباني وهو كما بدالى من  
أحاديثه من المحبين لمصر والمصريين ولا يذكروا بلادنا إلا بالخير مما حبينى فيه ،  
وقد عاوننى في ارتياد كثير من نواحي العاصمة وضواحيها ، ولقد كان واسطة  
التعارف بينى وبين أحد أساتذة الجامعة من الأمريكان ، ولم يسعدنى الحظ



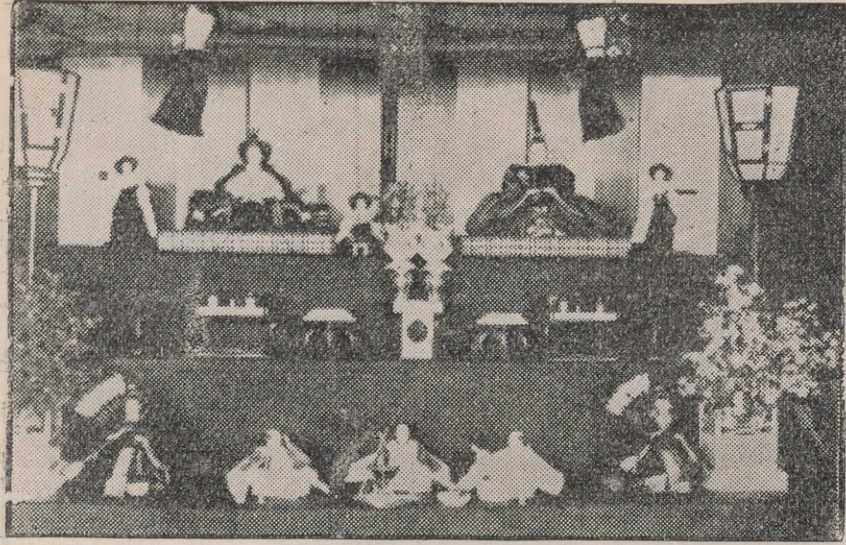


(شكل ٧٦) شجرة رأس السنة أمام الدار

بزيارة المدارس لأنها كانت  
في شهور العطلة ، غير أنى لم  
أحرم فائدة ما قصه على من  
أنباء التعليم في تلك البلاد  
الناهضة التي نقلت غالب  
نظمها في التعليم عن أمريكا  
ولقد نشط التعليم منذ سنة  
١٨٦٩ حين أقسم الامبراطور  
انه سيعمل على نشر التعليم  
حتى لا تبقى عائلة جاهلة ولا  
يبقى عضواً من أية عائلة  
كائنة ما كانت ، ولقد نجحوا  
في ذلك حتى لم يبق من

الأميين اليوم ما يبلغ الواحد في المائة ، وللطلبة هناك شأنهم في بلاد الشرق طرا :  
احترام شديد وتأثيرهم في الرأي العام كبير ، وكثيراً ما يتدخلون في شئون الدولة  
نفسها ، ولهم ملابس خاصة شبيهة بالملابس العسكرية ، وتلك نقلت عن ألمانيا ،  
وجميع المدارس تحت إدارة حكومية ، ونظام التعليم هناك ديمقراطى لا يفرق بين  
أبناء الطبقات المختلفة ، ويدرس التلاميذ في المدارس الابتدائية لغتهم وتاريخهم  
وشرطاً كبيراً من علم الأخلاق والكتب موحدة وترمى إلى حثهم على التضحية  
والولاء للدولة ، والتعليم الابتدائى اجبارى للذكور والانات ومدة ست سنين ،  
ويليه التعليم المتوسط لمدة خمس سنين ويحكى المدارس الثانوية عندنا وهو مجاني  
هنا أيضاً على أنه غير اجبارى ، وعند الالتحاق بتلك المدارس يجب على الطالب  
أداء امتحان مسابقة ، لأن تلك المدارس لا تسع سوى ١٠٪ ممن أتموا التعليم

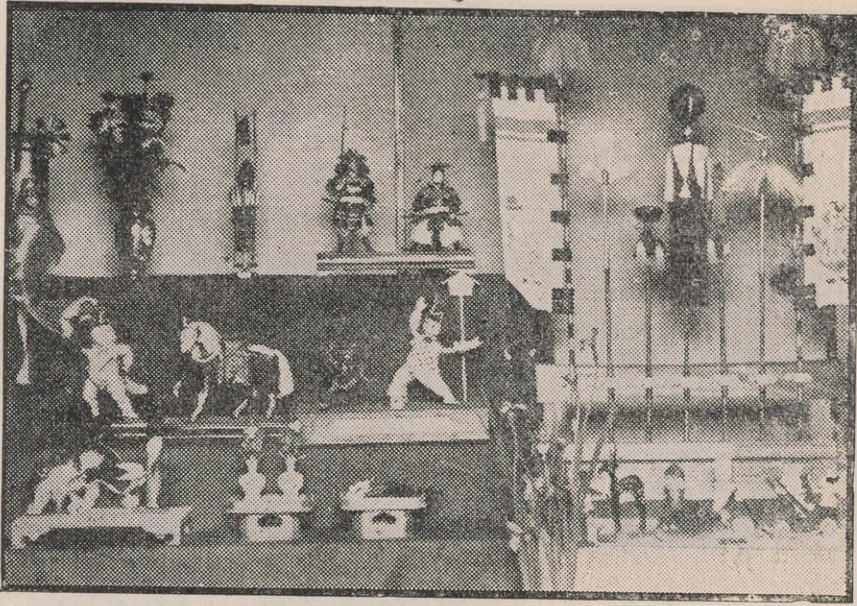




( شكل ٧٧ ) عيد الفتيات يجتمعن فيه حول الدمي الكثيرة ويقدمن  
مختلف الطعام والشراب

الابتدائي وهنا يبدأ تعليم اللغة الانجليزية ، وبلى التعليم المتوسط التعليم العالي لمدة أربع سنين ، ومن أراد دخول الجامعة اقتصر في فرع آخر من المدارس العليا على ثلاث سنين ، وفي الجامعة يظل ثلاث سنين أو أربعاً . وبذلك لا ينتهي الطالب من دراسته إلا في سن السادسة والعشرين على الأقل ، ولعل سبب طول مدة الدراسة هكذا راجع إلى أنه يتلقى نوعين من الثقافة : اليابانية والغربية ، وكذلك قد تكون صعوبة اللغة اليابانية من الأسباب فانها تؤخر الطالب نحو ثلاث سنين ، ومن مزايا نظام التعليم في اليابان أنه يقوم على امتحانات المسابقة فالكفاءة هي الشفيق الوحيد في دخول المدارس وليست الجاه والمال ( كما هي الحال في إنجلترا مثلاً ) والطالب يجد نفسه في التحضير لتلك الاختبارات من جهة ، ولدروسه المدرسية من جهة أخرى ، مما أثر في حالته الصحية ، والتدريس هناك يقوم على المحاضرات في المدارس العليا كلها ، وعدد الفرق كبير جداً ودروس الأسبوع ٣٥ مما لم يترك للطالب وقتاً كافياً للاطلاع فاعتمد على المدرس وما يلقيه إياه ، وفقد جانباً كبيراً من قوة الابتكار رغم ما أوتي

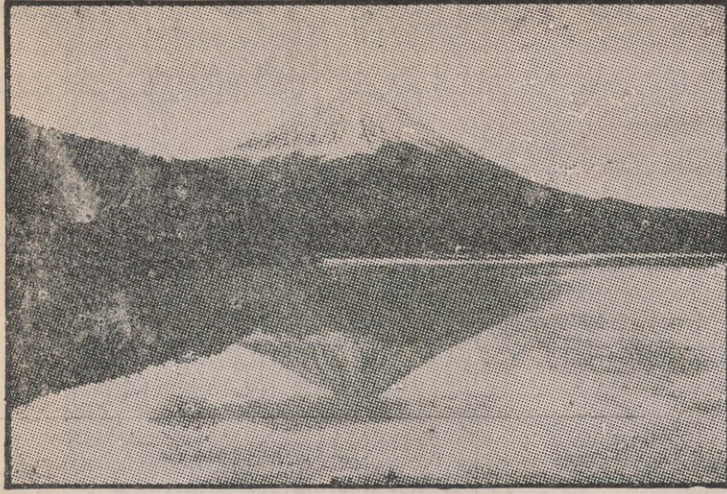




( شكل ٧٨ ) عيد الصبية وتعرض فيه الحراب والدروع والخيول ولأجناد

الياباني من توقد في القريحة وفرط في الذكاء يفوق أقرانه في سائر الشعوب  
ويلفت النظر ما للرأى العام بين الطلبة من الأثر على المدرس فان لم يرق الطلبة  
تقدوه علناً وطالبوا بتغييره ، ويغلب أن يحجب طلبهم ، ولا يعد المدرس ناجحاً إلا  
إذا استمال طلبته إليه ، ولهذا أثره السيء في تغافلهم عن التعمق في الدرس وهم  
يحاولون أن يظهروا بمظهر العلماء ، وفي هذا ما فيه من الغرور الأجوف الذي زاده  
احترام أهل تلك البلاد للرقى العقلي والثقافة أكثر مما يلاحظ ذلك في بلاد الغرب  
التي لا تعطى للمتعلم ذاك الاحترام الكبير ، لذلك يحاول المتعلمون طلاء أساليبهم في  
إغراب كبير ، وقد يدخلون بعض الكلمات الأجنبية زيادة في التتميق وحباً في  
الظهور ، حدث مرة أن قام وزير يخطب في دعاية دينية فلما انتهى من كلمته في  
لغتها المتكلفة التفت أحد الحاضرين إلى جاره وقال : أنا لا أفهم الإنجليزية !  
كذلك حدث لما زار اينشتين اليابان وحاضرهم في موضوع النسبية أن كان  
يستمع له أستاذ ألماني وتلميذه ياباني تلقى عليه الألمانية لمدة نصف عام فلما انتهت  
المحاضرة قال الطالب لأستاذه : أنا أفهم كل شيء بالألمانية ولم تكن بنا حاجة





إلى هذا المترجم  
فقال له أستاذة:  
إذن فأنت أقدر  
منى فى الألمانية  
لأننى لم أفهم  
من الموضوع  
إلا القليل !

ومنذ عهد

ميجى كان

( شكل ٧٩ ) مخروط فوجى ياما الرائع ينعكس  
على صفحة بحيرة هاكونى

غرض التعليم هناك نقل المدنية المسادية عن الغرب حفظ كيان الدولة ، ولم تعترف  
اليابان بأن حضارتها ونظامها الاجتماعى دون حضارة الغرب مقاماً فكان هم الزعماء  
الوطنيين الجمع بين الاثنين رغم ما بينهما من تنافر ، ففى أوروبا يرمى التعليم إلى  
ترقية عقل الفرد وخلقه بصرف النظر عن قومه وعائلته ، اسكن اليابانى خاضع للأسرة  
وللدولة بحكم نظامه الاجتماعى لذلك كان الغرض من تعليمه خدمة السياسة القومية  
ومن ثم نجح التعليم هناك فى تخريج طائفة قديرة من رجال الإدارة والجند ورجال  
الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، وبفضل هؤلاء بلغت البلاد هذا المستوى  
من الرقى . أما النابهون المبرزون العباقرة فيندر وجودهم هناك .

على أن التغير بدأ يسود طوائف الطلبة منذ الحرب الكبرى فقد تدفقت  
عناصر الحضارة الغربية تلك التى قوت روح النقد لتصرفات القدماء وأصبح  
موقف الشبان هناك شبيهاً بموقف شباب إيطاليا عهد النهضة حين ثملوا بخرم  
مادامهم من حضارة الغرب خصوصاً فى الفن والموسيقى والنظام الاجتماعى والسياسى  
فبعد أن كان يلحق الطاعة للآباء والولاء للدولة والخضوع لتعليم الدين الشنتوى  
أخذ يدرس فى الجامعات الحرية الشخصية والحكومات النيابية مما يشيره على النظم



القديمة قتراه اليوم حائراً أى السبيلين يسلك مما أضعف إيمانه فلم يرم لغرض واحد ذلك الذى كان خير كفيل بتقدم اليابان الأخير ، وقد أحس بافتقاره لوسائل التسلية التى يتمتع بها نظيره الغربى ، وكذلك أحس بضيق فـسحة الفراغ التى تساعد الاطلاع والبحث .

ولا يزال ينقد الأجانب نظام المدارس لكبر الفصول وحدثة عهد المدرسين ذاك الذى لا يوجد التعارف الشخصى بين المدرس وطلبتة ويزيل النأب الظاهر ويحل الحب المتبادل والإخلاص محله ، ولا يزال المدرس الذى يمتزج بالطلبة عرضة للإهانة هناك ، وقد أخذ الآباء يهتمون النشء بنقص فى الوطنية يبدو جلياً فى نفورهم من التجنيد ، وأوضح ما يظهر ذلك فى كراهية الطلبة للضابط الذى يخصص لتعليم الطلبة النظم العسكرية فى جميع الكليات ، على أن الفرنسيين عموماً والإنجليز خصوصاً يرون أن نظام التعليم اليابانى على ما به من عبوب أفضل من نظمهم لأنه يسوى بين الطبقات جميعها فلا يفضل طالب لجاهه أو ثروته بل لكفاءته مما ساعد الحب المتبادل بين أفراد جميع الطبقات . فكان لذلك أثره القومى الجليل .

**الى كيوتو :** (ومعناها عاصمة العواصم) : أخذت القطار السريع فوصلتها فى عشر ساعات ، أسست سنة ٧٩٤ وظلت عاصمة البلاد إلى ١٨٦٩ حين انتقلت إلى طوكيو (العاصمة الشرقية) وهى تقع وسط سهل تحوطه الربى من جوانب ثلاثة ، وقد كانت ولا تزال مقر الحضارة والفنون اليابانية البحتة ، وتكاد تعد خير المدن اليابانية التى لم تمسها يد التجديد قط فغالبا مبانيها خشبية واطمة كسائر القرى اليابانية أثاثها قليل تفادياً من أخطار الزلازل التى يباع متوسط هزاتها الشديدة ثلاثاً فى كل يوم حتى أثر ذلك على مجارى صرف المياه والأوضار فأفسدت رائحة بلادهم وحقوقهم حتى اتهمهم الأجانب بضعف حاسة الشم ، والعجيب أن





( شكل ٨٠ ) حفلة الشاي المنزلية وما يحوطها من مراسم

البحث الطبي أثبت ضعف الشم والسمع والبصر في المتوسط هناك ولعل للمناخ أثراً في هذا . وحدائق البيوت نسقت على النمط الياباني . والحديقة اليابانية نموذج مصغر لما يحوطهم من مناظر طبيعية فرغم صغرها توهم بوجود الجبال والبحيرات وقد يخيل للمرء أنه يرى شلالات على بعد رغم عدم وجود المياه ، وقد يعبر المرء صخرة أو قنطرة صغيرة تشعر بنهر وتري بقاعاً مهملة عليها الحصى والرمل كأنه جزء من شاطئ بحر ، وكثيراً ما يقلد البستاني منطقة طبيعية معينة ، وتقع حدائق البيوت غالباً خلفها تطل عليها الحجرات الهامة لأن الحديقة مابجأ العائلة في سرورها وراحتها وتعبدها ففيها نوع من العزلة والحجاب وقد تكون الحديقة جبلية نقلاً عن منحدرات الجبال وقد تكون مبسوطة نقلاً عن مرج أو وادي ، وبحيرات الحديقة يجب أن تشعر بمخر صغير بسواحلها الرملية الخشنة وصخورها المنثورة





( شكل ٨١ ) الفتيات يقطعن أوراق الشاي الأخضر في مزارعه  
الشاسعة في اليابان

وسطها ، ولا تخلو الحديقة من العيون الدافقة ، ولكي توحى بالجمال الطبيعي وجب أن تقام المصاييح من الحجر لتتمشى مع الصخور والأشجار ، وقد كان الغرض منها الاضاءة وازاحت اليوم للزينة ، ويراعى في ترتيب الشجر والنبت الاندماج وعدم التماثل مع الجمال الفتان ، وينتقى نحو أربعة أخماس الشجر من دائم الخضرة أما النفضى فقليل ومن ذوات الألوان التي تشعر بالدفء في الربيع والخريف ، ولا تخلو حديقة من شجرتي البرقوق والكريز ذوات الزهور الساحرة أما الشجر المزهر فلا حصر له ولا بد أن تبعثر الأشجار المزهرة خلف الدائمة الخضرة لكيلا يخلو الزهر من الخضرة حوله ، ولكيلا تشعر بعض فصول السنة بشيء من الجذب والخفاف ، ولا يكاد يخلو المساء من شجر السوسن والبنفسج . ذلك نموذج من حدائقهم التي تحكى الطبيعة ، زرت بعضها في الميادين وأخرى في البيوت ، وهناك جلست في مقصورة الشاي التي يغلب أن تقام في كل بيت ومن تحتنا الحشيات ( الشلت ) من الحرير البراق ، وللشاي عندهم غرام عجيب يقدمونه في أوانهم الثينة من الخشب المزركش بالذهب ( واللاكيه ) والفتيات يقدمن





( شكل ٨٢ )

الكؤوس ونحن نقدم لمن  
كؤوسهن مجاملة وأدبا ،  
ويقيمون له حفلات في مواسم  
خاصة ويعتقدون أنه من  
أكبر العوامل على تعليم القوم  
أدب الاجتماع وهو الذي نهض  
بكثير من صناعاتهم الدقيقة  
كالتهوير واللاكيه والخزف  
وتنسيق الحدائق وتتميق  
الزهور ، وقد أصبحت أواني  
الشاي لديهم من النفائس ،  
وقد نقلوا ذلك عن الصين  
منذ القرن السابع ، وكان  
شرب الشاي إذ ذاك قاصراً

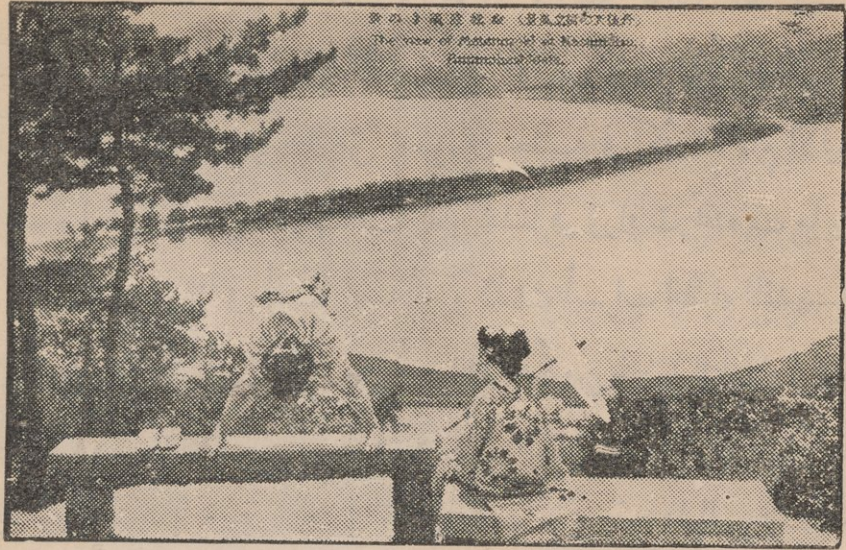
على القسس ثم انتشر بين  
متنزه ماروياما في كيوتو وهو مثل من الحدائق اليابانية  
الخاصة ، وكان يشرب مسحوقاً كالبن ، وقيل إن الموسيقى كانت تعزف عند سماع  
صوته وهو يسحق احتراماً له وشاع بينهم أن شربه يطيل العمر ، وقد كشف  
الأستاذ سوزوكي سنة ١٩٢٥ أن الشاي الأخضر الياباني يحتوي على مقدار من  
الفيتامين ( ج ) أكبر مما في الفاكهة والخضر وهو ينشط الأعصاب ، لذلك يستهلك  
القوم ثلاثة أرباع ما يزرعون وهو مائة مليون رطل ، وأول ما نقله الأوروبيون  
عنهم سنة ١٥٦٥ بواسطة ( المايدا ) البرتغالي ويقصون أن بعض عظمائهم  
مد سماً طاً للشاي بلغ ثلاثة أميال تكسوه الآنية الثمينة الفاخرة وحضره ٣٦٠  
من المدعويين في كيوتو وعن هذا النظام نقله الفرنسيون



ومن المتنزهات ذائعة الصيت في كيوتو (ماروياما) قضيت في جناحه طويلاً ثم عرجت على زيارة معبده الكبير ، وأعجب ما هنالك نار يقوم الجميع على إشعالها أبداً ومنها يأخذ الناس قبساً في خيوط يبتاعونها من القسس ويذهبون مسرعين إلى بيوتهم لاشعال نار مستهل السنة كي تظل بركة النور المقدس تحل في البيت وتستطيع أرواح الأجداد زيارته ، وبعد أن جبت كثيراً من المعابد عرجت على القصر الامبراطوري بأسواره الممتدة يحوطها الخندق ، وهنا يتوج الامبراطور إلى اليوم في حفل كبير ، وبعده دخلت المتحف ولعله أكبر متاحف اليابان لكثرة معروضاته من مخلفات اليابان القديمة على أنها في نظري لا تشعر بماض مجيد ، وقد تناولت العشاء في فندق يقوم في بناء فاخر من خمسة طوابق شاهقة ويطل على النهر وكل طابق مقهى أعد على نظام يغير الذي يليه في التنسيق ، وفي نوع الطعام والشراب ، وفي الألوان والأضواء فتخيرت أعلاها لأن منظر المدينة من دونه بأضوائها الخاطفة ساحر لا أنسى روعته .

**أمانوهاشيداتي :** (أعني الجسر السماوي) إحدى آيات الطبيعة الثلاث في اليابان وهي مياجيا جزيرة المعبد وماتسوشيا أو جزائر الصنوبر وعددها ٩٠٨ تكسوها الأشجار اليابانية وهاشيداتي وهدة تتغلغل في جوانبها أجوان البحر الشمالى وتنتثر جزائره الصغيرة ، وصلتها في ست ساعات خلال طرقت متلوية وفيرة النبات والغدران والشلالات شأن كل أرجاء اليابان ، وهنا يظهر جلياً أن الطبيعة جادت على اليابان بجمال وتنسيق بخات به على سائر بلاد الدنيا . فكأن اليابان آية ما أبدعته يد الطبيعة فأينما سرت تباغتك الطبيعة بسحرها الخلاب ، وقد سميت بالجسر السماوي لأن هناك جسراً نحيلاً طوله ميلان وعرضه يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ متراً يشق الماء وتكسوه أشجار الصنوبر ، تسلقت في أحد طرفيه ربوة بواسطة ترام كهربائي هوائى على قممها معبد ومن حافة الربوة وقفت كسائر الحجاج وظهرى للماء والجسر وانحنيت حتى أوشكت رأسى أن تدخل بين فخذى وهنا دهشت لأنى





(شكل ٨٣) الجسر السماوى ، وترى الأنسة قد أطلت من بين ثغريها لترى الجسر وكأنه القنطرة

رأيت بركة الماء من دونى وقد انعكس عليها صفاء السماء فبدت هى سماء لألاءة ، والجسر كأنه القنطرة النحيلة قد بدت فوق لجتها .

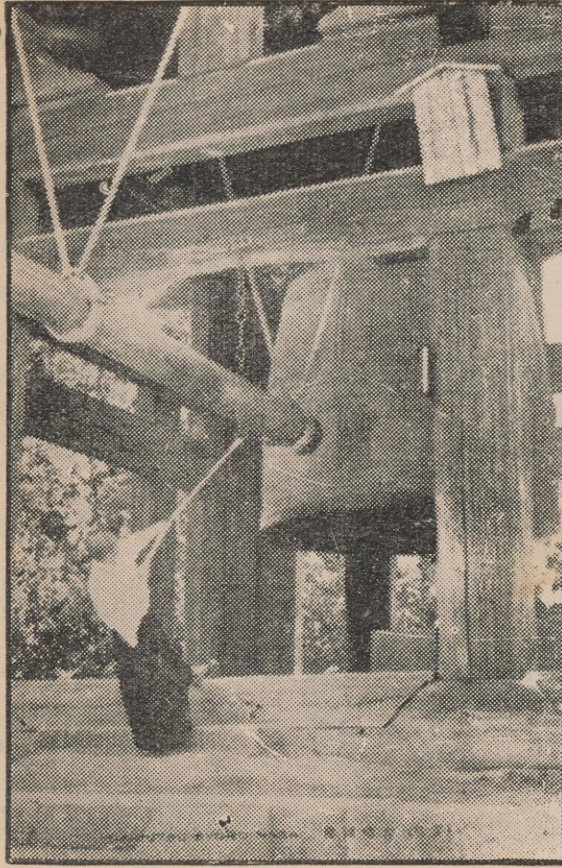
الى نارا : وهى إحدى العواصم القديمة التى ظلت زهاء ثلاثة أرباع القرن حاضرة اليابان قبيل كيوتو ، بدت على كبرها كأنها متنزه واحد وسط غابة ممدودة تتخللها المساكن ، والمعابد ، والمقهى ، يؤمها الحجاج فى زراقات ، وتراهم منكبين على تناول المرطبات ، وبخاصة ( الثلج المبشور ) فى غير طعام ولا شراب ، ويظهر أنه أحب المرطبات لديهم ، لأنى كنت ألاحظه أينما حللت ، ويأليه : أيسوكوريمو ( جيلاتى ) الذى يلتهمه الجميع بشه زائد ، ولعل شهرة نارا اليوم فى معابدها وأجلها : تمثال بودا النحاسى ، وهو أكبر تماثيل اليابان طراً ، وإن أعوزه الجمال والفن عن تمثال ( كاماكورا ) يعلو فى الجو ٥٣ قدما ، ويزن خمسمائة طن ، وفى معبد آخر ناقوس ضخيم زنته أربعون طناً ، وهو أكبر نواقيس اليابان ، يدقه المتعبد ساعة أن ياتى نقوده أو قرابينه للآلهة ليوقظها فترعاه وتكلاه ( ٩ - آسيا )



ولصوته المزعج الرهيب دوى ترده الربى طويلاً ، وأبنية المعابد كلها من خشب ضخم تكسوها السقوف المتحدرة ، تتقوس أطرافها إلى السماء دفعا لغوائل الجن ، وترى آثار بودا الذى يوصى بالرفق بالحيوان جلية فى كثرة الحمام الأليف ، يبتاع له القوم الحب المقدس ، فيتهافت الطير علينا فى زرافات تختطف ما بأيدينا منه وما بأفواهنا وجيوبنا فى ألفة عجيبة ، وكذلك أسراب الضباء المقدسة التى تمرح فى أرجاء الغابة كلها ، نبتاع من أجلها أقراصاً من خبز (البازلاء) المقدد ، فتلتف حولنا ، وتلتهم الخبز من أيدينا فى هدوء واطمئنان ، وعند الأصيل يضرب الرجل بناعورته فتند إليه من أقاصى الغابة ليطلعها ، ثم يقودها إلى حيث تنام ، ومجموعها اليوم سبعة ، وفى شهر أكتوبر من كل عام تقص قرونها كيلا يؤذى بعضها البعض . وفى أقاصيصهم أن أحد الآلهة أتى هذا المكان متطياً ظمياً ليتعبد فى معبد نارا الكبير ، ودعا إليه الإلهين جاءاه على متون الغزلان ، فأصبحت الغزلان لذلك مقدسة إلى اليوم .

الى يامادا ايسى : وصلتها فى أربع ساعات وهى مقر دينى ومنتزه بديع ، وفى طريقى إليها عرجت على قرية (توبا) وبها صخرة فوتامى أورا المقدسة وهى من حجرين وسط الماء تشرق الشمس من بينهما فى مشهد جميل ، ويحج الناس إليها لزعهم أن إحدى الآلهة جلست فوقها وكانت تستقبل شمس الصباح ، لذلك تعلوها بوابة صغيرة مقدسة ، وفى يامادا زرنا معبدين رائعين يعتقد القوم أن أرواح البراطرة تحمل فيها ، لذلك ترى العناية بهما فائقة فى النظافة والتنسيق ، ولا بد من هدمهما وإعادة تجديدهما كل عشرين عاماً ، وفى المداخل كلها يقف ضباط البوليس فى خشوع كأنهم يصدعون بأمر أرواح البراطرة ، والامبراطور نفسه والأمرء يزورون المكان لإبلاغ وحى أجدادهم كل أمر جل أو صغر ، فعندما ولدت للامبراطور بنته الأخيرة ذهب فأبلغ الأمر لروح أجداده ، كذلك لما عاد أخ الامبراطور تا كاماتسو وزوجته من رحلتها حول العالم ذهباً توأ إلى المعبد





( شكل ٨٤ ) أكبر نواقيس اليابان يدهقه المتعبد  
إيقاظاً للآلهة

وأعلننا الأجداد بحضورها ،  
والمعابد هناك كلها شنتوية ،  
لذلك خلت من التماثيل فليس  
بها سوى البوابات الفخمة في  
غير تقوس ( كما هي حال  
البودية ) ، والمقاصير العديدة  
التي تسكاد تخلو من الأثاث ،  
وفي الهيكل يتدلى ستار  
أبيض من خلفه مرآة تمثل  
روح الله ، ويسجد القوم  
أمامها في خشوع ، ولا  
تكشف المرأة إلا ثلاث  
مرات في العام في مناسبات  
دينية كبيرة ، ويكثر أن

يعلق القوم حول المعابد قصاصات من ورق ، وقيل إن السبب اتفاق كلمة ورق  
باليابانية مع اسم للآلهة ، وطالما كنت أرى دمية من قش دقتها إلى شجرة المعبد  
زوجة هجرها زوجها وهي تعتقد أنها كلما كثرت من دق المسامير فيها أتصت  
الآلهة من عمر زوجها الخائن ، وهي تعد المعبد أن تقتاع كل ذلك بعد موت  
زوجها ، لأن في بقائها جرحاً للشجرة المقدسة ، ومضايقة للآلهة ، وأمثال تلك  
الخرافات تعزى إلى قسوة عوامل الطبيعة ، تلك التي توحى بالأوهام ، وخشية  
القوى الخفية ، والجن ، ولذلك كثر السحرة والعرافون بينهم ، على أن الطبيعة  
رغم ذلك هدأت طباعهم بجمالها الفتان ، فعقائد اليابانيين كانت تبدو في نظري  
ساذجة بسيطة مبناها الخرافات التي يتمسك بها القوم جميعاً في عصبية لا تتفق



وتقدمهم العصري المدهش ، وكنت كلما ناقشتهم لم يستطيعوا الإقناع بل أحوالوا الأمر إلى تقاليدهم التي يجب عليهم تقديسها . وكان البوذيون وهم عامة الشعب يقولون بأن بودا هو الله كان إنساناً في الأرض ثم صفت نفسه وصعد إلى السماء وهم يؤمنون بالبعث والجنة والجحيم ، على عكس الشنتويين الذين يمثلون الطبقة الممتازة ، فهم يرون أن الموت النهاية الطبيعية للحياة لا بعث بعدها ، ويعتقدون أن الله روح عليا في سماء اليابان فحسب ، وأفراد الديانتين يقدسون الأجداد ، ويرون أن أجداد الامبراطور من سلالة الآلهة ، ولست أعرف في العالم المتحضر اليوم ديانة تسود أذهان ذويها في العقيدة والقومية معاً وتوحد بين الروح الديني والزماني مثل الدين اليهودي ، لذلك شمر أهلهم بالتعصب فشتوا وبغضهم الجميع ، ولعل اليابانيين اليوم كذلك ؛ فالدين الشنتوي لديهم هو رباط الوطنية ، غالب الزمن والمبشرين جميعاً وظل كما هو ، فهو ليس عقيدة فحسب ، بل رباط قومي قوى يؤثر على الياباني في جميع نواحيه ، وهو في لبابه عبادة الطبيعة ، ورغم أنك لا ترى مظهراً للتعصب فإن العقيدة راسخة دعمت قوميتهم إذ كانت أساس الطاعة والوطنية وملتقى فضائلهم من الشجاعة والتأدب وشرف النفس ، فروح الشنتوية : التقوى ، والطاعة البنوية ، وتضحية النفس في سبيل المبدأ في غير تردد ولا مناقشة ، فقد أضحي الدين حافزاً خلقياً متوارثاً ، وهو من أكبر العوامل في التوحيد بين الناس والتأليف بين قلوبهم ، فليس فيه ما يدعو للجدل والنزاع كما نرى بين مذاهب الديانات الأخرى ، والشنتوية لا تعتمد على عقيدة معينة ، ولا كتاب مقدس ، ولا معبود خاص ، ولا شعائر محددة ، حتى ولا رجاء في الآخرة ، لذلك لم تقع بينهم حروب دينية قط ؛ وأخص ما ترمى إليه الشنتوية عبادة الطبيعة ، واحترام الموتى والآباء ، وهنا سر إخلاصهم لبلادهم ، فالطبيعة هناك جديرة بالعبادة في اختلاف مناخها ومناظرها الساحرة وثمارها الوفيرة ، لذلك أقيمت البوابات المقدسة حيثما تفيض الطبيعة بروعتها ، ولو أن





( شكل ٨٥ ) الغزلان المقدسة تأكل أقراس البازلاء  
من أيدينا

في البلاد كثيراً من  
البوذيين إلا أنهم لم  
ينزعوا من قلوبهم  
الشتوية إذ عرف  
الجميع معناها في الوطنية  
والإخلاص لبلائهم ،  
لذلك لا يقوم خصام  
بين الشتوية والبودية  
فترى المعبدين  
متجاورين ، وقد  
يكون القسيس مشتركاً  
بين المعبدين ، وكل  
القواعد التي شذ فيها  
الدين البوذي عن

الشتوية مهمة غير مرعية من الجميع ، فالبودية تعاون على نشر روح التشاؤم ،  
ورغم ذلك فانك ترى التفاؤل والانتعاش النفسى هو السائد بين الشعوب اليابانية  
على عكس أهل الصين . ويحض بودا على السلام والوثام والدعة ، لكنك ترى  
اليابانى من أشد المحاربين مراساً ، فالبودية عندهم سطحية ، رغم ما يبدو من  
إسراف في تشييد معابدها ، وكثيراً ما كنت أرى الرجل الواحد يؤدى الصلاة  
بالركوع في معبدتين متجاورين أحدهما شنتوى والآخر بودى .

وإذا مات أحدهم أقبل أصحاب الفقيد يقدمون بعض الهدايا من كعك  
ونقود وطعام وزهور ، وفي اليوم التالى يحضر القسيس ويضع الجثة في حوض  
تحفه الزهور العبقة ثم تلف في قماش أبيض ثم يحمله قوم في أردية بيضاء ينقدمهم



بعض المرتلين ومن ورائهم المشيعون ، وإذا ما وصلوا المعبد وضعت الجثة على  
الحراب وقرأ القوم بعض الآيات وأخذ يمر المشيعون أمامها فرادى وهم يركعون ،  
ويلقون ببعض البخور في كور متقد ، ثم توضع الجثة في التنور حتى تصير رماداً  
تحت مراقبة المشيعين ، وهم خلال ذلك يأكلون ويشربون ويتحدثون عن  
فضائل النقيذ ، وكلما تم الاحتراق عاجلاً كان ذلك مدعاة للتهنئة ، منظر رائع  
لا محالة ، لكنا إذا علمنا أن عقيدة الياباني في الموت أنه الهاية الطبيعية للحياة ،  
لا يعقبها ثواب ولا عقاب زال العجب ، وكثير منهم يحمل ما تخاف من رماد في  
زجاجة تدفن في مدافن الأسرة ويقام عليها شاخص باسمه ، وقد تدفن الجثة بغير  
حرق ، وإذا كانت المتوفاة آنسة قص شعرها وحفظ في البيت تذكاراً لنوياً .

✶ الى أوزاكا : قنا بقطار الكهرباء ذاك الذي يكاد يشق جميع بلاد اليابان  
مما يدل على أنهم استغلوا منحدرات مياههم الكبيرة استغلالاً جعلهم في مقدمة  
بلاد الدنيا استفادة بالكهرباء ، وترى غالب الخطوط الحديدية مزدحمة بين أمهات  
المدن ، سكة البخار إلى جوار سكة الكهرباء ، أما بلاد الريف فيغلب أن تتصل  
بالسكة الكهربية .

ويلفت نظر السائح هناك أن كثيراً من القاطرات خصوصاً الريفية ذات  
مقاعد جانبية يجلس عليها القوم القرفصاء يواجه بعضهم بعضاً لأنهم يكرهون الجلوسة  
وأرجلهم مدلاة إلى الأرض مثلنا ، ويقال أن السبب قصر قاماتهم التي تجعل  
أرجلهم معلقة مما يؤلمهم كثيراً .

دخلنا أوزاكا في أقل من ساعة فبدت غاصة بالحركة مكتظة بالسكان لأنها  
أغنى المناطق الصناعية ، وبخاصة النسيج حتى أطلقوا عليها اسم منشستر اليابان ،  
وهي أكتف المدن سكاناً ، لذلك لا تروق السائح كثيراً ، وأجمل مسالكها  
شارع (دوتومبى) التجارى قليل الاتساع ، عظيم الامتداد ، أضواء في الليل  
تبهر النظر بأشكالها اليابانية المكورة عديدة الألوان ، تتخللها الاعلانات والأسماء





( شكل ٨٦ ) صخرتا فوتاي أورا المقدستان تشرق الشمس من بينهما

باللغة اليابانية في حجم كبير ، وسيل الجماهير يثير الدهشة فهو لا يكاد يسمح بالمرور إلا والأكتاف متلاصقة ، وأجل ما بدا منظر ذلك السيل الآدمي من قنطرة نهر أوزاكا التي تشرف على الشارع من وسطه ، وترى زوارق الرياضة في النهر وقد علقت بها مصابيح النور الملون إلى مد البصر ، ويتقاطع مع ذلك الشارع آخر للملاهي والمراقص في أضوائه الخاطفة وزخرفته وأثاثه الياباني العجيب ، آيت ليأتي إلى نزل ياباني صميم ، وما أن حلت بهو النزل حتى رأيت حواجز الخشب والورق تزلق من حولي ، وفي لحظة حُصرت في غرفة ضيقة وأحاطني القوم بأدبهم الجم وكرمهم المعروف ، وبعد أن قدموا إلى شاي الاستقبال والتقطيلة ( الفوطة ) المعقمة عرضوا على الحمام فرفضته — ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين — ثم أقبل رب النزل يسأني : أتريد جيشات ؟ وتلك طبقة من السميرات المحترفات لها مدارس خاصة في سائر بلاد اليابان فيها يتعلم الفتيات وسائل السمر وأيناس الأضياف بما في ذلك الغناء والعزف على الشامسين والكوتو ولا يخلو منهن مجلس قط ، ويحتقر



اليابانيون جميع الأوربيين الذين يصادقون الفتيات ويغازلونهن على قارعة الطريق  
وحقاً لم ألاحظ شيئاً من هذا في الطريق قط رغم اختلاط الجنسين عكس ما كنت  
ألاحظه في جميع بلاد أوربا إذ ليس للشبان هناك من عمل يقتلون به فراغهم سوى  
المغازلة للفتيات على قارعة الطريق . أما اليابانيون ففي ظنهم أن الرجال أكبر مقاماً  
من النساء ، لذلك لا يصح التريض معهن على قدم المساواة ، وهم لا يرون رأى  
الأوربيين في أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها لذلك كثيراً ما كنت أرى  
جماعات النساء يقصدن إلى الرياضة في غير صحبة الرجال ، أما الرجال فيغلب في  
رحلاتهم أن يستحضروا الجيشتات السميرات ، وكثيراً ما ترى حلقة من الرجال  
يجلسون القرفصاء إلى جانب غدير أو شجرة مزهرة يشربون الساكي ، وفي  
وسطهم السميرة ترقص لهم وتغني ، وترى بعض المارة ينضم إليهم ، ويندر أن  
يخاصرها في الرقص رجل لأنهم يستنكرون رقص النساء مع الرجال على النظام  
الأوربي ، وفي الحفلات والولائم لا بد من وعود الجيشتات وأجورهن غالية بين  
جنهيه وثلاثة جنيهات في اليوم ، وكلما أقيم معرض أو انعقد مجلس في إحدى المدن  
الكبرى كثر الطالب عليهن جداً ، ومن بينهن الممتازات بأسمائهن مثل  
( كوهاروسان ورين جوسان ) وكلما علا صيتهن دل ذلك على زيادة في إكرام  
الضيف ، ويقدم الأشراف لأمثال هؤلاء هدايا قيمة من ذلك ماسة قيمتها ٨٥٠  
جنيه قدمها نبيل للجيشا ( ساكا كوسان ) فامتدحت الجرائد كلها تلك السميرة  
وأطرت المدرسة التي أنجبت مثل هذه الجيشا التي أصبحت من الشخصيات الممتازة  
في طوكيو ، وفي الولائم الرسمية يجلس الجيشتات أمام الجمع ركعاً وتلأن أكواب  
الساكي كلما فرغت ، وبين آونة وأخرى يلعبن دوراً موسيقياً ، وبعد نهاية الطعام  
يقمن بالألعاب بـمـيطة مع الرجال ، أما في الحفلات الخاصة العائلية فيرفع التكليف  
ويعتزج الجميع امتزاجاً تاماً . ويجب على الضيف أن يملأ كأسه بيده بين حين وآخر  
ويقدمها للجيشا ، وتظل شاخصة أمامه حتى يفعل ذلك ، وكثيراً ما يغفل الضيفان





( شكل ٨٧ ) اليابانيون شديداً التمسك بدينهم  
لكنهم بعيدون عن التعصب ، والكل يركع  
أمام المعبد حتى الأطفال

ذلك فيظل الفتيات مكانهن  
في مضايقة شديدة ويرمى  
الضيف عندئذ بقلة الذوق ،  
وعلى الضيف أن يأتي على  
زجاجة الساكي بأكملها كي  
تملاً ثانية وألا عد ذلك  
شؤماً على المكان ، وليس  
لأحد أن يطيل النظر للسميرة  
التي تجانب زملاءه إذ يجب  
أن يلاطف السميرة الخاصة  
به ، ويغلب أن تكون أشهر  
الجميع لأن أدبهم يقضى بأن  
يخص الضيف بأكبر المزايا  
على أنه لا يشترط أن  
تكون أشهر السميرات  
أجملهن وجهاً بل أذكاهن

وأقدرهن على التسلية ، ولا يكاد يخلو مطعم أو مقهى من الجيشت وأكثر  
ما يعنون به من التزين الملابس ( الكيمونو ) وتنظيم الشعر وطلاء الوجه بالحناءات  
البيضاء ، أما الحلى من أقراط وعقود وسوار وخواتيم فلا تجد من ذوقهن قبولاً ،  
ورشاقة الفتيات بالغة رغم ما يعوزهن من جمال ، إذ لا تزيد نسبة الجميلات على  
خمس فتيات اليابان جميعاً في سن النضارة ، وهي ما بين الثالثة عشرة والتاسعة  
عشرة ، وبعدها يبدو الهرم عليهن عاجلاً كالنصرات والايطاليات ، وسائر  
فتيات البلاد التي يقصر فيها أمد الشفق ، إذ لوحظ أن جمال السيدات يظل

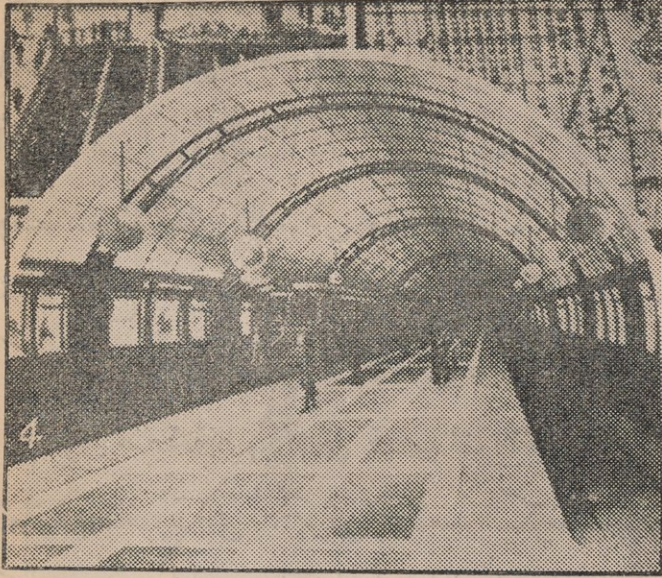


طويلاً كلما طال زمن الشفق .

وأمر النساء في اليابان يثير الدهشة والنقد من عدة وجوه : فانهم يبيعون للفتيات — ما دمن غير متزوجات — كامل الحرية في التريض والمصادقة ، وقد ناقشت بعضهم فكان منطقهم أن العزوبة أمر غير طبيعي ، فان لم يكن للفتاة زوج فخليل ، وهم لا يعتدون بالبكارة والعرض اعتدادنا به في الفتيات ، على أنها إذا تزوجت أصبحت مثال الوفاء لزوجها ، والعجيب أنها لا يصح لها أن تظهر الغيرة على زوجها من غيرها ، وكثيراً ما تحاطب زوجها عند أوبته من رحلته قائلة : أرجو أن تكون قد استمتعت ليلتك الفاتنة ، فيقص عليها نبأ ما كان يحوطه من فتيات وجيشات وصويحبات سرين عنه كثيراً .

وأعجب من ذلك وأنكى أنهم يحترمون العاهرة احترامهم للزوجة ، فالأب هو الذى يتخير لها الزوج كما أنه هو الذى يدفع بنته إلى الدعارة إن أعوزه المال ، لأن في عوزه هذا هدماً للعائلة ويجب تلافيه وإلا انهيار ركن قومى يؤثر على كيان الدولة والوطن ، وهم يطلقون على العاهرة اسم (أوجوروسان) أى العاهرة العظيمة ، حدث مرة أن اقترض نجار خمسين جنياً من دار جيشات مقابل ارتهان بنته الجميلة فى سن الحادية عشرة لمدة خمس سنين بعدها يدفع الدين ويتسلم الفتاة ، فأصبحت تلك الفتاة من كبريات الجيشات فأكبرها الجميع . وإذا احتاج الرجل المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها إلى بيت الدعارة فإن هربت ساعده البوليس على إرجاعها إلى بيت الدعارة حتى يتم سداد دينه لأنها ملزمة بذلك قانوناً إذ قبلت الدين عن والدها ! تصرف نراه همجياً وحشياً لكنهم يبررونه بأن واجب الأبناء طاعة الآباء ، والعمل على إنقاذهم من الشدائد لأن فى ذلك معنى الإخلاص للأسرة والدولة التى يضعى فى سبيلها كل شئ ، ويتهافت الشبان على الزواج من أمثال أولسكن إكباراً لهم وتفاخراً بهم ! منطق لا تسيغه عقولنا البتة .





( شكل ٨٨ ) سكة حديد الكهرباء التي تسير  
تحت الأرض في أوزاكا

أضف إلى ذلك أن  
من أخص وسائل إكرام  
الضيف أن يقدم المضيف  
السميرات لضيفه ، وهل  
هذا في زعمهم إلا واجب  
طبيعي ! وقد كانت العادة  
فيما مضى أن يبالغ المضيف  
في إكرام ضيفه فيقدم له  
زوجته ، ولا خطر هناك  
من اختلاط النسل فكاهم

أبناء الامبراطور ابن السماء ، ولم يقلعوا عن تلك العادة القبيحة إلا تفادياً لمرارة  
النقد الأجنبي وأنهم لا يطيقون أن ينقذ بلادهم أحد قط .

تناولت العشاء ورغبت في النوم وسرعان ما تقدم الفتيات إلى وسط الغرفة  
يفرشن لي حشية ( مرتبة ) قصيرة تتناسب مع قاماتهم القصيرة ، وإلى ناحية  
الرأس وسادة من خشب عليها غشاء رقيق من قماش يحشوه القش ، وشدت  
( ناموسية ) خضراء في حجم الغرفة كلها إلى الأركان ، ووضع إلى جانب الفراش  
الشاي الذي يحسن شربه قبل النوم ليظهر الفم ويساعد المضم ثم قدمت المبخرة  
وأشعلت بها فتائل خضراء حلزونية تظل متقدة طوال الليل طرداً للبعوض ،  
على أني لم أطق رأحتة المنفرة ، فمددت جسمي وكانت قدمي تتدليان خائف  
( الفراش ) إلى نصف الساقين ، ورأسي لا تسكاد تستقر على وسادة الخشب  
القاسية التي لا يلد لهم النوم إلا عليها ، فترى الرقبة مشحودة عليها ، والرأس  
يتدلى من طرفها الخارجي غالباً ، ويظهر أن الباعث عليها شدة محافظة السيدات  
على تنسيق شعر الرأس مخافة أن تعبت به الوسائد الأخرى . ويقولون إن نساء



اليابان امتزن بجمال الرقاب المشوقة غير المجددة ، وتلك نتيجة النوم على هذه الوسائد ، ويغلب أن يوضع بجوار الفراش مصباح من ورق ملون ، على أنى لم أنم إلا غرراً ، وكنت أدهش لهم إذ ينامون نوما عميقاً رغم قعقعة أخشاب الغرفة ومصاييحها وطنين البعوض والفراش ، ويكاد يخيل للمرء أن الدار ستتهار أمام شدة الرياح فهي ترتجف أبداً وكأنها الخيام المؤقتة ، إلى ذلك أنى كنت أسمع كل همس يقع في الحجرات الأخرى .

وفي صبيحة اليوم التالى قصدت القصر الامبراطورى القديم وكأنه القلاع العاتية بصخوره التى أذكرتنى بجلاميد الكرنك فى ضخامتها ، على أن مقاصيره كلها تتوج بالخشب فى الخطر اليابانى فى شىء من الضخامة فى غير علو ، ومن حوله خندق كأنه النهر العظيم تخترقه قناطر عدة ، ومن أشهر ما يزار فى أوزاكا ملهى الدمى ( تياترو العرايس ) وهو الوحيد من نوعه فى العالم ويسمى ( بونراكو ) ، وقد كان القسس فى الزمن القديم يستخدمون الدمى واسطة بينهم وبين الآلهة ، ويبلغون الناس رسائل الآلهة على لسانها كى تشعرهم بأنها ليست آدمية مثاهم ، ثم انتقلت فيما بعد إلى الملاحى ، هناك ترى جمعاً من الدمى الكبيرة فى ثالث الحجم الآدمى ، تظهر على المسرح يحركها أناس بمهارة تشعر بأنها أقزام بنى آدم ، فتمثل الدمى رواية كاملة ، وتنظم حركاتها على أنغام الموسيقى ، والعاظفون يتكلمون ويغنون بدل الدمى التى تؤدى الحركات فحسب ، والعجيب أن عيون الدمى وشفاهها وأصابعها تتحرك فى دقة مدهشة ، وكل دمىة يحركها ثلاثة رجل من خلفها يلبسون أردية سوداء ، وتنكس وجوههم بنقاب خفيف ، وهو من أحب الملاحى الشعبية لديهم . وقد قمت بجولة فى الحى الصناعى من المدينة فراعنى ما رأيت من دوى المصانع وعظيم امتدادها ، فهى التى لعبت الدور الهام فى تطور البلاد الصناعى ، ذاك الذى أعده خير مثل نحتديه إن أخلصنا فى نهضتنا الاقتصادية الحاضرة .



## النهوض الصناعي :

خالفت اليابان في نهوضها الصناعي سائر بلاد الدنيا من قبل ، ففي إنجلترا مثلاً كانت التجارة والصناعة خاضعة لقوانين حكومية إلى القرن الثامن عشر حين نهضت الصناعة على أساس الجهود الفردية والمنافسة الحرة ، وتلك تغلبت على ملاك الأراضي ونزعت منهم نفوذهم الحكومي وأصبح تدخل الحكومة في الصناعة أمراً



( شكل ٨٩ ) إحدى السميرات وهي ترقص على الطريقة اليابانية

غير مرغوب فيه ، وعلى ذلك لم تقم الصناعة في إنجلترا على التعاون العام ولا على الإشراف الحكومي ، بل على مجهود الفرد ومزاحمته لغيره ، أما في اليابان فقد قامت الصناعة على كواهل الدولة وذلك لعدم وجود طبقة من أغنياء التجار الذين أمدوا الصناعة الإنجليزية بالمال ، إلى ذلك احتقار طبقة التجار في اليابان عندئذ وقلة خبرتهم بسبب عدم احتكاكهم بالأجانب كثيراً . فبينما نجد النهوض الصناعي في الغرب هو الذي أثر في النظم السياسية ، إذا بالأمر على النقيض من ذلك في اليابان ، حيث كان الانقلاب الصناعي نتيجة مباشرة لتغيير نظام الحكم ؛ فالدولة هي التي فتحت المصانع ولا تزال تديرها ، وهي التي أوفدت الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة في الخارج ، واستقدمت الخبراء من الأجانب



وأنشأت المدارس الحكومية ، وفتحت الغرف التجارية ، ولا تزال تمنحها الإعانات المالية ، كذلك أقامت متاحف الصناعية في كل البلدان ، وهي التي تزود التجار بالمعلومات عن الأسواق الخارجية ، وحتى المصانع التي انتقلت إلى أيدي الأفراد لا تخلو من الرقابة الحكومية ، والحكومة تمون المصانع كلها بالقروض والإعانات المالية ، وتراها تشرف على الهيئات التعاونية التي تفوق الألف والتي تتعاون على تنظيم الانتاج والتصدير وظروف البيع ، ولهذا حق قانوني في فحص صادرات البلاد محافظة على سمعتها الصناعية في الخارج ، ومما ساعد الصناعة في اليابان أنها نجت من مقاومة فئة الممولين الأقدمين الذين تعرضوا في سائر الدول للخسائر الفادحة فناووا الصناعة زمناً ، أما في اليابان فلم توجد تلك الفئة ذلك لضعف مالية الأفراد هناك ، إلى ذلك أن النهوض الصناعي في اليابان جاء في عصر ظهر فيه فضل الانتاج الكبير الذي لا يقوى عليه الفرد بل الجماعات والمتعاونات وشعر الكثير بضرورة معاونة الحكومات وتدخلها في تحديد المزاخمة ، ولا يزال للنظام القديم أنصار يقاومون تدخل الحكومات حتى في إنجلترا نفسها ، أما في اليابان فالأشراف الحكومي منطبق على نظامها الاجتماعية التي تنفذي على الأفراد بالطاعة للأسرة والولاء للدولة فهم جميعاً يؤيدون التعاون بنظرتهم ولا يشقون بالجهود الفردية — رغم ما لهذا من أثر سيء في القعود بقوة الابتكار — فإذا كانت إنجلترا قد ضربت المثل الأعلى للصناعة إبان القرن التاسع عشر فان اليابان هي المثل الأعلى في هذه الأيام .

ولتطور الصناعة في اليابان ثلاثة عصور الأول من بدء عصر ميجي (١٨٦٨) إلى انتصار اليابان على الصين في حرب ١٨٩٤ ، وهذا العصر امتاز بنشاط الدولة العظمى في بناء ما تتطلبه دعائم الصناعة . لذلك مد أول خط حديد سنة ١٨٧٠ ، وفي ١٨٩٤ بلغت السكة الحديدية ٢١١٧ ميلاً ، وفي سنة ١٨٧٢ تأسس أول مصرف (بنك) على النظم الحديثة ، وأعقب ذلك نشر التعليم على أحدث النظم





وبدأت السفن التجارية تبني  
تحت إشراف الحكومة  
ومعاونتها ، وأقيم كثير من  
المصانع سنة ١٨٧٠ للحريز  
والقطن ، والصوف ، والورق  
والزجاج والآلات ، ثم أعقب  
ذلك بناء مراسى السفن  
ومناجم الفحم والنحاس ،  
على أن هذا العصر لم يغير  
شيئاً قط من ميول الشعب  
الزراعية ، وتبدو الحالة  
الاقتصادية جلية في تجارة  
البلاد الخارجية إذ ذاك

حين كانت جل وارداتهم من (شكل ٩٠) مثل من الجيشت سمرات اليابان

المصنوعات خصوصاً المعدنية والمنسوجات — وهذا شبيه بنا الآن — وجل  
الصادرات كانت من الخامات وبخاصة الحرير ذاك الذى كان انتاجه ضعيفاً عهد  
الاقطاع لما أن كان الحرير قاصراً على ملابس الطبقة الحربية والارستقراطية  
وحرّم على غيرهم ، لذلك كانت زراعة القطن أكثر انتشاراً ، وكان ينسجه  
الكل فى بيوتهم ، لكن عقب انقضاء عهد الاقطاع وردت المنسوجات القطنية  
من الخارج رخيصة ، ثم أسست مصانع القطن فى البلاد فزاد الطلب على الخام  
من القطن الأمريكى والهندي والصينى ، ذاك الذى كانت تزرعه تلك البلاد  
بنقطة أقل من زراعته فى اليابان ، وسرعان ما زاد الطلب الأجنبي على الحرير  
اليابانى فأحال الفلاح اليابانى أرضه القطنية إلى أرض للتوت لتغذية دود القز

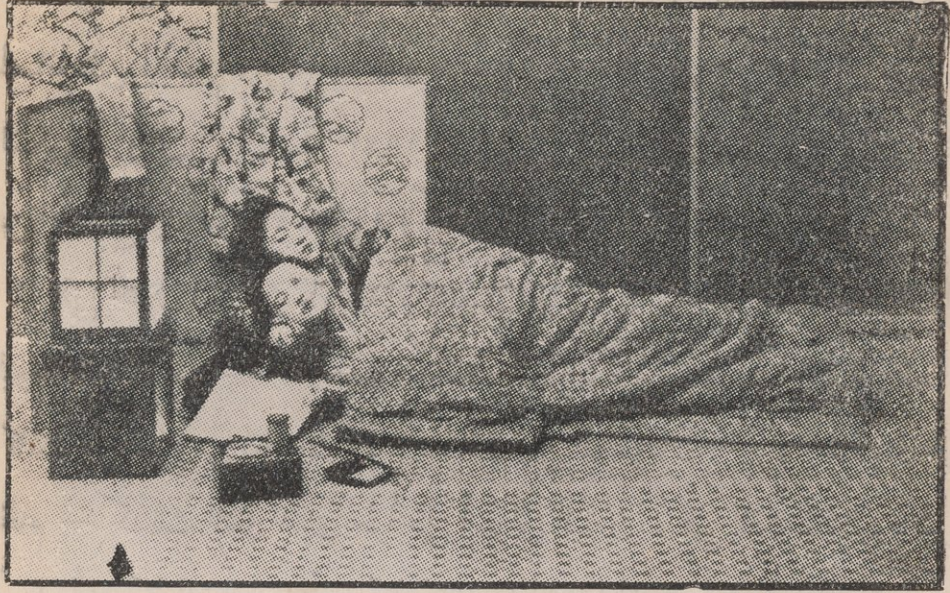


وساعدت رقى انتاج الحرير ملائمة الأرض له ومهارة اليابانيين فى القيام بشئونه المتعبة ، واليوم نرى الحرير الخام أكبر صادرات البلاد ، كما أن القطن الخام من أكبر الواردات ، ويلى الحرير فى الصادرات الشئى والنحاس ومنتجات المصانع الصغيرة .

وعلى أثر حرب الصين زادت خبرة البلاد الصناعية واستطاعت محو القيود الأجنبية على الواردات ، وتلك القيود كانت ترغم اليابان ألا تزيد الضرائب على الواردات على ٥ ٪ ( وتلك الخطوة شبيهة بما اتخذناه فى مصر فى العام الفائت ) ، وقد ساعد هذا النهوض الصناعى هبوط سعر الفضة التى كانت أساس التعامل هناك إلى سنة ١٨٩٧ مما رخص أثمان المنتجات اليابانية فزاد الطلب عليها وتشجعت صناعاتها ، ( هبوط الجنيه فى مصر اليوم شبيه بذلك ) .

وعقب حرب الروس سنة ١٩٠٥ ضمت اليابان لها كوريا وجزءاً من منشوريا هذا إلى فرموزا ولوشو التى أخذتها من الصين من قبل . وتلك البلاد تطابت القيام بمشروعات اقتصادية كبرى كالسكك الحديدية والمصارف والمتاجر مما شجع الصناعة اليابانية التى أمدت تلك المنشآت ، إلى ذلك تنشيط استغلال الكافور وقصب السكر فى فرموزا ، والبنجر فى كوريا ومنشوريا ، وذلك يصح اعتباره الطور الثانى للصناعة وفيه بدأت تسلم الحكومة المصانع التى ثبتت أقدامها للشركات تعمل تحت إشرافها ، وظلت الصناعة الرئيسية إلى آخر القرن الماضى : السفن والنسيج ، أما المعادن فظلت متأخرة ، لذلك وجهت الحكومة همها إليها هذا القرن لكنها لا تزال متأخرة لنقص حاجاتها فى البلاد ، فالحديد نادر ويستورد من الخارج وبخاصة من الصين ، والفحم ردىء النوع بعيد عن مناطق التعدين . فتطور اليابان الصناعى لم يظهر فعلاً إلا فى الفترة بين حرب الصين والحرب الكبرى أى فى عشرين عاماً ، ولم تبدأ النظم الغربية فى البريد والسكك الحديدية والسفن والمصارف والقضاء والإدارة إلا سنة ١٨٩٤ ، وانتشر التعاليم النفى وظهرت





( شكل ٩١ ) النوم في اليابان على الحشيات ( الشلت ) والوسائد الخشبية  
يجاورها مصباح الورق والمبخرة

الآلات خصوصاً في صنع القطن ، فقد زاد عدد مغازله من ٤١٥ ألفاً سنة ١٨٩٣ إلى ٢,٤١٤,٠٠٠ سنة ١٩١٣ ثم ظهر رأس المال الأجنبي في استغلال المنحدرات المائية في الكهروباء ، فبينما لم تكن اليابان شيئاً مذكوراً في العالم الاقتصادي إلى سنة ١٨٩٤ إذا بها تصبح عملاق الشرق الاقتصادي منذ سنة ١٩١٩ .

أما العصر الثالث لهذا النهوض فمنذ الحرب الكبرى ، ففي خلالها تضخمت صناعاتها بفضل غياب المزاحمة خصوصاً صناعات الأصواف والكيمياويات والحرائر والخزف ، كذلك قد أفاد الطلب على الآلات الحربية والذخائر مصانع الحديد ، وتقوى أسطولها التجاري إذ شغلت الحرب سفائن الدول الأخرى فضوعفت السفن اليابانية خلال الحرب ، وزاحمت الأقطان اليابانية المنسوجات الإنجليزية التي تراخت إبان الحرب ، وصنعت اليابان الأقطان الراقية التي كانت احتكاراً للنكشير ، و بين سنتي ١٩١٣ و ١٩٢٤ ضوعفت المغازل تماماً ، وقد زاد الإنتاج الكبير الطلب على الفحم والكهروباء فزاد إنتاج هذين كثيراً .



على أن الكساد العالمى الذى بدأ سنة ١٩٢٠ كان صدمة خطيرة على  
لمصانع التى لم تدعم ، وبخاصة الحديد والسفن والصوف التى لا تزال تشكو من  
الشكوى ، وكان لزلزال سنة ١٩٢٣ أثر سيء على نهوض الصناعة إذ أتلّف كثيراً  
من الأرواح والأموال فاستلزم ديوناً أجنبية باهظة .

ففى خلال الثلاثين عاماً الخالية حصل انقلاب تام يبدو فى أن غالب الواردات  
اليوم أضحت من الخامات خصوصاً القطن والمواد الغذائية ، أما الصادرات التى  
كانت من قبل من الخامات فقد أصبحت من المصنوعات — إذا استثنينا الحرير  
الخام — كذلك التغير الذى طرأ على أسواق اليابان ، ففى المقدمة اليوم شرق  
آسيا وأمريكا الشمالية ، فأمريكا سوق الحرير الخام والحرف والشاي ، ومورد  
القطن الخام والآلات والمعادن ، وتصدر اليابان إلى شرق آسيا القطن والمصنوعات  
الصغيرة مقابل القطن الخام من الهند ، والأرز والخشب والحديد الخام من سائر  
بلاد شرق آسيا .

وخلاصة القول فى ٦٠ عاماً انتقلت اليابان من بلاد تعيش فى القرون  
الوسطى إلى قوة اقتصادية خطيرة ، وكان تطورها منظماً للغاية فى كل نواحيه ،  
ففى السنين الخمس والعشرين الأولى أقيمت الدعامات المادية للتقدم الاقتصادى  
تحت سيطرة الحكومة ، وفى السنوات العشرين التالية ظهر النمو الصناعى وعاونهُ  
النصر فى الحروب وسعة المستعمرات ، وهنا بدأت تستقل الصناعة عن الدولة إلا  
فى نوع من الحماية والعون المالى ، وظهر تغلب الآلات على العمل اليدوى ،  
وأخيراً جاءت الحرب الكبرى التى أتمت هذا التقدم الذى أدهش العالم .

**كيان اليابان الاقتصادى اليوم :** ولا تعد اليابان مصنع آسيا  
بأكملها كما كانت إنجلترا مصنع أوروبا فى القرن التاسع عشر ، ذلك لأن الزراعة  
لا تزال أساس النشاط اليابانى إذ يشتغل بها نصف رجالها رغم عدم ملائمة  
الأرض كثيراً للزراعة ، وشتان بين المروج الخضراء التى يهملها الانجليز فى بلادهم





( شكل ٩٢ ) يخض الفلاح قسما من أرضه بزراعة التوت في شجيرات قصيرة  
يقطف الفتيات ورقها لاطعام دود القز

وبين تلك الأرض الجبلية التي يستغلها الياباني إلى أقصى شبر منها وتكتظ بجهايزه  
الكثيفة وقراه المتعددة ، فهو يزرعها بمجهود وعناية فائقة وبخاصة الأرز والشعير  
ويشغلان ٩١٪ من الأرض المنزرعة ، وفي بعض الجهات العالية يستنبت ثلاث  
غلات أو أربعا ، كل ذلك بطرق يدوية عتيقة ليس للآلات فيها دخل ما ، فهو  
في ذاك شبيه بالفلاح المصري ، وحتى في معيشته لا يزال كما كان أجداده في  
الملبس والغذاء والأخصاص الخشبية والملاهي ، وحتى رأس السنة لا تزال في  
الأرياف بالحساب القمري ( تام الشبه بفلاح مصر ) ، والمزارع هناك صغيرة إذ  
يملك ٥١ مليون عائلة نحو ١٥١ إيكرا ، وثلاثة أرباع أولئك لا تزيد ملكيتهم  
على ٢١ إيكرا ، فنحو ٣٠٪ من الزراع من بين صغار الملاك ، والمستأجرون  
يقومون بالعمل مشاطرة مع الملاك الذين يقدمون السماد والبذور مقابل نصف

(١) من مجموع أراضي اليابان : ٥٠٪ تكسوها الغابات ، و ١٥٪ للزراعة ،  
و ١٠٪ للمراعى .



المحصول ، فالفلاح إذن لا الصانع هو ممثل السواد الأعظم هناك ، ويقوم بأعمال أخرى إلى جانب زراعته ، وأخص تلك الأعمال تربية دود القز الذى يلقبونه (بالمهذب النيل الصغير) ، ففي أغسطس يكاد يشتغل أفراد العائلة جميعاً بقطف ورق التوت ووضعه على صوانى خشبية وإطعام الدود الذى تقوى شهيته للطعام إلى أقصى حد ، ويسمع المرء صوت الدود وهو يقرضها فى أزيز مختلط ، ويقال إن أية جلبة أو إزعاج من الناس حوله تضايق الدود فيفسد هذا من محصول الحرير وجودته ، والحرير يقوم بنصف دخل الفلاح تماماً ، يضاف إلى ذلك بعض الصناعات العائلية البسيطة كالأنوال اليدوية للقطن الذى يدمهم بجميع الملابس الريفية ، وصناعة صناديق الخيزران والورق تطلّى باللاكيه ، كل ذلك يصنع فى البيوت ويسلم للمتعهدين من التجار ، فأين المغزل اليدوى المصرى للقطن فيفسد الفلاح حاجته منها بعمله فى وقت فراغه الطويل ؟

ويشتغل من الناس  $1\frac{1}{3}$  مليوناً بصيد السمك عماد غذائهم الحيوانى ، تلك هى المهن التى لا تزال تبقى على القديم وتغالب المؤثرات الأجنبية ، وأنت ترى طوال الطريق تلك الصناعات اليدوية تمارس فى نوافذ المساكن بنشاط عجيب ولم يؤثر عليها ما يجاورها من مصانع زودت بأحدث الآلات ، وقد تعجب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الانتاج الحديث لها ، لكنك إذا علمت أن غالبها متعلق بالغذاء والملبس والمسكن ، وهذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب . فسلع الأجنبي لا تجد لديهم قبولا ، وحتى قماش (الكيمونو) يلائم النسج اليدوى لأنه صغير العرض ، إلى ذلك أن اليابانى لا تروقه إلا الأدوات الدقيقة الفريدة فى لونها ونظامها . ولم تنجح الآلات الضخمة إلا فى الأشياء الغريبة عن البلاد التى تصنع للتصدير لا للاستهلاك الداخلى ، ولعل فى انتشار الكهرباء هناك ورخصها خير معين على بقاء تلك الصناعات الصغيرة إلى جانب الانتاج الكبير ، ذلك لسهولة استخدامها حتى فى البيوت لإنجاز العمل





( شكل ٩٣ ) تشغل الزراعة في اليابان نصف السكان ، ويعمل النساء في الحقول إلى جانب الرجال

بنفقات زهيدة ، ومن العجيب أن الإنتاج الصغير هو السائد في اليابان ومع ذلك فقد قامت مصانع على نظام الإنتاج الكبير تفوق في نظامها نظائرها في أوروبا : ( كمصانع الخرز وآلات الموسيقى والنسيج ) ، أما من جهة توطن الصناعة فيبدو جلياً في أوزاكا وكوبي بفضل ما كان لهما من حرية نتجت عن بعدها عن أثر السلطة العسكرية عهد الأقطاع مما شجع روح الابتكار فيهما ، ونلاحظ أن الصناعة مركزة في جنوب جزيرة هندو لسهولة الاتصال بالبحار ، لكنها بعيدة عن مناجم الفحم ( فأغلب الفحم في كيوشيو وهوكايدو وهما زراعتان ) ، لذلك اعتمدت الصناعة هناك على الكهرباء ، وهذا له الفضل في أن مصانع اليابان أضحت أحدث مصانع الدنيا نظاماً ، فهل لمصر أن تبادر باستغلال المنحدرات في أسوان والقطارة فتنتشل البلاد من شر الاعتماد على الزراعة وحدها ؟

ويلاحظ أن ستين في المائة من عمال المصانع الكبيرة من السيدات ، وهذا يفسر رخص المنتجات اليابانية من جهة ، وعدم نجاح الصناعات التي تتطلب مهارة



الرجال : كصناعة الآلات ، أما النسيج الذى لا يحتاج إلى مهارة العامل بقدر احتياجه إلى حسن الإدارة وإلى جودة الآلات فقد نجح تماماً ، ويعزى افتقار اليابان فى مهرة العمال إلى حداثة عهدا فى الصناعة وقلة خبرتها بها .

ولقد دعا إلى استخدام النساء أن المصانع منذ البداءة أقيمت فى القرى لرخص أثمان الأراضى بها فلم تجد من العمال كفايتها ، وتلك صعوبة تعترض الصناعة حتى فى مدنها الكبيرة ، لذلك لجأ أصحابها إلى العائلات الريفية يغرونها على إرسال فتياتها يتعلمن فى المصانع ويشغلن مقابل أجر معين يستقطع منه جانب نظير المسكن والغذاء الذى يقدمه لهن صاحب المصنع .

وغالب مصانع الانتاج الكبير فى يد هيئات اقتصادية كبرى تتصل بالحكومة حتى عدها البعض نصف حكومية ، وإلى تلك الشركات كانت الحكومة تسلم كل مشروع اقتصادى أقامته بعد نجاحه ، وبفضل ذلك تشرف الحكومة على الصناعة تماماً ، ولتلك الشركات أثر كبير فى سياسة البلاد ، ولعل من أجل منازيا هذا النظام زوال المزاحمة الذى سببه الإشراف المركزى الشامل ، والتضامن الإنتاجى المتين ، فهل لحكومتنا أن تتولى النهوض الصناعى مترسمة خطى اليابان التى تلائم حالتنا ؟

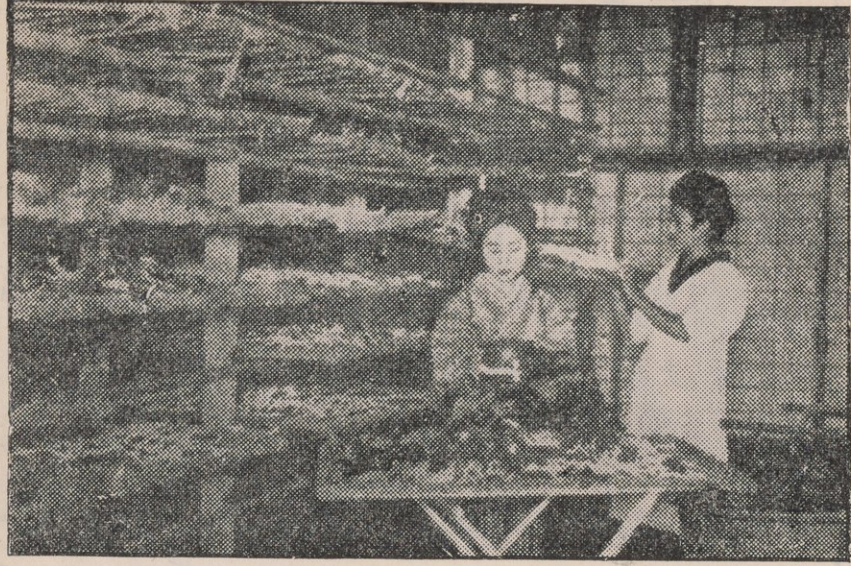
فذاك النجاح العجيب للصناعة اليابانية يرجع الفضل فيه إلى الضرائب

صناعة النسيج فى مصر شبيهة بموقفها فى اليابان من عدة وجوه :

- (١) لأنها تستورد الآلات كلها من الخارج .
- (٢) بدأت ولم يكن للعمال هناك بها خبرة قط ، فاستعانوا بالخبراء الأجانب .
- (٣) كان الوقود من الفحم فى اليابان نادراً وكانت أجور العمال ولا تزال رخيصة جداً .
- (٤) لم يكن لليابان شركات ملاحية تخدم تلك الصناعة ، فبدأت نواة الأسطول التجارى مع بدء صناعة النسيج .

- (٥) كانت الحكومة تقدم لها الاعانات المالية والتسهيلات بسخاء !
- (٦) فرضت رسوماً كبيرة على الواردات لتحمى صناعة النسيج ، صارفة النظر عن المجاملات التى تفوت عليها مصالحتها .





( شكل ٩٤ ) المكان الخاص بتربية دود القز في بيوت الفلاحين جميعاً

الباهظة التي فرضوها على الواردات ، وإلى بعد المزاحمة الأوروبية ، وإلى النظام الاجتماعي الذي يؤيد بفطرته التعاون ويقاوم الفردية ، وإلى بدء الصناعات الكبرى بوساطة الحكومة التي لا تقوى مالية البلاد الضئيلة على مزاحمتها ، وذلك التعاون لا شك عامل عظيم على تخفيف وطأة الأزمات وتقلب الأسعار ، لأن الجماعة هناك تنقذ العاطل منها على عكس أوروبا ، فلمجرد طرد العمال من المصانع في أوروبا ينقصون من مشترياتهم وهذا يزيد الأزمة سوءاً ، كذلك فإن طبقة المأجورين هم الذين ينكبون على المشتريات عند انخفاض بسيط في الأسعار فيزيد هذا في الارتباك المالي ، لذلك أنشئت هيئات التأمين ضد البطالة في أوروبا ، أما في اليابان فلا داعي لها لأن العاطل يلجأ إلى عائلته وقد يستأنف الزراعة وهي لا تزال أهم الأعمال في البلاد ، ويساعده على ذلك استخدام الدراجات مطية يذهب بها العامل يومياً إلى قريته فيعيش وسط أهله دون أن ينفق على مسكنه ومأكله شيئاً يذكر ، وهذا هو السبب في نقص أجر العمال العاطلين في اليابان عنه في جميع الدول ( لم يبلغ مائة ألف ) .



وقد ساعد على عدم تقلب الأسعار (إبان الحرب العظمى صعوداً وبعدها هبوطاً) في اليابان منتجاتها الخاصة التي لا تؤثر فيها المزاومة الأجنبية ، إلى ذلك العادة التي قضى بها العرف عندهم وهي أن كل عامل يستغنى عنه يمهر بين ثلاثة أشهر وستة على سبيل المكافأة وهذا قلل خطر البطالة لا بل وساعد أصحاب العمل ألا يلجأوا إلى الطرد إلا عند الضرورة القصوى ، على أن هذا النظام الذي يساعد على تجنب الأزمات يعاكس الكفاية لأن الأزمات هي التي تستأصل غير الأكفاء من حلبة الإنتاج .

أما إضراب العمال هناك فنادر لأن الرأي العام — وهو قوى جداً هناك — يقاومه كل المقاومة ، كذلك توقفه روح التضحية التي تنتشر بين العمال أنفسهم فقد حادث بعضهم عن سبب رضاهم بالأجر القليل والساعات الطويلة فكان جوابهم أنهم راضون بذلك خشية أن يؤثر اعتصابهم على مركز المنتجات اليابانية في الأسواق الخارجية ، على أن التمرد بدأ اليوم يظهر بينهم ، وقد تشكل اتحاد العمال لتحديد ساعات العمل وبعض الأجور ورعاية صوالم العمال ، لكن لا تزال ساعات العمل تزيد عنها في جميع البلاد الأخرى — بين ٥٧ و ٦٠ ساعة في الأسبوع — ولا تزال هذه الهيئات تناضل كي تعترف الحكومة بحقوقها ، ولعل ضعفها ناشئ عن قلة العمال في المصانع الكبرى فهم ٢١ مليوناً فقط والباقي موزع في المصانع الصغيرة ، إلى ذلك أن غالبهم من النساء اللاتي ينظر الجمهور إليهن نظرة هي دون نظرهم إلى الرجال .

**خطر السكان .** ولقد أثبت الإحصاء الأخير أن عدد السكان ضوعف تماماً في خمسين عاماً إذ بلغ مجموع سكان الإمبراطورية ٩٠ مليوناً ، وأن الزيادة تبلغ مليوناً في كل عام في الجزائر الرئيسية وحدها ، ففي القرن التاسع عشر تضخم عدد السكان بالقدر الذي تسمح به البلاد ، وزاد هذا التضخم عدم الهجرة وقلة الحروب ، على أن مستوى المعيشة ظل في حدود التقشف الشديد حسب أوامر





( شكل ٩٥ ) في أحد مصانع الحرير في أوزاكا ، ومصانع اليابان أحدث نظاماً من نظائرها في الغرب

الأسرة ، لذلك ظلت البلاد تمون نفسها رغم ازدياد السكان ، على أن سكان المدن والطبقات الفقيرة بدأت تتغير حالهم اليوم وتزيد نفقاتهم ، ومن العجيب أن أرض اليابان لا يصلح للزراع فيها سوى السدس ، وهذا هو الذي يمون نصف السكان تماماً ، ولقد ازدادت حركة نزوح أهل الريف إلى المدن جرياً وراء الصناعة وزيادة الأجور ، تلك التي رفعت كلف المعيشة في اليابان كلها ، ويظهر أن طول عزلة اليابان عن العالم ونظامها العائلي المحكم أفهم الياباني ضرورة اتكاله في الغذاء على إنتاج أرضه فظل كذلك إلى اليوم ، لذلك لجأ إلى طريقة الزراعة الاستغلالية القصوى حتى ضاعف إنتاج الأرض من الأرز — وهو عماد الغذاء — لكن رغم ذلك أخذت تتحسن معيشة الفرد ويزيد استهلاكه فأضحت مشكلة التموين اليوم خرجة ولذلك بلغ الوارد من الأرز الأجنبي عشر المستهلك في اليابان ، وأضحت أثمان الأرز — وهو عماد غذاء الفقير — عرضة للتقلب الشديد .

لهذا كله أضحت زيادة السكان هناك خطيرة ، يزيد لها خطراً أن نظامهم



الاجتماعى يحرم تحديد النسل ، فهو يساعد الزواج المبكر ، كما أن الأبوين لا يشعران بمسئولية الأولاد لأن رعايتهم فرض على الأسرة بأكملها ، إلى ذلك أن الدين الشنتوى يحض على النسل وينفر من الزواج العقيم ، كذلك المرأة اليابانية تعد نفسها خادمة أولادها ولم ترق إلى مستوى المرأة الغربية التى قل نسلها بسبب ثقافتها وشعورها بمسئولية تربية الأولاد واشتغالها مع الرجل جنبا لجنب ، والنساء هناك لا يعرفن الطرق الحديثة التى يتبعها الغربيات فى منع النسل ذاك الذى أضحت قتلته خطراً فى إنجلترا وأمريكا ، وفوق الجميع فإن الحكومة اليابانية لا تسمح بنشر أية دعاية تحض على تعطيل النسل ، وذلك دفاعاً عن الناحية العسكرية ، فكان كثرة النسل فى اليابان يكفلها الدين والعادة والحكومة والنظام الاجتماعى . ونصيب اليابان من الهجرة قليل يناهز نصف مليون فى الخارج فقط ، لأن دول أمريكا قيدت الهجرة إليها وكذلك استراليا ، أما آسيا — حيث المجال متسع للهجرة — فإن فيها من وفرة السكان ورخص الأجور ما يسد الباب على مزاحمة اليابانى .

لذلك كان لازماً أن تبتلع المصانع فى اليابان كل زيادة فى السكان ، فيجب زيادة تنشيط الصناعة والاعتماد فى الغذاء والخامات على الواردات . ومشكلة السكان عندنا شبيهة بها فى اليابان ، وخير السبل لابتلاع الزيادة فى السكان إنهاض الصناعة .

ومن المشاكل التى تقلق اليابان — شعورها بالاعتماد على غلتين رئيسيتين ، وهما : الحرير الخام ( ٤٥ ٪ ) ، والقطن المنسوج ( ٢٠ ٪ من الصادرات ) ، فهما ثلثا مجموع الصادرات ، وقد زادها شعوراً بالخطر أن خير أسواقها لتصريف المنسوجات : الصين ، وقد بدأت تشجع الصناعة الوطنية وتقاطع اليابانية خاصة ، وكذلك الهند ، أما سوق الحرير فأمريكا وهى تعرف بسرعة التحول فى الأذواق والأزياء عن سائر الممالك ، على أن المتفائلين يرون فى قرب اليابان من بلاد



الخامات والأسواق والاستهلاك في الشرق الأقصى ، وفي زيادة الثروة في استراليا وأمريكا . وفي نمو القوة الكهربائية في اليابان ما يقلل من تشاؤم (ملتوس) في خطر تكاثر السكان ، وإن كان ذلك لا يتم إلا على حساب شخصيتها الفذة ، وعاداتها الجذابة التي سيقضى عليها اندفاعها وراء التقدم الصناعي ، والعمل على توحيد استهلاكها مع الاستهلاك العالمي كله .

ويتساءل الكثير عما إذا كانت المدنية الغربية ستكتسح تقاليد اليابان ونظمها ، ونحن نلاحظ أن روح الإقطاع لا تزال تسود النظم السياسية ، وأن النظام الاجتماعي والاقتصادي سيظل شرقياً بتحوير بسيط ، فدعائم المدنية لا تزال هناك شرقية بحجة لأن اليابان لا تثق بفلسفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينه وسياسته ، ولا يزال الناس يحافظون على مساكنهم وملابسهم ومعابدهم وألعابهم ، ومن أحبها لديهم : المصارعة التي ورثوها عن آبائهم والتي يتمرن عليها الجميع حتى السيدات وتعتقد لها الحفلات الرسمية ، أما طرق المواصلات ونظم المدارس والمصانع والمصارف وما إليها فأضحت غربية بحجة ، لذلك ناهس هناك التصادم بين المدنيتين في أشياء كثيرة .

وهذا التناقض الذي يجمع به الياباني حسن الذوق وتقدير الجمال إلى جانب القدرة الإنتاجية المادية هو الذي يحار فيه الغربيون ، فكأن اليابان تريد أن تحترم حاضرها وماضيها معاً وترغب في أن يحترمها الغرب كدولة عظمى دون أن تتنازل عن شخصيتها الماضية .

---

في سنة ١٩٢٨ قدرت شرائق الحرير بنحو ٥٥ مليون جنيه ، والحرير الخام ٨٥ مليوناً : ٧٠ في المائة منه يصدر ، و ٥٠ مليون جنيه منسوجات حريرية — غزل القطن أقل نشاطاً من نسجه ، ومع ذلك يستنفد بنحو ٥٠ مليون جنيه من القطن الخام سنوياً ، وهو أرخص من الانجليزى ، لأن مصانعه أحدث نظاماً ، ولأنه في يد أربع شركات كبيرة غنية ، تشتري الخام كلما لامها الثمن وساعدها انخفاض أجور العمال وأجور السفن اليابانية التي تعاونها الحكومة بالمال ، ولقلة الوسطاء ، ولطول ساعات العمل ، فالمعامل تشتغل ١٧ ساعة في اليوم على دفعتين ،



ولقد كانت اليابان حكيمة في نقل عناصر تقدمها ، فهي لم تعتمد على دولة معينة ، بل استمدت المعونة من عدة دول كل فيما امتازت به : فالجيش نقلته عن فرنسا إلى سنة ١٨٧١ ثم عن ألمانيا لما ظهر لها فضل الجيش الألماني على الفرنسي ، والأسطول عن بريطانيا ، والنظام المالي عن أمريكا أولاً ثم عن فرنسا وألمانيا آخراً ، والسكك الحديدية عن إنجلترا ، والنظم السياسية عن ألمانيا ، ولعل ألمانيا هي أولى الدول التي نقلت اليابان عنها لأنها أقرب الدول شهاً باليابان وبخاصة في النظام الاجتماعي والسياسي ، نخص من ذلك القدرة على التنظيم والتعاون فلقد كان للحكومة في المملكتين سلطان كبير ، وكلاهما له تقاليد عسكرية خاصة ، ونساء الفريقين بينهما شبه قريب ، ولقد نقلت الفنون عن فرنسا ، ويظهر أن الجنس السكسوني يحتاج اليابان اليوم في التعليم والتجارة ، واللغة الإنجليزية المنتشرة في أسواق الشرق وفي شرائط السينما التي يرد غالبها من أمريكا ، وفي كثرة المبشرين من الأمريكيان ، على أن الدعاية للدين المسيحي ليست ناجحة لأن الياباني يرى في الغربي شخصاً غير متدين لا يتورع أن يرتكب الخطايا جهاراً ، فهو في نظره مستهتر بدينه وهم يرون في دينهم خيراً ، فهم لا شك أكثر من المسيحيين عطفاً على الغير ، وتضحية للصالح العام ، وتسامحاً في الخلق ، وتقديراً للجمال الطبيعي الإلهي ؛ أما الأوروبي فصادق نظرياً ، مارق عملياً . ويرى البعض أن اليابان هي الدولة الوحيدة التي تجمع بين الطهارة والجمال ، فهناك ترى حب الجمال إلى مستوى ذوق ممتاز ، وهناك يقوم الولاء للعشيرة إلى جانب تقدير المسؤولية الاجتماعية فهي الدولة الآسيوية الوحيدة التي صدت عدوان الغرب عنها ، وأعدت نفسها بوسائل الدفاع الحديثة بدون أن تضحي تقاليدها الاجتماعية أو السياسية ، وهي الوحيدة التي أجادت فهم الحضارتين : الشرقية والغربية ، وألفت بين الشرق والغرب ، فياحبذا لو نسجت مصر على منوالها فهي أقرب إلينا من نواحي عدة ، فلنوفد إليها طائفة من طلبتنا وتجارتنا لدرس الوسائل الاقتصادية والخلقية التي كانت خير عون



لهم على ذلك التقدم العجيب . ويظهر أن تيار المدنية والرقى والسلطان متجه اليوم نحو المحيط الهادى ، وأن سيكون نهباً مقسماً بين اليابان وأمريكا إن هما تعاونا وثقتا عرى الصداقة بينهما .

### الخلق القومى والنظام الاجتماعى : كنت أعجب كثيراً كلما

ناقشت أجنبياً لاقيته فى اليابان أو فى طريق إليها إذ كان يكيل التهم لليابانيين ويرميهم بالنزعة الحربية والغدر وحب المادة والتجرد عن الضمير ، وبعضهم كان يرى فى نزعتها الحربية أكبر الخطر على العالم ، والغريب أن بعضهم كان يعد إخلاص اليابانى الشديد وتفانيه فى عمله بنشاط فائق — خطراً على العالم ، على أنه تبين لى أن تلك التهم عارية عن الصحة : فالأجانب يسيئون فهم نظام اليابان الاجتماعى ، ذاك الذى نفهمه نحن المصريين على حقيقته لقربه من نظامنا ، فمثلاً إذا ما أردت أن توجه نقداً لأحدهم يجب — طبقاً لأدابهم — ألا تصارحهم به فى شكل جارح لأنهم يعدون ذلك خطأً من شأنهم ، فالواجب أن يوجه النقد تلميحاً وفى تعبير رقيق ، أما صراحة الغربيين فتعد هناك جفاء وغلظة ، وإذا ما أردت أن ترفض لأحدهم طلبه أو تبلغه خبراً سيئاً وجب أن تصوغ ذلك فى عبارات رقيقة ملفوفة التعابير ، حتى فى الأعمال التجارية ، ومن هنا كثر سوء التفاهم بينهم وبين الأجانب ، فكلها يتهم أخاه بالنقص الخلقى ، إلى ذلك يضاف أن أغلب الأجانب الذين كتبوا عن اليابان لم يخبروا إلا سكان السواحل وهؤلاء قد أفسدهم اقترابهم بسفلة الأجانب فهم لا يمثلون عامة اليابانيين ، يؤيد هذا أن اليابانيين كانوا يعدون طبقة التجار منحلة فهم لديهم دون طبقة العمال والزراع لفساد خلقهم بسبب احتكاكهم بأولئك النزلاء من الأجانب الذين كانوا ساقطى الأخلاق ، ومن أسباب سخط الأجانب عليهم سرعة تقليدهم لمنتجات الغير ولشاراتهم التجارية ، ولإدخال الغش أحياناً على بعض السلع ، على أن ذلك يكثر فى بدء التطور الصناعى لكل أمة ، وقد كانت أوروبا كلها



كذلك عقب الانقلاب الصناعى ، وقد بدأت الحكومة اليابانية منذ الحرب الكبرى تراقب السلع الصادرة لدفع تلك التهم فشككت لجائناً لفحص الصادرات ، ولا يصح اتهم عامة اليابانيين بالخيانة والغش ، فكثيراً ما كنت أرى حانوتاً تركه صاحبه مفتوحاً تعرض به السلع وعليها بطاقات الثمن فيجىء المشتري وينتقى ما يشاء ويضع الثمن فى صندوق مغلق بدون محاسب ولا رقيب . ومن أخلاق اليابانيين أنهم يفضلون سرعة التراضى والاتفاق بين المتخاصمين ويشورون ضد من يتمسك بمطلبه للنهاية حتى ولو كان عادلاً ، وذلك أثر من آثار استنكارهم للمجابهة القارصة والمصارحة الجافة عكس الأوروبي الذى يصصر على حقه كاملاً للنهاية وبكل جرأة ، فاليابانى شب قادراً على اخفاء مشاعره وميوله تحت وجه باسم هادى ، لأن الظهور بالوجه المقطب كائناً ما كان الباعث عنوان فساد التربية لديهم ، وهذا هو الذى جعل قدرتهم على ضبط النفس فى حالة الغضب وعند ما تلحقهم إهانة مضرب الأمثال ، ومن هنا جاء احتقارهم للأجانب الذين يعرفون بسرعة التهيج والغضب ، وبخاصة بعد ما أثر عليهم جو آسيا المجهد الذى جعلهم عصبيين لحد كبير . أما أدب اليابانيين فلم يختلف فيه أحد ، فلا يمكن أن يلفظ أحدهم بالشتائم ولا يلجأ فى حديثه إلى الحلف والقسم بل يعلم منذ نشأته لغة التأدب الشديد ، فلا يقول مثلاً : ( أنت ) بل ( المحترم ) ، وبدل أن يقول لك ( ادخل البيت ) يقول ( تنازل وشرف منزلنا الذى هو دون مقامك ) وإذا قال ( اجلس ) أثر عليها ( تنازل لتستريح وتستمتع ) . على أن الأجانب يدعون بأن أدبهم هذا ظاهرى ليس غير وكأنه أدب القردة ، ويستدلون على ذلك بسلوكهم الذى يظهر فى المقاهى وقطر سكة الحديد وفى معاملتهم للسيدات وفى تدخلهم بالاستعلام عن كل شىء للدرجة هى الفضول بعينه ، لكنهم لو أنصفوا لعلموا أن تلك عاداتهم التى لم يفهمها الغربى ، فكيف لنا أن نعيب على اليابانى مثلاً أن يرتشف الشراب من الكأس بصوت ينفر الغربى من سماعه أو أنه لا يقف للسيدة بل للطفل





( شكل ٩٦ ) أدب اليابانيين أضحى مضرب الأمثال وتلك  
الانحناءات واجبة ومتبادلة

والرجل المسن — وهو أقرب إلى المعقول — وقد كنت ألاحظ في الترام أن  
غالب الواقفين من النساء ، ولا يصح أن يقف الرجل للمرأة بل بالعكس رأيت  
رجلا دخل العربة فسلم على صاحب له كان يجلس بجوارى وإلى يساره سيدة  
يغلب على ظنى أنها زوجته فوقفت هى وتنحنت له عن مكانها فجلس بعد أن  
شكرها وظلت هى واقفة .

ويصعب جداً على الغريب أن يعرف الياباني حق المعرفة لأنه جذر جداً فى  
معاملة الأجانب فهم يستقبلونه بأدب ورقة وعطف لكنهم ان يتقبلوك قط  
كصديق ، ولعل ذلك أثر من آثار عزلتهم فى جزائرهم النائبة عن العالم كله ، وتلك  
صفة تلاحظ فى أهل الجزائر عموماً وإلى حد واضح ، إلى ذلك أثر عصر الاقطاع  
فيهم ذاك الذى كانت تأبى فروسية أهله أن يظهروا ماتسكنه أفندتهم من مشاعر ،  
فالياباني يكلم الأجنبي وهو يدكر أنه يمثل اليابان فيزيد حذره ، وساعد على ذلك  
اعترازه الشديد بقوميته لا بل وقبيلته وأسرته التى يجب عليه احترامها اجتماعياً  
ودينياً ، ولقد خلف هذا أثره فى ضعف الاستقلال الذاتى وقوة الابتكار ، ويزيد



في ذلك ما يحوط الطفل منذ نعومته من الرعاية التي تجعله مدلاً حساساً لأقل المصارحات (بعض ما نعانيه نحن في مصر) — وكذلك افتقار الياباني في تفهم الفكاهة والمزاح فهو يأخذ ذلك مأخذ الجد في كل المناسبات لذلك شب رقيق الإحساس لدرجة تجعل النقد البريء في نظره إهانة ، فهم لا يحبون أن يقبلوا النصيح من الأجنبي مخافة أن يعد ذلك اعترافاً بالعجز من جانبهم . واليابان تعوزها تلك الروح الرياضية التي امتاز بها الانجليز والأمريكان على غيرهم ، وهؤلاء أقدر الشعوب على الجمع بين الخصومة الحادة في القول إلى جانب الصداقة في القلب ، أما اليابان فتعد الهزيمة حتى في الألعاب الرياضية انكساراً مخزياً شائناً ، فكثيراً ما حدث في المباريات الدولية لكرة أن انفجر لاعبوهم بكون بحرارة لأنهم دحروا في اللعب ، ويحاول نظار المدارس هناك ألا يشركوا أولادهم في اللعب حتى يكفلوا فوزهم فيه (وهذا ما كنا نلمسه في مصر إلى أمد قريب) .

ولعل أجل خلاصهم التضحية للصالح العام تلك التي يعزى إليها سحر تقدمهم خلال ستين عاماً ، فالياباني أسبق الناس للتضحية بنفسه في سبيل رفع شأن أمته وفي تاريخ اليابان مثل عليا ، لذلك نذكر منها حادث الفارس الذي قتل زوجته وبنيه قبل الذهاب إلى ميدان القتال مخافة أن يتعلق بهم في غيبته فتفتر قوة الدفاع فيه ، ثم حادث الجواله السبعة والأربعين الذين انتقموا لسيدهم ثم انتحروا لكيلا يعيشوا بعده وفاء له ، ثم حادث الجنرال (نوجي) الذي مات وزوجته شرموتة ليسجل احتجاجه على إغفال بعض بني قومه تمسكهم بالقديم وعلى جريهم وراء التجديد الأوربي ، ثم حادث الياباني الذي انتحرب بقر بطنه أمام السفارة الأمريكية هناك ليرد الإهانة التي لحقت باليابان على أثر قانون تقييد الهجرة الذي أصدرته أمريكا سنة ١٩٢٤ ، وآخر ما حدث ما قرأناه في حربهم مع الصين الآن من أن بعض جنودهم لف نفسه بالمواد المفرقة ليجرى بها إلى الأسلاك الشائكة فتنفجر وتنسفه هو والأسلاك كي يفسح الطريق لتقدم الجيش .





أما حبهم للجمال فثلى يبدو  
جلياً في مدائنهم ودسا كرمهم ، ففي  
حفلاتهم وأعيادهم يدهش المرء  
لقدرتهم على خلق الجمال بأبسط  
الوسائل ، فمصاييحهم المنثورة  
وأوراقهم الملونة وأشجارهم المبعثرة  
مصدر جمال كبير . كذلك أوانيتهم  
الخشبية وأثاثهم وأرديتهم وما هي  
عليه من نقوش جذابة . كذلك  
زخرفة منازلهم رغم بساطة بنائها إذ  
ترى الأرض تكسى بالحصر من

القش يزينها في جوانبها إطار أسود ( شكل ٩٧ ) عروس في زى الزفاف

وفي الحراب تعلق صورة متقنة الفن غالية الثمن ، وترى الياباني يعنى بجمال المسكن  
ويهمل جانب الراحة فيه — على عكس الأوروبي — وكنت أعجب لهم كيف  
يطبقون المكث في بيوتهم شتاء على وهنها وصيف الریح في جوانبها ، وقهقهة  
أخشابها طول الليل ، وحتى بيوت الطبقات الوسطى فإنها تكلفهم كثيراً بسبب  
العناية بتجميلها ، وهو لا يبالي أكانت مريحة أم لا ، لأنه شب متقشفاً ودرب  
على تعشق الجمال وتقديس الطبيعة التي يفهمونها حق الفهم ، ويقرأون في الشجر  
والزهور والتلال معاني لا نفهمها نحن ، وذلك بسبب طبيعة أرضهم فهي حديثة  
العهد الجيولوجي ، ليس بها من جبال ولا سهول تمتد إلى قصارى مسارح النظر  
كلا ولا جبال مهشمة النرى بطيئة المنحدر ، ففي البلاد الأخرى يقارب المرء  
الجبال والبحار تدريجاً ، لكن جلال الجبال وروعة المناظر تباغت الإنسان أينما  
سار في اليابان ، فمن كل سهل أو وهدة هناك تبدو النجاد رائعة من كل جانب



مما جعلهم يتعرفون من الذرى والغدران والجنادل والصخور الشئ الكثير ، وهم يعدونها ملاجئ للآلهة ، لذلك يحج الجماهير إليها فى الصيف فى أردية بيضاء ، وفى مساء ٣١ يولييه يروك منظر آلاف الحجاج فى ( الكيمونو ) البيضاء يغتسلون فى البحيرات التى تحيط ( بفوجى ياما ) المقدس من أسفله . ثم يبدأون الصعود إذا خيم الليل ، ويبد كل منهم مصباح مضئ ، فتبدو جموع المصابيح وكأنها عقود النجوم تتلألأ صعوداً على جوانب الجبل ، وفى الذروة يفترش كل حصيره حتى الصباح لاستقبال الشمس المشرقة ، وفى البلاد كثير من أندية الحج يكتب فيها الكثير تشجيعاً لزيارة تلك الأما كن المقدسة ، وحفلات استعراض الزهور ، ومراقبة القمر من أمتع ما نراه فى تلك البلاد .

ولقد ذكرت رحلتى فى أوروبا العام الفائت تلك البلاد التى هجرت تقاليدها وعقائدها ، ولم يصبح للعادة بين أهلها من أثر فهم أحرار يأتون ما يروقهم فى غير قيد ، هناك كنت أرى الفرد مطلق الحرية يوكل أمره إلى شعوره بالمسئولية الأدبية ، حتى أن حكومته لا تلزمه بالتجنيد إن أرهقتها الضرورة لذلك ، وتظل رهينة اختياره وتطوعه ، أما فى اليابان فعلى النقيض من ذلك كنت أراها تجل تقاليدها وتمسك بقوميتها التى تتلاشى أمامها حرية الفرد ذاك الذى يعد نفسه خادماً للجماعة خاضعاً لنداء الدولة فى كل آن ، فالعائلة أساس المجتمع ، وليس الفرد ، وللعائلة حقوق على أفرادها واجبة الأداء ، وعلى الفرد أن يضحي صالحه الذاتى فى سبيل الحرص على صالح الأسرة ، فهى التى تتصرف فى زواجه وتعليمه ومستقبله ومن لم يخضع حرم حق الانتساب إلى الأسرة فينبذه جميع الناس ، ويكاد لا يوجد الولد العاق مطلقاً ، على أن زعماء الأسرة ليسوا مستبدين برأيهم بل رأى شورى بينهم ، فتراهم يعتقدون مجتمعاتهم لبحث ما يعرض لهم فى هدوء ، والعائلة هناك تخفف كثيراً من أعباء الدولة لأنها تقوم بالفصل فى شئون عائلية هى من نصيب الدولة فى بلاد الغرب ، ولعل أظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية



في الزوجية وميول الإنسان الجنسية ، فالغربي يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية ، وعليه يتوقف صالح المجتمع كله ، لكن الياباني يرى أن هذا الحب لا ينطبق على المثل الأعلى فله خطره وأثره المثلث المدمر ، وهو يرى أن العلاقة الزوجية لا يصح أن تبني على رأى الفرد بل المجتمع ، فهي إذن ليست عملاً فردياً ، فالياباني لا يرى في امتزاج الفتيات بالشبان ذاك المعنى الذى يراه الأوربي وهو يحتقر ذلك فلا يرقص الذكور مع الأنثى ولا يختلطون بهن طويلاً ، وإذا اعتزم الزواج اختار له ذووه بعد أن يقصوا عليه نبأ الفتاة ، فإن قبل اتفاقاً على المواجهة ( Miai ) فى حضرة فريق من أقربائهما ، فإن أقرها انجزت مراسيم الزواج ، وإن لم توافقه فلعائلته حق الفصل فى الرفض أو إرغامه على القبول ، على أنه كثيراً ما يعشق الصبي فتاة ، لكن ظروف العائلتين تأبى الزواج فيلجأ الاثنان إلى الانتحار ( Shinju ) . والغريب فى أمر الزواج هناك أنه بعد أن يتم فى المعبد أو البيت يترك بدون تقييد رسمى لمدة سنة ، فإن ظهر عدم الوفاق خلالها صح الفراق إن رضى أهل الزوجين ، وإلا لجأوا إلى القانون — والطلاق يبيحه القانون — فإن رزقا بمولود خلال تلك السنة تتبناه إحدى العائلتين أو عائلة أخرى لم تعقب ، والتبني شائع فى اليابان لضرورة وجود ممثل للعائلة إن أعوزتها الذرية ، وأعجب ما يرى نظام التبني هناك بين الرجل وأكفأ موظفيه الذين يعاونونه فى العمل ، فهو يسارع إلى تبنيه كي يكفل نجاح العمل باطراد ، ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم ما بينهما من إخلاص ، وذلك إذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة ، ولقد بطل ذلك اليوم ، لكنك ترى أثره فى احتقار القوم للزوج الذى يتفانى فى حب زوجته أو يرافقها فى ملهى عمومى حيث يصبح موضع تقريرهم وسخريتهم جميعاً .

وقد يخيل للغريب أن المرأة محتقرة هناك والحقيقة أنها فى دائرة اختصاصها أعنى تدبير المنزل وتربية النشء ذات سلطة مطلقة واحترام كبير ، أما فيما يختص



بالمعاونة العامة والفكرية فليس لها نصيب لأن وظيفتها زوجة فحسب عليها أن تطيع زوجها وتحترمه ، فإذا سارا في طريق لا يصح لها أن تتقدمه وليس لها أن تشاظره وإخوانه مجلسه بل تقدم إليهم ما يطلبون ثم تنسحب .

وعلى الرغم مما خلفه خضوع الأفراد لأوامر العائلة من ضعف الاستقلال وقوة الابتكار ، فإن هذا النظام العائلي يحتم أن يأخذ الشكل بناصر من أصابه ضمير من أفرادها حتى ولو تطلب ذلك جميع أموال العائلة لأن عجزها عن انقاذ أحد أفرادها خزي كبير ، لذلك لم تكن اليابان بحاجة إلى ملاجئ أو شركات تأمين ضد البطالة ، ولقد صرح المستر (سوزوكي) رئيس اتحاد عمال اليابان بأن نقابة العمال هناك قوية رغم افتقارها للرصيد المالى الذى تنفق منه النقابات في ظروف الاضراب ذلك لأن الأعضاء يستمدون المال من عائلاتهم إذا ما أضرَبوا ، وخير ما يبدو هذا التعاون عند حلول نكبات عامة كما حدث في فاجعة زلزال سنة ١٩٢٣ حين تهافت جميع العائلات على تقديم المساعدة لنداريهم الذين كانوا يقطنون طوكيو ، فسهلوا بذلك وسائل الانقاذ والتعمير ، فالعائلة سند قوى لليابانى يكفل له بعض رخائه وهذا ما جعل اليابانى أقدر الناس على تنظيم التعاون على أساسه القويم وهو الشعور منذ الصغر بأنه جزء من المسؤولية الاجتماعية ، ويظهر ذلك النظام جلياً في المدن والقرى وبين الهيآت الصغيرة وفي الأعمال التجارية والوظائف العامة ، فالموظف يشعر بأن العمل على انجاح المشروع الذى يخدمه من أقدس واجباته الاجتماعية ، وفي نجاحه فوز له وربح كبير من الناحيتين المادية والأدبية ، وقد كنت ألمس ذلك بنفسى بين موظفى القنصلية المصرية فى كوبى إذ كان تقانيهم فى العمل وانكبابهم على انجازه فائقاً كل حد ، وظالما كانوا يشغلون وقت فراغهم فيه رغم عدم تكليفهم بذلك ورغم مرتباتهم الضئيلة .

فاليابانى خاضع لرؤسائه الذين تجب الطاعة لهم ولأنداده لأنه فرد منهم ولمن هم دونه مقاما مخافة رأى العام ، فكثيراً ما يتنازل عن حقه مراعاة لذلك لأنه



يؤثر أن يحسن جيرانه الرأي فيه على أية فائدة مادية ، حدث مرة أن دعا أحد وجهاء قرية صديقاً أجنبياً ليقم عنده أياماً — وهم يكرمون الضيف ويقدرّون الوجاهة والفخفة قدرّاً كبيراً (يشبهوننا في ذلك) — فكان كلما خرج في نزهة خلوية معه يتحاشى أن يستأجر من العربات أو السيارات ما يدل الناس على إسرافه في غير مبرر ، وكان يركب الترام إلى قرية أخرى لا يعرفه أهلها ، وهناك يستأجر ما يشاء من السيارات إكراماً لصاحبه وذلك مخافة سخط أهل بلدته عليه ، كذلك حدث أن أثير غضب القوم على غنى أقام حفلات باهظة لعيد ميلاده فأمعنت الجرائد في نقده وعدوا عمله هذا جرماً اجتماعياً ، ذلك مثل مما يوقف استبداد الغنى بالفقر في اليابان رغم أن البلاد لا تزال تعوزها النظم الديمقراطية .

وينقد البعض خضوع الفرد وماله من أثر في نقص الشجاعة الأدبية وقوة الابتكار حتى أن سخط الرأي العام كثيراً ما يوقف المصلحين أن يقوموا بالمشآت القيمة التي لم تلمس سذاجة الجماهير مزايها ومن هنا افتقرت اليابان إلى العطاء في الدين والفلسفة والآداب والعلوم ، ولقد زاد هذا الرباط الاجتماعي هناك الدين الشنتوي الذي يتلخص في عبادة الطبيعة وتقديس الأجداد ، فعبادة الطبيعة زادت استمساكهم بأرضهم وتقديس العائلة زاد الرباط القومي ، فهم يقدمون قرابينهم لمعابد الآلهة لتشارك أرواح الأجداد في استرضاء الآلهة ، ففي عيد اسمه (أوبون) في أغسطس يعتقدون أن أرواح الأجداد تزور المعابد لذلك يجتمع حولها أفراد العائلة ويوقدون المصابيح والنيران ليمتعجوا بمحييهم ويشترك في العيد أفراد الديانات الأخرى لأن الأمر مرتبط بالأجداد ، وكذلك يذهب سمسرة السندات كل سنة إلى معبد هناك يزعمون أن الآلهة تدلهم فيه على أسعار الأوراق الجديدة ، وفي إحدى المدارس الكبرى للبنات يصلى الفتيات لآلهة (الأبر) التي حطموها طوال عامهن ، وقبل أن يبني البيت الجديد يظهر القسيس الأرض ويباركها ، كذلك تعلق الحوادث السياسية الكبرى أمام معبد (آلهة الشمس) جدة الأسرة المالكة ،



وفي كل سنة يذهب رجال المطافئ إلى معبد (إيسى) الشهير ليتوسلوا للآلهة ألا يصيبوا البلاد بالحريق ، كذلك تراهم يحجون زرافات إلى ذرى الجبال لآلهة المياه والصخور وما إليها .

ولا تزال عادة تقديس الأبطال شائعة لديهم ، فمثلاً إذا ضحى رجل نفسه كي يساعد ذويه في كارثة نزلت بهم يعده أهل القرية إلهاً حتى في مدة حياته إذا نجا من الموت ، فالجنرال (توجو) بطل الحرب الروسية اليابانية يعبدونه في إيسى ، وكثير من الناس يحجون لزيارة روح الجنرال (توجي) وزوجته الذين انتحرا سنة ١٩١٢ احتجاجاً على تقليد الغربيين بكثرة في اليابان وحتى (تا كامورى) زعيم ثورة سنة ١٨٧٦ التى قامت ضد الحكومة ، لأنها أدخلت النظم الحديثة الغربية ، يحله القوم إجلالاً كبيراً .

وللنظام الاجتماعى هناك أثر فى ميلهم للألفة والاجتماع ، ورغم أنهم حذرون فى مخاطبتهم للأجانب وعند ما يرد موضوع اليابان فى الحديث فانك ترى الواحد مخالطاً لجميع أفراد عائلته يقفون جميعاً على أسراره كلها ، لذلك كثيراً ما يتضايق الأجانب عند ما يفاجئهم بعض اليابانيين بالاستعلام عن أشياء شخصية أو عائلية لا تعنيهم قط ، وهم يعدون ذلك من قلة الذوق ، مع أن الياباني يعده اهتماماً منه بشأن من يخاطب .

ولا يزال للطبقات عندهم أثر رغم التطور الذى حدث ، إلا أنك تعجب إذ ترى عطف الممتازين على الطبقات الوضعية بالغاً حده ، وكانت طبقاتهم أربعاً : رجال الحرب ويشملون الدايميو أو اللوردات والساموراي أو الفرسان ، ثم طبقة الزراع تليهم طبقة الصناع فطبقة التجار ، ولا تزال ترى فى البطاقات التى يملأ خاناتها نزيل الفندق فقرة لكتابة الأسرة وطبقته إلى اليوم ، وكانت هناك طبقة دون هؤلاء جميعاً أشبه بطبقة المنبوذين فى الهند تسمى (أيتا) ولا يزالون يحتقرون هناك إلى اليوم ، ويظن أنهم فى الأصل سلائل الأينو وهم سكان اليابان الأصليون ،





(شكل ٩٨) سيدة من الأينو سكان اليابان  
الأوائل وهم كلفون بتخضيب شفاههم

ولا تزال منهم بقية تمارس  
المهن الوضيعة من بينها  
الاشتغال بالجلود والذبح  
والسلخ والاعدام ، ولا يسمح  
لهم بالزواج إلا من طبقتهم ،  
وكان لهم حاكم عنهم يتصرف  
في شئونهم ، وسر دنسهم  
هذا الدين البودي الذي يحرم  
القتل لذلك عد من ينفذ الذبح  
أو الإعدام نجساً ، وهم يكثر  
في مقاطعات خاصة في الشمال  
اليوم ، وقد تصل مشاحناتهم  
مع جيرانهم من الطبقات  
الأخرى حداً خطيراً ولا يزال

المزارع عندهم في المرتبة الثانية كما كان قديماً وقد كان المزارع يدفع ضريبة  
الأرض أرزاً ، وإذا وقع عليه حيف من الحاكم كان الزارع يوفدون جموعاً منهم  
لملاقة حكام العواصم (الشواجن) على أن الوصول إلى أولئك كان متعذراً ،  
فكان بعض الزارع يتجاسر ويضحي بنفسه في سبيل رفع الحيف ، حدث مرة  
أن ألقى أحدهم بظلامه في عربة (الشجون) مخترقاً الحشد في الطريق فأصدر  
الحاكم أمره بعقاب المتسبب في الظلم من الحكام أولاً ، ثم أمر بصلب الرجل  
المتظلم هو وزوجته وأولاده عقاباً له على تجاسره هذا وردعاً لغيره ، وكان في قانونهم  
أن صاحب الذنب الكبير لا تنجو منه عائلته ! أما من اشتركوا معه في التدبير  
فينفون من البلاد .



هذا مثل من نظامهم الاجتماعى الذى ظل فى سواده سداً منيعاً فى وجه عوامل التغيير رغم التطور المادى ، على أن الشباب اليوم مسرع فى طريق التحول وبخاصة منذ الحرب الكبرى ، ولقد شاطرت المرأة الرجل فى الأعمال الخارجة عن دائرة المنزل ، ولعل أخطر شئ يهدد هذا النظام الاجتماعى المتين كثرة العمال فاشتغالهم فى المصانع يساعد على انحلال الروابط العائلية ، كما أن سهولة وسائل الانتقال ستزيل تعصب الفرد لبيئته وتخفف من عصبيته لقريته التى ظل محافظاً على تقاليدها .

الى كوبي ثانية : غادرت أوزا كما مقر الثروة الصناعية الناهضة الفتية وعدت إلى كوبي وهناك زرت بعض متاجرها الكبرى الذى يعلو شامخاً فى السماء وفوق سطحه جلسنا قليلاً بين فوارات المياه والحدائق المنسقة وهو شبه أخيه فى طوكيو ، وقت بجولة بعد الظهر فى ضاحية (أريما) ركبنا لها المترو زهاء الساعة وسط الربى والمسائل ، والغابات تتخللها الينابيع التى يؤمها القوم للاستشفاء ولذلك قامت بها الأنزال على اختلاف طبقاتها ، ويجرى تحتها جدول كثير الليات والجنادل ، ولا أنسى به مرآى شلالين متجانبين أحدهما أظهر كبرا وهنا كان تراحم القوم شديداً لأنهما فى زعمهم يمثلان الذكر والأنثى ! وهنا قابلت أحد جماعة السوريين الذين يقيمون فى بلاد اليابان ، وكم كان دهشى شديداً لما أن علمت بأن جل التجارة اليابانية التى ترسل إلى مصر فى أيدي طائفة من هؤلاء تدر عليهم الأرباح الطائلة ، وكان أجدر بالمصريين أن يبعثوا بمندوبيهم للشراء والاستفادة بتلك الأعمال التجارية التى تنمو على مر السنين نمواً مضطرباً .

الى شيمونوزيكى : قمت من كوبي العاشرة والنصف صباحاً فوصلتها منتصف العاشرة مساءً ، والطريق كله جميل تتعدد أنفاقه ويكاد يجانب شاطئاً





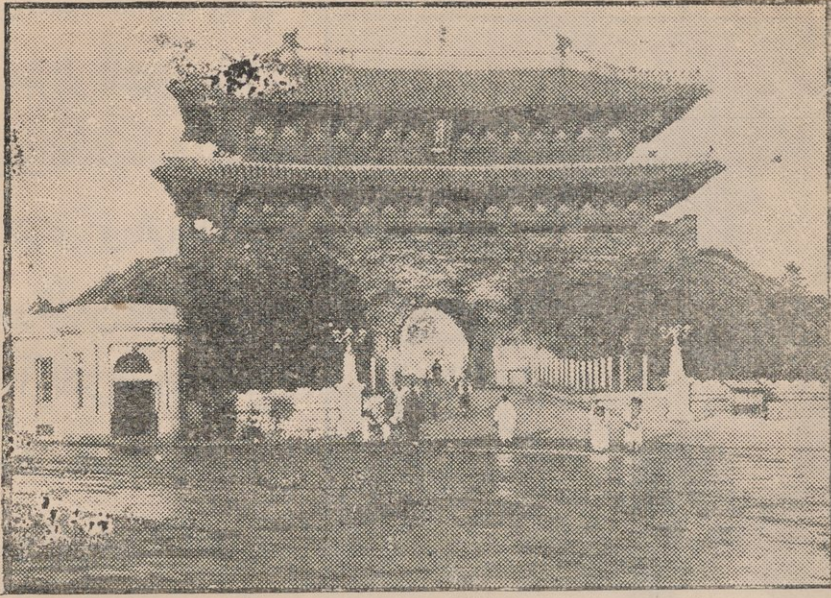
( شكل ٩٩ )

أشهر البوابات المقدسة في اليابان تتوسط مياه المد  
في معبد مياجيا

البحر في نصفه الأخير ، وكان  
مشهد الجزائر المنتشرة طوال  
الطريق رائعا بديعا ، وكانت  
تبدو القرى في الوهاد أقل  
نظافة ورقيا من بلاد الشمال  
وأهلها أكثر سمرة وأقل  
رقة ، وكان غالب النبات من  
الأرز والتوت القصير  
والخيزران والغابات ، وقد  
مال الجو هذين اليومين إلى  
الحرارة بعد أن كان جميلا  
متقطع السحب والمطر ، وقد  
علمت أن موسم الحرارة  
المتوجهة قد أبطأ قليلا عن  
ميعاده إذ يتوقعه القوم في

منتصف يولييه ، وقد كان ذلك التأخير من حظي ، وإن لم يكن من صالح الزراعة  
لديهم ، وبعد ثلثي الطريق مررنا بمياجيا إحدى آيات الطبيعة الثلاث الساحرة  
على البحر الداخلي ، بدت بوابتها الحمراء المقدسة وسط لجة الماء ، وهي أجمل  
بوابات اليابان طرا ، رأيناها وقت المد وكأنها معبد سابح والمعبد نفسه فوق ذروة  
الجلبل به قبة من نحاس دونها موقد تعلوه نار لم يخدم أوارها منذ ألف سنة ! وعلى  
مقربة منها الغربان المقدسة تصفق لها فتجىء فتأكل ما تقدمه لها وهي آمنة ،  
وقد بلغ من قدسية المكان أن الحكومة كانت تحرم بقاء المرضى وذوات الحمل به  
خشية أن يموت المريض أو تلد الحامل فيصيب المكان دنس أو رجس .



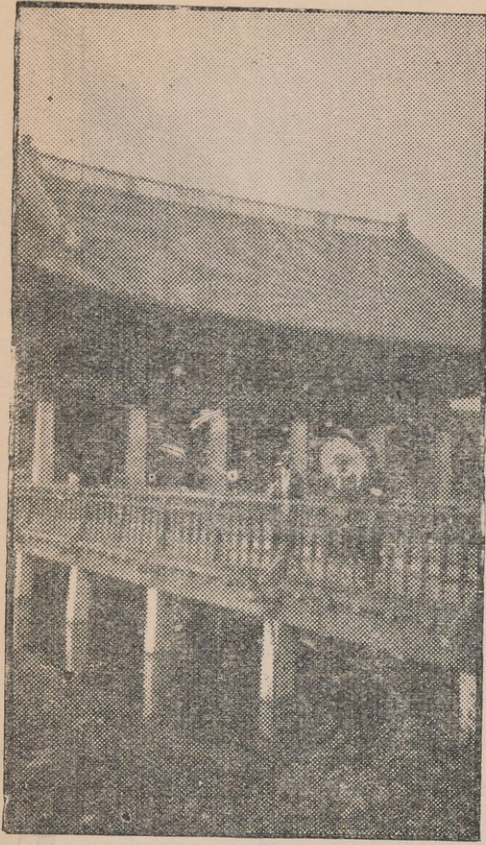


( شكل ١٠٠ ) بوابة ( ناندايمون ) القديمة في سيول

دخلنا شمونوزيكي ليلا ومنها ركبنا البحر في سباحة يابانية شبيهة أخواتها في بحار دنمركة ، وظلت تمخر بنا عباب بحر اليابان طوال الليل وكان هادئاً جميلاً ، لكنه في الصباح فاجأنا بضباب كثيف أعقبه مطر وابل واضطراب غير مألوف أعاق سير السفينة فتأخرت ساعة عن دخول مياه فوزان ثغر كوريا الذي بدا ثغراً كثير الحركة ممدود الأرضفة غاصاً بالسكان يحكى ثغر بورسعيد عندنا .

**كوريا :** ( وتسمى شوزن ) ومعناها أرض الصباح الهادىء : قام بنا القطار صوب سيول عاصمة كوريا تلك التى وصلناها بعد عشر ساعات كاملات وكان الطريق كله جبلياً معقداً تفوق ذراه تلك التى فى اليابان لكنها أميل إلى الجذب إذ تكاد تكون عارية عن الشجر ، وكنا نرى مساح ممتدة مهملّة ، ويعزو اليابانيون ذلك إلى حكام البلاد الأوائل ، وتربة البلاد فقيرة على وجه العموم ، ويتخلل تلك الربى وديان تتلوى فى المنحدرات عجيبه وتفيض بالماء ، وفى كوريا ستة أنهار عظيمة طامية تفوق تلك التى فى اليابان نفسها طولاً وعرضاً وغالبها يجف موسم الجفاف عند ما يقرب الشتاء ، وفى بطون تلك الوهاد تقوم



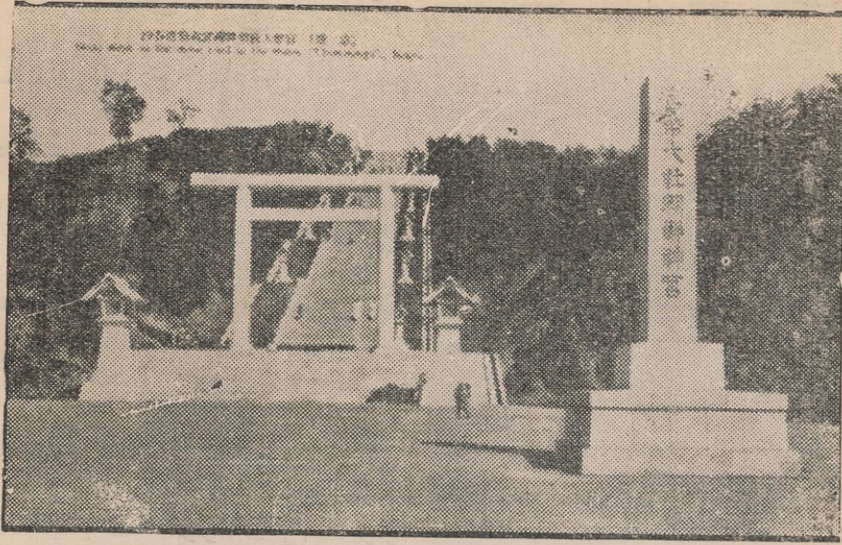


(شكل ١٠١)  
على شرفة مقصورة الحفلات في قصر سيول  
(كوريا)

القرى في أخصاص تتجمع في تراحم  
كثيف ، ويبنى هيكلاها من الخشب  
تكسوه طبقة من الطين ، والسقوف  
كأنها الأهرام أو النواقيس من قش  
الأرز ، وهي فقيرة قدرة ، والطرق بها  
ردیئة لا تخلو من الأوحال ، والبلاد  
عديمة السهول فهي في جملتها وهاد على  
جوانب الوديان تزرع من الأرز  
والفول والتوت ، والفقراء هناك يأكلون  
الذرة أما الأرز فلا غنىء ، وأهل كوريا  
أطول قامة ووجوهاً من اليابانيين ،  
وهؤلاء أخلاط لأن سكان اليابان  
الأصليين كانوا من الأقزام ، ثم جاء  
الأيانو وطاردوهم ولا تزال منهم بقية

في جزائر كوريل تناهز الألف ، وفي سخالين كذلك وفي هوكايدو تناهز خمسمائة  
وغالب الظن أنهم قوقازيون يعزز ذلك لونهم الأبيض وشعرهم الغزير وهم زحفوا  
من الشمال ، أما من الجنوب فوفد على اليابان شعوب الملايو الذين يظهر أثرهم في  
نظام المساكن التي لا تزال تحافظ على هندسة الملايو ، وكذلك في ميلهم للاستحمام  
بالماء البارد ، وفي مهارتهم في السباحة ، وإلى هؤلاء يعزى ضعف أسنان  
اليابانيين لأنهم كانوا ولا يزالون يأكلون فاكهة خضراء ضارة اسمها (بيزم)  
وكانوا يخضبون الأسنان باللون الأسود تلك العادة التي كان يتبعها اليابانيون إلى  
وقت قريب — أما الأينو فمن عاداتهم إلى اليوم تخضيب الفم لا الأسنان — ومن  
الغرب جاء المغول عن طريق كوريا (ومن هؤلاء تعلم اليابانيون الاغتسال بالماء الحار)





( شكل ١٠٢ ) معبد شوزن أنغر معابد سيول

ومن كل أولئك نشأ الياباني الحالي ، ويعزز الصلة بأهل الملايو عادة اختلاط الرجال بالنساء تلك التي تحرم في بلاد الصين ، كذلك أثرها في اللغة فاليابانية والكورية خليط من الملايو وغيرها ، أما لغة الصين فلم تتأثر بها قط ، وقد عثر الباحثون على كثير من مقابر شبه سويسرية في كوريا دون اليابان مما يعزز علاقة الكوريين بأوروبا ، ولقد ظلت كوريا بين نار الصين واليابان وتعرضت لغزواتهما المتتابة .

ظل القطار ينهب الأرض بين تلك الجبال المعقدة التي كان يشقها بأنفاق لا حصر لها ، وكان جو يومنا جميلاً خفف من حره وابل المطر ، ذلك الذي يتأخر موسمه قليلاً عنه في اليابان ، وغالب الجبال هناك حديثة العهد تمتد امتداداً طويلاً مما يؤيد خضوع البلاد للضغط الشديد الذي تسببه أغوار البحار التي لا تزال تزيد قوة الخفض عمقاً من حولها إلى اليوم . وأخيراً دخلنا :

سيول : وهي كلمة كورية معناها العاصمة ويسمونها اليابانيون ( كيجو ) ومعناها العاصمة أيضاً ، والمدينة لا بأس بتنسيقها ، بها كثير من المباني الفاخرة والشوارع القيمة ، وإن كان خير مراقني سوقها الضيقة كثيرة الأضواء دائبة





( شكل ١٠٣ ) أزياء الرجال في كوريا وأعجب ما فيها قبعاتهم

الجلبة كأنها أسواق البلاد اليابانية ، على أنى بدأت ألاحظ أن ( السكيمونو ) أخذت في القلة إلى جانب تغير السحن والأزياء ، والأحياء الوطنية ضيقة قدرة تتصاعد منها الروائح المنتنة ، والصبية يلعبون بالأوخال ، وتعرض كثير من المأكولات في شكل تعافه الأعين من بينها شمام أصفر كأنه القثاء ، وخوخ كبير تعوزه الخلاوة ، وأهم بقايا سور المدينة القديمة بوابة ( ناندايمون ) أقيمت سنة ١٣٩٣ وكانت ترى بقايا السور وهي تهبط الوهاد وتعلو النجاد وكأنها سور الصين ، ومما استرعى نظري في ناحية من أمهات طرقها ناقوس عظيم ظل معلقاً في مكانه هذا تحت غطاء من خشب في الهندسة الصينية زهاء ٥٤٠ سنة ، وكان يندق في با كورة الصباح فتفتح أبواب المدينة ، وعند المساء فتوصد وبعد الساعة التاسعة مساء ليسرع الرجال إلى إخلاء الطرق للنساء كي يتريضن ، والويل لمن تخلف منهم ، ولعل أجمل ما هنالك :



القصر الشمالى : شيد خلال القرن الخامس عشر ثم احترق خلال الحرب اليابانية سنة ١٥٦٣ لكن أعيد سنة ١٨٥٠ بأمر الأمير ( تايون كون ) الذى أثقل كاهل الناس بالعمل ودفع الضرائب لإنجازه ، ويحيط به سور من حجر وخشب فى الخراط الصينى الجميل ، وفى وسطه تنتشر المقاصير الأنيقة وأجملها ثلاث : مقصورة العرش ومقصورة الاجتماعات ومقصورة الحفلات ، وهذه تتوسط بحيرة تصلها بالبرقناطر جذابة ولذلك سميت أحياناً بمنزل الصيف ، وفى حديقة القصر سفك دم آخر ملكة لكوريا سنة ١٨٩٥ وأحرقت جثتها ، وبجوارها المتحف التاريخى ويحوى مجموعة صغيرة من آثار كورية القديمة ، من حلى وأوانى وأسلحة وتمائيل ، وأهم معابد المدينة :

معبد شوزن : فوق ربوة مشرفة اعتليناها بسلم شاهق تحفه المصاييح الحجرية ، والمعبد أقيم على النظام الشنتوى ، ويبدو منظر المدينة من دونه رائعاً لأن ( سيول ) كلها فى وهدة تحيطها الربى ويطوق زهاء نصفها نهر هان الصغير يطل عليه متنزه ( نانزان ) الجميل ، ومن المباني التى يفاخر بها اليابانيون دار الحاكم أقيمت من رخام كوريا المجزع بديع النقش ، وكذلك دار البريد ودار البلدية .

وأول من اتخذ المدينة حاضرة له مؤسس أسرة ( يى ) فأحاطها بسور اشتغل فيه ١٩٠ ألف عامل لمدة شهرين فى الربيع ومثل هذا العدد من النساء فى الخريف حتى بلغ امتداده خمسة عشر كيلومترا وعرضه ستة أمتار وارتفاعه كذلك ، وما فتئت المدينة تتضخم حتى ناهز ساكنوها اليوم ثلث المليون ، وهم أخلاط من الكوريين واليابانيين والصينيين ، وأظرف ما يسترعى نظر السائح أردية الرجال والنساء ، فالأحذية من قماش أبيض يتلوى طرفها المدبب إلى السماء وجواربهم بيض يعالوها ( بنطلون ) وصدار للرجال وقد يرتدون فوق ذلك كله عباءة من قماش جامد متفتخ بما أشبع من ( النشا ) ورداء النساء كذلك ويزيد حزام ضيق





مما يزيد أشكالهم سخرية ، وقد ( شكل ١٠٤ ) حسناء كورية في رداؤها القومى كانت هذه أردية اليابان من قبل أن تظهر الكونو بشكلها الجذاب .

الى منشوريا : منشوريا قطر شاسع تقارب مساحته مساحة القطر المسمى بصحاريه أو نحو ثمانية وعشرين مرة قدر مجموع أراضيها المنزرعة ، وتربتها من أخصب أراضي الدنيا وهي أكثر بلاد الشرق الأقصى ملاءمة للزراعة إذ لا تقل الأراضي الصالحة للزراعة عن نصف مساحتها ، أى نحو سبعين مليون فدان ، وأخص ما ينمو هناك اليوم نوع من الفول اسمه ( صويا ) عظيم المادة المغذية ( ٤٠ ٪ بروتين ) ولزيتته قيمة كبيرة ، وقد فاق الصادر منه أخيراً مليون طن في العام ، ومن الغلات الهامة الحبوب الأخرى والطباق والكتان والحرير ، ومراعيها لا تقل عن ١٥ مليوناً من الرؤوس ، وغاباتها تكسو ٢٥ مليون فدان ،



هذا إلى دفائنها المعدنية الهائلة ، فالفحم يمتد في طبقات سميقة وبعضها يعلو إلى سطح الأرض ، ويعمل المعدنون فيه في الهواء الطلق ، ولقد كان لسكة حديد منشوريا أثر عظيم في بدء التقدم الاقتصادي في تلك البلاد الغنية التي أُنشئت مطمح أنظار كبار الممولين من اليابان وأمريكا .

وها نحن نرى ما جرته المطامع من حروب لا تزال مستعرة إلى اليوم ، ومجموع سكان البلاد ٢٥ مليوناً ، تسعون في المائة منهم من الصينيين ، والنقود الصينية هي المتداولة في أنحاء البلاد عدا المنطقة اليابانية على طول الخط الحديدي وفي مكدن العاصمة حيث تستعمل النقود اليابانية والكورية .

ولا نعلم عن ماضى منشوريا البعيد شيئاً سوى بعض الغارات التي كان يشنها القبائل تباعاً هناك ، وفي سنة ١٢٦٠ ضم جنكيز خان البلاد للصين وزاد نفوذ المغول وأسسوا دولة المانشو ، وفي سنة ١٦١٦ قام أحد أبنائها (نولوهاشي) وفتح مكدن وحارب الصين ، ثم جاء خلفه ففتح كوريا وسمى أسرته (تسنج) أى أسرة الأصفياء ، أعقب ذلك اضطراب في الصين ، لم يسعها إزاءه إلا أن تطلب معاونة المانشو الذين فتحوا بكين وآل الملك إليهم سنة ١٦٤٤ وظل في أيديهم ٢٩٦ سنة ، على أن الدم الصيني ساد أهل منشوريا بحيث لا يكاد يفرق المرء اليوم بينهم وبين الصينيين في السحن والعادات والأخلاق . وفي القرن التاسع عشر امتد النفوذ الروسى إلى المحيط الهادى وأقيمت سكة حديد سيبيريا إلى فلاديفستك وعلى أثر حرب الصين مع اليابان تدخلت روسيا ومنحت امتيازاً بمد سكة حديد شمال منشوريا وقطعة من كوانتونج ، وبعد ذلك بعشر سنين هزمتها اليابان فتنازلت لها عما تملك فأضحى مال اليابان اليوم هناك ١٣٠٠ ميلاً مربعاً ، يضاف إلى ذلك منطقة السكة الحديدية إلى پورث آرثر ودايرن إلى أجل ٩٩ سنة ، وللشركات اليابانية هناك من السكك الحديدية ٦٨٦ ميلاً إلى ذلك كثير من الفنادق والمصانع والمنشآت الاقتصادية ، وهى بحاجة المحافظة





( شكل ١٠٥ )

البوابة الرئيسية في مكدن عاصمة منشوريا

على كل أولئك تبرر موقفها ضد  
الصين في النزاع الذي نقرأ عنه  
اليوم .

قت إلى مكدن عاصمة  
منشوريا فوصلتها في ثلاثين ساعة  
وخلفت ورأى سيول بأزيائها  
المختلفة من يابانية جذابة وكورية  
مضحكة وصينية منفرة ، فأخذ  
القطار يخترق أنفاقاً لا حصر لها

وسط جبال معقدة تشققها الوديان تكسوها الخضرة ، وكان يظهر على أهل البلاد  
الجهل المطلق والفقر المبيد في قذارتهم وكثرة السابلة والمتسولين ، وكنا كلما قاربنا  
منشوريا انفسحت السهول وظهر نبات الذرة والفول ونادر الشجر ، ولم تكد  
تغيب الجبال عن الأنظار إلا قرب مكدن حين أخفت المناظر شبيهة بمناظر مصرنا  
الغالية ، والسكان هنا أندر منهم في كوريا وفي اليابان يؤيد ذلك  
قلة القرى والمساكن التي كنا نجوزها ، وبمجرد أن اجتزنا الحدود عند (شنجيشو)  
أخرنا ساعاتنا واحدة كي نتمشى مع زمن الصين ، وهنا أقبل رقباء الجمارك وقتشوا  
الحقائب في رفق ثم عبرنا نهر ( يالو ) وهو الحد بين القطرين وبدأت بيوت  
منشوريا بالحجارة والطين ، أما الخشب فنادر لندرة الشجر هناك والمروج لمرعى  
الخيول والماشية مترامية ، وكان بعض القوم يحرقون الأرض بمحاريت تجرها الأبقار  
على الطريقة المألوفة في مصر وأخيراً عبرنا نهر كونجا من أكبر أنهار منشوريا  
ثم دخلنا :

**مكدن :** ويسمى اليابانيون ( فنجيتين ) يفوق سكانها مائتي ألف وهي

ثلاثة أقسام البلدة الحديثة أو اليابانية وعددها ٩٠٠٠ وقد أقامت اليابان على مقربة



من محطة سكة الحديد التي أرغمت الصين على تركها لها بعد الحرب الروسية هي وماجاورها من الأرض وتليها شرقاً المستعمرة الأجنبية وتعدادها ستون ألفاً وبها مساكن الأجانب وغالب القناصل وإلى شرقها المدينة الصينية القديمة يحوطها سور عظيم له بواباته العاتية التي لم تفتح أبوابها للأجانب إلا سنة ١٩٠٦ وهي مسقط رأس أسرة المانشو التي سادت الصين لمدة ٢٩٦ سنة حتى قامت اليوم على أنقاضها الجمهورية الصينية وها قد أعلنت اليابان الجمهورية في منشوريا تحت حمايتها وترأسها امبراطور الصين السالف فان تم ذلك نهائياً انفتح المجال أمامها لاستغلال تلك البلاد المترامية ويتوسط المدينة قصر عظيم الامتداد في هندسة صينية ، وفي داخله متحف حوى بعض مخلفات تلك العصور ، وطرق المدينة متربة قدره ودورها واطئة متهدمة ، وهنا أذكر أننى هممت بأخذ صورة للسور ، وإذا بالجندي يقتادنى قهراً إلى دار البوليس وبعد تحقيق طويل وحركة صاخبة فى التلفون تركت لهم عنوانى وأفرج عنى بعد أن أخذوا عهداً ألا أعود للتصوير قط ، وكان يخالنى البوليس انجليزياً ، فلما علم أنى مصرى تسامح معى كثيراً وذلك يظهر مبلغ تقمتمهم على الأجانب ، أما المدينة اليابانية ففاخرة فى مبانيها وطرقها ، وقد أقاموا فى أكبر ميادينها نصباً تذكاريّاً لاحتلال اليابان للمكان وتكاد تكون فى هندستها ومتاجرها وأضوائها يابانية صرفة ، حتى أسماء المتاجر وإعلاناتها تكتب باليابانية وهنا بدت النزعة الاستعمارية الجائرة التى تنتجها اليابان ، أما شبان الصين فحائقون أشد الحنق عليهم وعلى سائر الأوروبين والأجانب ولهم فى ذلك الحق لأن بقاءهم لا شك يחדش عنيتهم القومية وأظهر الأجانب فى المدينة من الروس الذين يسهل مجيئهم عن سكة حديد سيبيريا ، ومما راقنى خارج السور برج صينى ( باجودا ) يرجع عهده إلى ألف سنة فى اثنى عشر طابقاً وهو مائل ونصف متهدم وترى على جوانبه بعض التماثيل الفنية لبودا وهى بارزة ، ومن الأماكن الجديدة بالزيارة مدافن أسرة المانشو على ربوة تكسوها الأحراش وأجلها مقبرة الامبراطور تاتسوچ





(شكل ١٠٦) سيدات منشوريا وأعجب ما في ملابسهن رداء الرأس

ثاني حكامها يحوطها سور عظيم وفوقها نصب نقشته عليه فضائل الموتي ، وتقوم على شبه سفينة من حجر تحتها المدفن وحولها عدة مقاصير وتماثيل لحيوانات مختلفة تشعر بالرهبة خصوصاً إذا دخلنا الباب الأول ثم ارتقيناً منه إلى الثاني ثم علونا إلى الثالث في مسافات مترامية .

والأحياء الوطنية قدرة تكسو طرقها طبقات من تراب تغوص فيه العجلات ويشور فيظمر كل شيء والناس في قذارة والأطفال عراة يعبتون بالأتربة والأحوال والعاطلون في كل مكان وسياء الفاقة تبدو على وجوههم جميعاً والمتسولون لا يحصون عدداً .

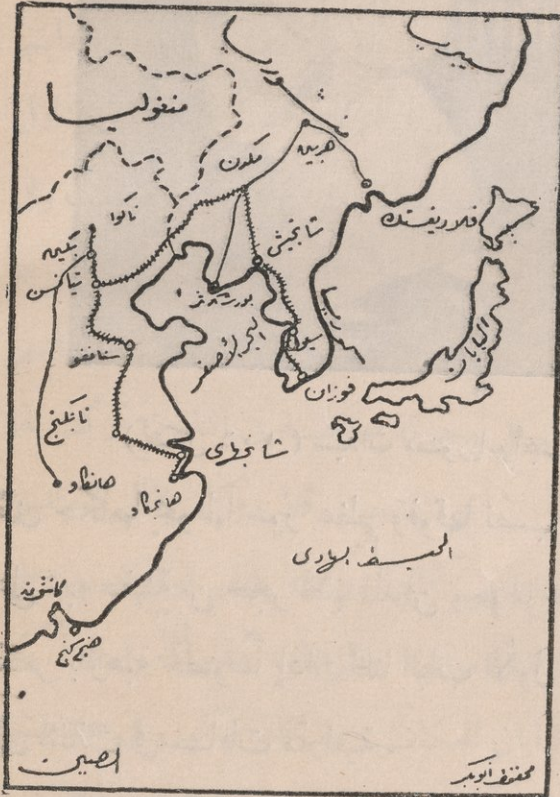


# الصين

## بلاد العجائب والأسرار الغامضة

### نبذة تاريخية :

لم يدون لنا التاريخ شيئاً عن الصين قبل سنة ٧٧٠ ق م لكننا نعلم من طريق الرواية والتقاليد أن أبناء هان حلوا الهوانج هو وقام عليهم زعماء أشداء علموهم فلاحه الأرض ومبادئ الحضارة ، وفي سنة ٢٦٩٧ ق م أدخل امبراطورهم الكتابة واخترع الطباعة وعلمهم بعض أنغام الموسيقى ، ومد نفوذه إلى البحار الشرقية شرقاً وإلى



اليانج تسي جنوباً وتبعه حاكمان (تاءوتى وستون تى) أقاموا الأسواق وقاوموا الفيضان ووسعوا نطاق الامبراطورية حتى أن كنفوشيوس قدسهما فيما بعد وعدهما مثال الفضيلة والحكمة وعد هذا العصر الزاهر (عصر الصين الذهبي) .

أعقب ذلك عصر ارباب ومظالم تحت أسرة هسيا لمدة ٤٣٩ سنة تبعها أسرة شانج التى أعادت النظام بعض الشيء وحكمت ٦٤٤ سنة ، ثم جاءت أسرة شوالتي وحكمت ٨٦٧ سنة فقام وووانج وقسم البلاد على أقربائه وقواده ومنحهم ألقاب شرف عديدة ، وهنا ازدهرت الفنون والآداب وأصبحت البلاد زراعية





(شكل ١٠٧) أمام مقصورة العرش  
في المدينة المحرمة ( بكين )

وأنمحت آثار البدوكلية ، وهذا  
يعد عصر الأدب الذي اتخذ  
كنفوشيوس نموذجاً لمثله العليا .  
كثرت غارات البرابرة فاستقلت  
الاقطاعات عن الحكومة الامبراطورية  
وسادت الفوضى وعم الفساد ، فقام  
كنفوشيوس يبشر بفضائله سنة  
٥٥١ ق . م ، وكذلك لاوتسى  
ومنشوس .

وفي ٢٥٥ ق م قامت أسرة شو  
فألغى الامبراطور النظام الاقطاعي  
وقسم البلاد إلى ٣٦ مديرية يديرها  
حكام يعينهم هو ، وهنا أقيم السور  
الأعظم ليرد البرابرة ، وقد أحرقت

كتب الأدب وقتل مئات من أتباع كنفوشيوس لمعارضتهم لتلك السياسة ،  
فأهاج ذلك غضب الشعب ، وخاعوا تلك الأسرة وأقاموا ( ليوبانج ) مؤسس  
أسرة هان ، فازدهر الأدب ، وامتد سلطان البلاد ، خصوصاً تحت الامبراطور  
وو تي ، وقد فتحت المواصلات مع الهند لأول مرة فدخلت البوذية سنة ٦٧ م  
واستعبدت تعاليم كنفوشيوس ونقشت على الصخور وبدأ استخدام المداد والورق  
وأقيمت المكتبات ونبغ كثير من العلماء ، وفي أخريات تلك الأسرة ثار عليها  
( ثلاثة قواد حكموا البلاد وطوحوا بها إلى الفوضى وسمى عهدهم ) عصر الممالك  
( الثلاث ) حتى جاءت أسرة تشن بين ٢٦٥ — ٤٢٠ ، وفي عهدها هدد الهون  
والروم البلاد وأوفد رسول من القسطنطينية إلى عاصمة الصين وقيل أن تسمية

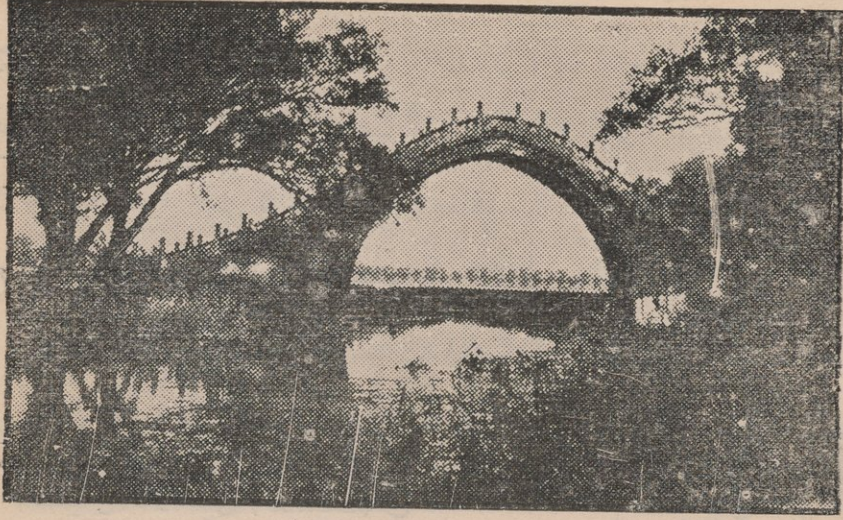


البلاد (الصين) ترجع إلى اسم تلك الأسرة وهي أول من اتصلوا بالعرب والفرس والهند وقال بعضهم ان الاسم محرف عن (تسان) أى الحرير أو أرض الحرير ، وأعقب تلك عدة أسرآت صغيرة ظلت ٢٠٠ سنة وآخرتها (أسرة سوى) وهي التى حفرت القنوات العدة لتصل بين الأنهار المختلفة ، وفى هذا الزمن نقل رهبان أوروبا صناعة الحرير لأول مرة إلى جنوب أوروبا ثم جاءت أسرة تانج ٦٢٠—٩٠٧ وثانى ملوكها نشر العدالة والعلوم وأصلح قانون العقوبات ورد جنوده البواسل هجمات البرابرة والأتراك ، وفى مدتهم امتدت الصين من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ووفد السفراء من الروم والفرس واليابان وكوريا فانتعشت التجارة بينهم وقد شجعت الطباعة بالحروف نشر الأدب وبلغت الحضارة شأوها .

وتبع ذلك خمس أسرآت ضعاف جاءت بعدها أسرة سونج (٩٦٠ إلى ١١٢٧) فكافح أول حكامها (تاي سو) عشرين عاماً ليوحد البلاد وسمى عهده (عهد أوغسطس الصين) ولكن سرعان ما هاجمهم طوائف من التتار (تشي ثان) وبعدهم (نوتشين) ، ثم خضع الجميع لجنكيز خان الذى اجتاح المديريات الشمالية برجاله البواسل من المغول فمهد السبيل لحفيده كوبلاخان الذى أسس أسرة يوان سنة ١٢٦٠ وظل هؤلاء الأجانب حكام الصين لمدة ١٠٧ سنة فوظفوا كثيراً من الأجانب من بينهم ماركو پولو الذى أعطى أوروبا أول فكرة عن الصين وأخضعوا الصين كلها وكوريا وجزءاً من الهند الصينية وحاولوا فتح اليابان لولا عاصفة أودت بأساطيلهم ، على أن الصينيين تخلصوا من هؤلاء الأجانب وأقاموا أسرة :

منج (Ming) ١٢٣٠ — ١٣٦٧ : التى أعادت النظام وعاضدت الفن والأدب ، ونشرت مذاهب كنفوشيوس حتى جاءت أسرة (تشنج Ching) من منشوريا تؤيد الأسرة السالفة لكنها سلبتها الحكم (١٦١٦ — ١٩١٢) ، واتبعوا نظم الحكم القديم حتى قامت الجمهورية سنة ١٩١٢ بقيادة الدكتور





( شكل ١٠٨ ) قناطر الصين الحديثة

( سان يات سين ) الذى أهاج الشعب ضد المانشو فقامت الثورة ولجأ المانشو إلى بكين ، وتركوا أمر الحكم للجمعية الوطنية ، فانتخب الدكتور رئيس الجمهورية وأشرك الامبراطور وقائده يوان شى كاي فى الحكم ، لكن بعد استعفاء الدكتور تأمر الامبراطور على استعادة مركزه ، لكنه فشل بفضل مقاومة الشعب من جهة ، والأجانب من جهة أخرى خصوصاً تدخل اليابان وتقديمها مطالبها الإحدى والعشرين سنة ١٩١٥ . وبعد موت يوان ( ١٩١٦ ) قامت الجمهورية فى بكين ، لكن الدكتور سان أقام حكومة معارضة لها فى كانتون ، وانضمت الصين للحلفاء فى الحرب الكبرى ( ١٩١٧ ) ، ونظير ذلك قاوم الحلفاء نفوذ اليابان فى الصين ، لكن حكومة الصين ظلت ضعيفة أمام القواد الحريين الذين لا يزالون يقتتلون إلى اليوم ، على أن الحكومة الوطنية أوشكت أن تتم انتصاراتها ، ويزيد الشعور بالقومية يوماً فيوماً ، والنفور من الأجانب بالغ أشده ، وهم يطالبون بإجلاء الأجانب كلهم عن بلادهم جميعها . ومن الحوادث التاريخية الهامة التى حدثت فى الصين حديثاً :

حرب الأفيون ( ١٨٤٠ — ١٨٤٢ ) : حين قاومت الصين دخول الأفيون



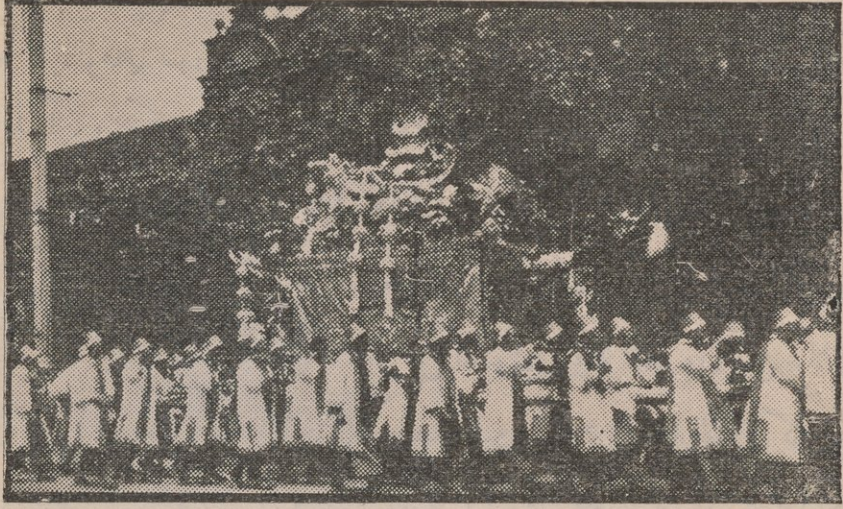
إلى بلادها ، فأنلفوا ٢٠ ألف صندوق في كمتون ، فتخرجت الحالة بينها وبين  
التجار ، ووقعت لذلك الحرب بين الصين وانجلترا ، فهزمت الصين وأجبرت أن  
تدفع ستة ملايين من الريالات ثمناً للأفيون و ١٥ مليوناً على سبيل الغرامة ، مع  
ترك جزيرة هنج كنج لانجلترا ، وفي معاهدة نانكينج هذه أرغمت الصين على  
فتح ثغورها للتجار الأجانب ( خصوصاً كانتون وشنغاي وفوشو ) .

حرب اليابان ( ١٨٩٤ — ١٨٩٥ ) : قامت بسبب المنافسة على امتلاك  
كوريا ، وكان النصر حليف اليابان ، لكن الحلفاء وقفوا في سبيل مطامعها .  
عصيان الملاكمين ( Boxer ) في سنة ١٩٠٠ قام الصينيون بطرد الأجانب  
الذين هددوا الوحدة الصينية ، إذ امتلك الألمان كياوشاو ، والروس پورت آرثر  
ودايرين ، وبريطانيا واى هاى واى و ٥٠٠ ميل في كولون تجاه هنج كنج ،  
وفرنسا كوانج شاووان ، تجاه جزيرة هينان ، فهاجموا الأجانب وحاصروهم  
لكنهم هزموا .

وفي حرب اليابان مع روسيا ( ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ) احتلت اليابان سكة  
حديد منشوريا وضمت كوريا نهائياً .

الى بكين : ( ومعناها العاصمة الشمالية ) ، حلت الدرجة الثانية من القطار  
السريع فبدت قدرة منفرة غالب ركابها من الأجناد والرعاع ، ومقاعدھا من  
خشب قاسٍ ممض ، وكان القطار يطيل الوقوف على جميع المحاط ، وكنا نرى  
صفوف الجند شاهري السلاح طوال الطريق وإلى جوار سائق القطار وعند مدخل  
كل عربة مما أشعرنى بأن البلاد تتحفز لحرب حامية الوطيس ، وهى تلك الحرب  
الطاحنة التى تدور رحاها اليوم فى تلك البقعة من منشوريا ، أما مناظر الطريق  
فظلّت سهولاً طوال الطريق تكسوها منابت الذرة والفلول ، وكلما أوغلنا فى البلاد  
زاد البؤس والشقاء ، وكنا نرى صفوفاً من المتسولين يصيحون استجداء فى جلبه  
منعجة كلما وقف القطار ، وكان يلفت النظر استدارة أدمغة القوم ، تلك التى





( شكل ١٠٩ ) النعش المرصع يسير في حفل كبير

بدت متحدرة الجباه مشطورة الخلف بدرجة تثير الدهشة ، هذا إلى تباعد بصيالات الشعر الذي ينمو في استقامة كأنه شوك القنفذ ، ولذلك اضطر كل من يرسل شعره إلى استخدام الأدهنة المليئة حتى يبدو أملس براقا ، وتلك مميزات الجنس الأصفر المغولي .

وكم كانت تضايقي كثرة البصق والتجشي والتخيط في كل مكان وبين كافة الطبقات في شكل تشمئز منه النفوس ، كذلك الخشونة التي كانت تبدو في طباع الناس ، وشتان بين آداب اليابانيين السامية وجفاء هؤلاء .

بكين : أو بييين ( Peipin ) كما تسمى اليوم ، ومعناها السهل الشمالى : بعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا بكين عاصمة بلاد الصين بعد أن اخترقنا سورين من أسوارها الشاخنة التي أقيمت من الآجر الأسمر الكبير ، وبدت بعض بواباتها الضخمة التي تتلاشى أمامها بوابة (زويلة والفتوح) عندنا . هنا أقلتني (ركشا) بحقائبي إلى النزل لأنني لم أكد أعر على سيارة لندرتها في تلك البلاد بسبب مزاحمة الإنسان في الجر والحمل لها . تفقدت خريطة بكين فإذا بها مدينتان



المدينة التتارية والمدينة الصينية ، يفصل بينهما سور ضخيم ومساحتها معاً ٢٥ ميلاً مربعاً ، يطوقها سور من بناء أصم . سور المدينة التتارية يمتد ١٣ ميلاً ، وعلوه ٣٧ قدماً ، وسمكه بين ٦٤ و ٥٢ ، أما الصينى فأصغر قليلاً ، و بين كل ١٨٠ قدماً شبه قلعة ، وتحترق الأسوار ١٦ بوابة ، يواجه كل بوابة بناء نصف دائرى تقوم عليه الأبراج السامقة بنوافذها المساحة ، وقد علمت أن كل مدنها تقام على هذا الأساس ، وهذا قسم خاص بالتتار من السودين وهم المغيرون من سلائل المانشو الذين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالصينيين ، وهم الرعايا الذين كان عليهم أن يأتروا بأمر التتار ويلقبون ( بعبيد التتار ) ، وعلى الصينيين أن يمتثلوا أهل المدينة التتارية بالغذاء والضرائب رغم أنهم قد يبلغون العشرين ألفاً ، وقد عرف أولئك التتار أخيراً بالخنول والكسل : فهم يحتقرون العمل ويرونه خاصاً بمن هم دونهم مقاماً من الصينيين ، لذلك كنا نرى بقاياهم يقتلون وقتهم جلوساً أمام دورهم يدخلون غلايينهم ويبد كل قفص يضم مهوراته ( غيته ) المحبوبة من الطير ، حتى النساء اللاتي يسرفن فى التدخين حتى فى سن العاشرة ، وقد قيل إن متوسط ما تستهلكه السيدة من الطباق عشرون سيجاراً كبيراً فى اليوم ، ذاك الطباق الحار القوى الذى يخلف أثره السيئ فى صحتهم وفى فساد رائحة أفواههم جميعاً .

ظل أهل الصين خاضعين لهؤلاء الدخلاء من سلائل المانشو من التتار خضوعاً مخزياً يدل على انعدام روح المقاومة بينهم تلك التى نشطت قليلاً أوائل القرن الحالى وبدأت فى شكل ثورة سنة ١٩١١ حين هاجمهم الصينيون وأبادوهم وذبخوا أبناءهم وتخلصوا من نيرهم إذ كانوا يعيشون عائلة عليهم .

والمدينة التتارية تقام فى شكل ( حدوة الفرس ) تقديراً لخيالهم وتفاؤلاً بها لأنها مطيتهم التى أغاروا بها على البلاد لما أن وفدوا من صحارى القرغيز ومنغوليا ويتوسط المدينة عادة بيت القائد تودى الشوارع الرئيسية إليه ، وتنتشر حوله المعسكرات .





(شكل ١١٠)

على سلم معبد السماء أثغر آثار بكين

وفي بكين تتوسط المدينة  
التتارية مدينة أخرى يسمونها المدينة  
الأمبراطورية لها سورها الخاص ،  
وكانت مقر الأسرة والحاشية وكبار  
رجال الدولة ، ومن داخل هذه أيضاً :  
المدينة المحرمة مركز الدنيا في زعمهم  
يتوسطها عرش التنين ذائع الصيت  
ذاك الذي جلس عليه ملوك المغول  
والصين والمانشو على التعاقب وحوها  
سور من الخزف الأصفر البراق .

بدأت جولاتي بالمدينة المحرمة  
وذرعها ٩٠٠ متراً في ٧٠٠ ، بواباتها  
الأربع التي تخترق السور البراق  
تؤدي إلى مجموعة لا حصر لها من

مقاصير في الهندسة الصينية الجذابة ، تكسى سقوفها المنحدرة المقوسة بالخزف  
الأصفر ، ويتخلل حديقته الفسيحة المتسعة قنوات عليها قناطر محدبة من رخام  
أبيض ساطع ، بناها الأمبراطور (Yonglo) في القرن الخامس عشر ، واتخذت  
مقراً للأمبراطور وأسرته وكانت محرمة على الجمهور إلى سنة ١٩٠٠ حين دخلها  
الأوربيون عنوة وأرغموا الصين على فتحها للجميع ، وأخر الحجرات : حجرة  
العرش وحجرة الولايم وحجرة المعرض ، تتقدمها جميعاً الردهات من الرخام ، نعلوها  
بسلم فاخر وفي قلب الغرفة الوسطى عرش (التنين) المشهور في خرط من الخشب  
المرصع والمقاصير الخلفية كلها كانت مسكن الأسرة والحاشية ، وهي اليوم معارض  
بها من النفائس الفنية القديمة ما قدر بثلاثين مليون ريال ، من بينها أشغال الخرط



الممتازة وتماثيل من أحجار كريمة وساعات مرصعة وخرط مطعم من العاج والخشب وحروف الطباعة القديمة وآلات موسيقية من بينها ( بيان ) كأنه ( القانون ) من أوتار سبعة يرجع عهده إلى ١٥٧٣ ثم مجموعة من أسلحة ودروع وسروج ، والمفروشات قيمة لدرجة تشهد للصين بالماضى الجيد وتخلد اسمها في عالم الفن ، وبخاصة أعمال الخزف رصعت بالمعادن ، وازدانت بالجواهر في زخرف وإتقان لا يكاد يصدق العقل ، وهناك قسم للتصوير والنقش على الورق والحرير والخشب بعضه بالألوان والبعض بالتطعيم إلى كثير من المخطوطات الصينية القديمة ، ومما أدهشني معروضات الشبة ( البرنز ) التي ترجع إلى سنة ١٧٦٦ ق م . ورغم ذلك فهي تكاد تحكى إتقان عصرنا هذا .

وفي جانب من المكان حمام لخليلة الامبراطور Chiang Lung وكانت مسلمة اسمها Hsiang Fei وهو شبيه بالحمام التركي مقبى السقوف تحوطه مقاصير متداخلة وكلها من الخزف البراق ، وبالإيجاز فالمدينة ساحرة جذابة الهندسة جديرة بسكنى الجبابرة الأولين ، وفي ركن من أركان المدينة المحرمة قسم كان يسكنه ( كوبلاخان ) نفسه ويسمى ( المدينة المستديرة ) ، وخير ما هنالك تمثال لبودا من حجر اليشب ناصع البياض براق في حفر بديع وتقاطيع جذابة ويعد من الخلفات الفنية النادرة حتى قيل إنه وحده يبرر زيارة لبكين من أقصى الأرض .

معبد كنفوشيوس : عظيم الرحاب وعديد المقاصير التي أقيمت للتعبد وطلب العلم والحكمة يتوسطها الهيكل وبه لوحة نقش عليها اسم كنفوشيوس أخص معبودات الصين وتحوطها في جوانبها ألواح أخرى عليها أسماء البراطرة الذين تعبدوا طوع تعاليمه وقد ألقت نظري في المدخل تسعة طبول ضخمة من صخر عليها نقوش صينية منذ أسرة شو ( ١١٢٢ ق م ) ، وفي فناءه الشاسع بهو الحكمة





( شكل ١١١ ) محكمة صينية ويقف الجلادون إلى جانب المتهم تهديداً وإرهاباً

Hall of Classics بأعمدته الممتدة ، وهناك ترى بقايا كتب كنفوشيوس نقشت على ألواح الحجر .

وكنفوشيوس فيلسوف عاش في الصين بين ٥٥٠ و ٤٧٨ ق م كثرت في عهده الجرائم وانحطت أخلاق الناس فقام يبشر بالفضيلة على أنه لم يدع أنه مكلف بتبشير رسالة آلهية فجمع تقاليد أجداده وصاغها في قالب أدبي فلسفي ، وكان يعنى بصفة خاصة بالروابط الاجتماعية ويحتم تقديسها ، وكان يقول بأن المجتمع نظام آلهى يقوم على خمس : علاقة الحاكم بالرعية والزوج بزوجه والوالد بابنه والأخ الأكبر بأخيه الأصغر والصديق بصديقه ، وكان يفرض في تعاليمه وجوب الطاعة في غير مناقشة وبخاصة في العلاقات الأربع الأولى كما يحتم على الحاكم العدل والرحمة والاخلاص ولم يشرف في تعاليمه إلى آله خاص ، وكان ينصح تابعيه أن يترفعوا عن التفكير في عالم الأرواح وألا يتوقعوا شيئاً في الدار الآخرة ولقد كان لتعاليمه كثير من الفضل على الصين من ناحية الأخلاق لكنه قتل فيهم الطموح والنظر إلى المستقبل وهو أس النهوض فخلف فيهم مدينة راكدة ظلت

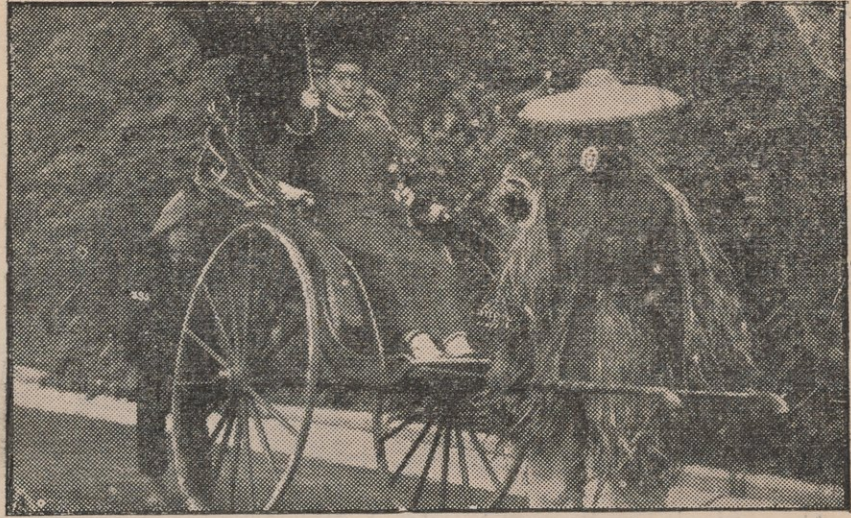


أجيالاً ولم تخط إلى الأمام قط ، ولا زال أساس التعليم هناك يقوم على وصاياه وكتبه الأدبية الفلسفية ، وكان ولا يزال يستظهره الجميع حتى الأطفال المبتدئون ، على أن عهد الجمهورية الحديث بدأ يدخل شيئاً من التغيير على هذا النظام العتيق .

قصدت أحد المعابد البوذية واسمه معبد (الأمّا) وهو أحد المذاهب البوذية الذي يستمد الوحي من المعبد الرئيسي في هضبة التبت ، وكانت قد حلت البلاد منذ أسرة (يوان) ، وكان القسس يلبسون الأردية الحمراء لكن حولها براطرة (المنج) إلى الأردية الصفراء ، ومن هنا سميت أحياناً بالديانة الصفراء ، أما كلمة لاما فمعناها (سام) في لغة التبت ، وأول ما ظهرت الديانة البوذية في القرن الأول الميلادي محاولة أن تتم النقص الذي أهمله كنفوشيوس وبخاصة جانب القيام بالشعائر وجانب الرجاء في ثواب الآخرة ، ولقد اعتنقها كثير من عامة الشعب وترى معابدها في طول البلاد وعرضها لكنها مهملة والقسس فيها جهلة يحتقرهم الأغلبية وبخاصة الطبقات الممتازة ، وما هي في نظرهم إلا الشعوذة بعينها .

دخلت المعبد — ويخالونه مقرر روح بودا — فبدت مداخله رائعة ممتدة ، وتتوسط فناءه تماثيل لحيوانات بشعة غريبة ، وفي الوسط تمثال لبودا نحت في جذع شجرة واحدة ، وعلوه ستون قدماً ، ورأينا كثيراً من المباخر من الحجر والبرنز ، وعجلة التعبد النحاسية التي تدور بانتظام وتعطى أصواتاً في فترات متساوية يمكن للمتعبدين أن يقرأوا أورادهم وراءها ، وصادف أن كنا هناك الساعة السادسة مساءً ، وهي ساعة الصلاة ، فرأينا جموعاً غفيرة من الأطفال والشبان والكهول يخرجون من سراديبهم وعليهم العباءات الصفراء ، وفوق رؤوسهم قبعات كأنها عرف الديك أو منقار الببغاء ، ثم أقبل رئيسهم وهم جلوس تحت أقدام بودا وأخذ يطوف بهم وبالتمثال ويصيح صيحات مزعجة وهم يرددونها وراءه في مشهد رهيب ، وأذكر هنا وأنا خارج أن أقبل قسيس يعرض على قطعة من حرير منقوشة ادعى أنها أثرية قديمة وكان يخفيها بين طيات ثيابه مدعياً أنه سرقها ويرجوني الإسراع في





( شكل ١١٢ ) أحد عليّة الصين يركب ( الرّكشا )

البت في شرائها خشية أن يراه أحد وهو زعيم ديني ! فقلت : يا الله ! إلى متى يعيش الإنسان في تلك الظلمات ؟ طائفة من الدجالين يحتمون تحت ستار الدين فيعيشون عالة على بسطاء العقول ، وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ، وأخص ما يسترعى نظر علماء الاجتماع في غالب عقائد الصين أنها تحتم الطاعة العمياء لرجال الأدب وللمتقدمين في السن وبخاصة الآباء ، حتى عدت أرواحهم مقدسة بعد مماتهم ، فكان من سيئات ذلك أن هم كل فرد بالزواج المبكر كي يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يحيون ذكراه ويوفرون لروحه السعادة بما يقدمونه من قرايين ، ومن لم يستطع القيام بذلك لفقره وجب على المحسنين أن يعينوه بمالهم حتى يستطيع أداء واجبه ، ومن لم يعقب اضطر أن يتبنى من ذرية الغير ، لذلك كثرت ذرائعهم إلى درجة جعلت تنازع العيش بينهم ممضاً ، ذاك التنازع الذي أدى إلى سياسة الابتزاز الممقوتة التي عرف بها أهل الصين جميعاً ، فكل فرد يحاول ابتزاز المال ممن هو دونه ، وكان مجال الرشوة لديهم في كل الأعمال فرضاً لازماً حتى ضاعت في سبيلها قوميتهم وفترت حماسهم الوطنية ، هذا إلى اعتقادهم في العفاريات التي أثرت حتى في أبنيتهم فلا يصح أن يعلو البيت جاره ،



ولا أن تقام القناطر إلا ملتوية محدبة ، وأن تلتوى السقوف في أطرافها إلى السماء ، كل ذلك دفعاً للجن ، ولعل لذلك الخوف أثره في إهمال التعدين ، خشية إزعاج الجن في بطن الأرض ، ويرمى الأجانب أهل الصين بأنهم أسرى مواتهم : فالولد يجب عليه أن يعرض التابوت الذي سيدفن فيه والده بعد موته في أفر ردهة من البيت ، ولا يفتأ يزيد فيه نقشاً وترصيعاً ، وكثيراً ما يستدين الولد كي يفي بهذا الواجب المقدس فإذا مات الأب اشترى له ماء الغسل من الخارج وارتنى المشيعون القماش الأبيض واستشير العرافون في تخير ميعاد يلائم الدفن ، ولذلك فكثيراً ما تبقى الجثة في البيت طويلاً ، وإن حل بالعائلة سوء عزوه إلى سوء اختيار مكان الدفن وميعاده وعندئذ يحمل التابوت عشرات من الناس يتقدمهم حشد يحمل كل لوحة نقشت عليها ألقاب المتوفى ومزاياه ويجب أن يكون مظهر الجنازة فاخراً مهما كلفهم ذلك وإلا كان عاراً لا يحى ، ومن أعجب ما لاحظته بين المشيعين طائفة تحمل طبولاً تقرع بشدة وآخرون يحملون تماثيل بشعة لنساء ورجال تقرب من النعش لدفع الجن عنه ، أما النعش ففي لون أحمر براق تزينه أهداب القصب وترصيع الذهب الثقيل مما أذكرني بعادة أجدادنا الفراعنة .

على أن الصين أبعد الدول عن التدين والصيني معروف بعدم العصبية الدينية وهو ضعيف الإيمان والثقة بالآلهة ، لذلك يغيرها كل يوم لأنه يراها غير عادلة تنزل العقاب جزافاً ولا تستجيب دعاءه وبلغ من احتقاره إياها أنه إذا تخاف المطر أوقف البخور لها وقد يضربها بالسياط أو يلقيها في النهر ، وكلما حلت نكبة ببلدة ما اتهم آلهتها بالعجز فغيرت ، وإن انتصروا في الحرب مجدوا إله الحرب ، وأقدس آلهتهم إله الأدب ، وقد يخدع الصيني الآلهة فيقدم لها الورق المفضض والمذهب بدل النقود ! وكثيراً ما كنت أراه منظوماً في حبال تعالق داخل المعابد ، حدث مرة أنهم حملوا الآلهة وطافوا الطرق في وقت انتشر فيه الوباء ، فلما لم ينفذ





( شكل ١١٣ )  
سيدة صينية تفاخر بجمال أقدامها  
ولا تكاد تنزن فوقها

ذلك أغرقوها ، وافترضوا أن بدء عامهم كان شؤماً فيجب تغييره ، فأقاموا حفلة بدء السنة من جديد . ويسود أذهانهم التفاؤل والتشاؤم ، حتى أنهم يحتاطون في الحديث خشية أن تبدو كلمة منفرة تتخذ نذيراً للشؤم ، على أن لدينهم الذى يقدر فلسفة الأجداد فضلاً عليهم إذ ساعد على حفظ كيان الصين رغم ما أحاطها طوال العصور من عوامل الهدم والانحلال .

معبد السماء : وهو أفخر ما رأيته في بلاد الصين جميعاً : عظيم الرحاب ، شاهق البنيان ، دقيق الهندسة ، تحوطه أسوار ثلاثة من خزف أزرق طول أكبرها ثلاثة أميال ونصف ، بنى سنة ١٤٢٠ على قسمين : معبد السماء ، ويقوم على مساطب

مدرجة دائرية الشكل ، ومن الرخام الوضاء يحوط كل درجة سياج بأسنان باسقة وفي وسط أعلاها يقوم المعبد من الخشب فى شكل برج صينى ( باجودا ) بديع الخرط والنقش تكسوه قبة من خزف أزرق تقوم على أعمدة شاهقة كأنها أعمدة الكرنك لكنها من خشب مطعم ( باللاك ) فى إتقان عجيب جىء بها من أشجار ( أوريجون ) الأمريكية كى تحتل عبء البناء السامق فوقها ، وفى وسطها موضع العرش تحوطه شواخص حجرية لذكرى تسعة من البراطرة والقسم الثانى يسمى مذبح السماء وهو كذلك فى ثلاث مساطب مستديرة من رخام



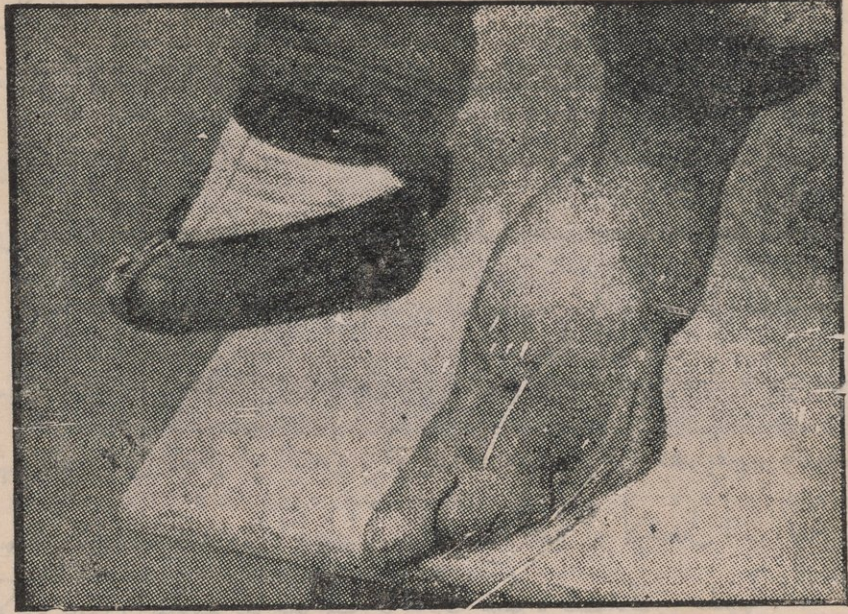
أبيض قطر أسفلها ٢١٠ قدماً ، والمسطبة العليا مكشوفة للسماء وكانت تمثل قبة السماء ، وهنا كان يركع الامبراطور ويعترف بأخطاء شعبه ، ويرجو آلهة السماء لهم الغفران وفي وسطها كانت تقدم الذبائح وهذا المعبد رائع الجمال ، فاخر البنيان ، لدرجة تجعل أثره في ذاكرتي خالداً وهو وحده خير مبرر لزيارتي للصين وتحوطه غابة كثيفة من أشجار الأرز يبلغ عمر بعضها ألف سنة .

**معبد الزراعة :** على مقربة من معبد السماء أقيم تذكراً للملك الخيالي ( شن ننج ) الذي حكم الصين منذ ٣٠٠٠ سنة ، ويخالونه أول مخترع للمحراث وحوله حقول شاسعة ، كان يجيء الامبراطور بنفسه ، ويبدأ الحرث في أوائل الربيع من كل عام وكلما أكمل محراثه ثلاثة خطوط تبعه ولاية الأقاليم وألقوا فيها البذور على أن يد الزمان نالت منه كثيراً فلم تبق منه اليوم إلا أطلالا بالية .

وبين معبد السماء ومعبد الزراعة ردهة مترامية كانت ولا تزال تستخدم لتنفيذ حكم الإعدام في بكين ، ويعرف الصينيون بالقسوة الشديدة في تنفيذ أحكامهم ، فالإعدام عادة يكون بقطع الرأس بالسيف وكان اللص إلى أمد قريب يدفن حياً أو يحكم عليه أن يموت بالخنق الخشبي ، وهو آلة بها موضع للرقبة يوضع في رقبة المجرم ، ومن تحته ألواح سميككة من خشب أو حجر يرفع منها واحد كل يوم فيعلق الجسد من الرقبة ويشحذها فتستطيل بقدر سمك اللوح الذي رفع وهكذا حتى يموت ، وكثيراً ما كانت تؤخذ العائلة كلها بجريرة فرد منها إلى سنة ١٩١١ ، وكان يحكم على بعض المجرمين بثلاثة آلاف جلدة ، ومن العجيب أن كل تلك القسوة لم تنتج أثراً في تخفيف الجرائم . ومن أقسى العقوبات بعد الإعدام : النفي ، ذلك الذي يخشاه الجميع خوف الموت خارج بلادهم .

ومما كان يروقني كثيراً : مشهد الأحياء الوطنية من المدينة الصينية في أزقة مختنقة ، وطرق متربة غير مرصوفة ، يجوبها خلق كثير : صفر الوجوه ، شاحبو





( شكل ١١٤ ) مبلغ تشويه أقدام السيدات في الصين

الألوان ، منتفخو العيون ، مشطورو الرؤوس ، وتطل على تلك الطرق حوانيتهم وعليها إعلاناتها في شرائح من خشب أو ورق أو قماش تتدلى مستطيلة حتى تكاد تسد الطريق ، ولهم أضواءهم الخاطفة في الليل ، ويزينون واجهات الحوانيت بشبه أقواس كبيرة مذهبة في الخراط الصيني الجذاب ، والخط الذي يبدو وكأنه يقع ضخمة ذوات أهداب براقّة ، وأنت ترى أقواس الطريق تقوم مشرفة من خشب صقيل في جميع طرقهم حتى الرئيسية . أما وسائل النقل فغالبيتها عربات ذوات عجلة واحدة في الوسط وقد تكون ذوات عجلتين ، يجرها في جهد كبير نفر من الناس متكاتفين والعرق يتصبب من جسامهم العارية بشكل يؤلم الفؤاد ، ويسمونهم ( كولى ) ومعناها القوة التعسة ، ولكيلا يعطلوا المرور وسط الطريق — خصوصاً الركشا التي يجرها الإنسان أيضاً — جعلت لهم منطقة على إطار الطريق غزيرة الأتربة يسرون فيها وعجلاتهم تغوص بعيداً ، هذا إلى الجمالين الذين تراهم يعلقون حاملين على طرفى عصى من الخيزران العريض فوق أكتافهم وكنت أعجب لعواهلهم كيف تطيق تلك الأثقال التي تحز في جلودهم حتى تدمى .

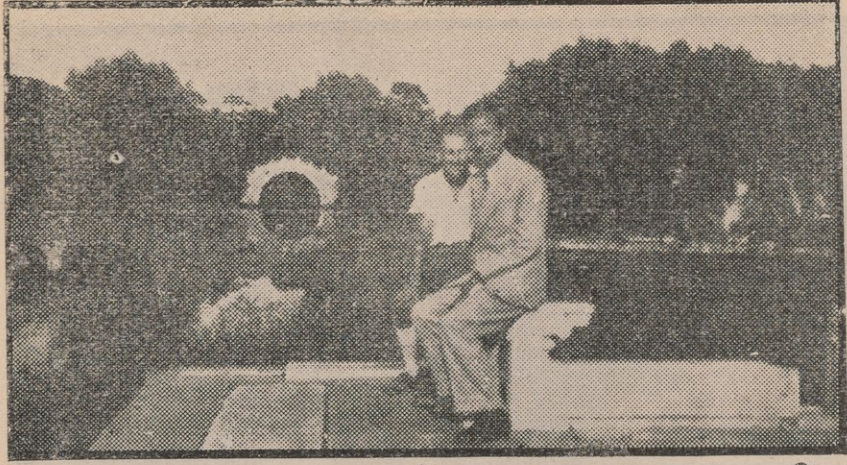


مناظر لا يخلو منها مكان في الصين كلها ، وكأن مزاحمة الإنسان لوسائل النقل الآلية التي كنا نراها في الممالك الأخرى قد كادت أن تخفيها ، ومظاهر الفاقة الشديدة بادية في كل شيء فلا يخلو طريق قط من جماهير المتسولين ، وعجبت لما أن علمت أن التسول هناك مهنة يمارسونها تحت نظام مرتبطب كأنه النقابات وعلى رأس كل جماعة رجل شرس قوى الشكيمة يؤول إليه كل ما يجمعه أولئك البائسون ، والناس هناك يتصدقون على المتسولين مرغمين خشية أن يلحق بهم رئيسهم ضرراً في المال أو البنين ، أو يسلط عليهم رجاله لمضايقتهم بالتجمهر أمام بيوتهم فكثيراً ما يدبرون الخطة لسرقة متاع الغير أو لإشعال النار فيه ، وطالما فقاً الآباء عيون أبنائهم فتأخذ المارة الرأفة بهم ويتصدقون عليهم .

ولقد أحدث انتشار الفقر والعوز في طول البلاد وعرضها أسوأ الأثر في أخلاق الناس فأفسدها وأنت تلمس انحلالها في كل مقام ، فلا أذكر أني ركبت (ركشا) مرة دون أن يباغتني سائقها قائلاً : أتريد بعض الغانيات من فتيات المانشو ذائعات الصيت جمالاً ! إلى ذلك جماهير السيدات اللاتي كن يسكنن بتلاييننا طوال الطريق إلى درجة المضايقة الشديدة ومنهن من لم يبلغن الحلم وكان الأجانب هناك بأخلاقهم الفاسدة قد جرأوهم على ذلك الابتذال ، وطالما كنت أعجب للصغار من الفتيات يسرعن إلى طلباً للمعونة المالية وهن في هندام نظيف لا يشعر بالفقر أبداً ، كذلك كنت ألاحظ أنهم يميلون إلى الغش في كل شيء حتى في صرف النقود إذ كانوا يدسون لى بينها ما هو زائف بكثرة عجيبة ، وقد تعدى هذا إلى حكامهم وضباطهم وجنودهم فعرفوا بالارتشاء إلى حد باعوا معه ذممهم وذمم وطنهم وهذا ميدان شجعه الأجانب بمالهم ليثبتوا أقدامهم في تلك البلاد .

ومن المناظر التي كنت أتألم لها طوال الطريق السيدات اللواتي كن يسرن في ثاقل ويئد ، والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها اللتين لا تزيدان على سبابة اليد طولاً وقد انحبس نموها ونمو عظامها فكان يخيّل إلى



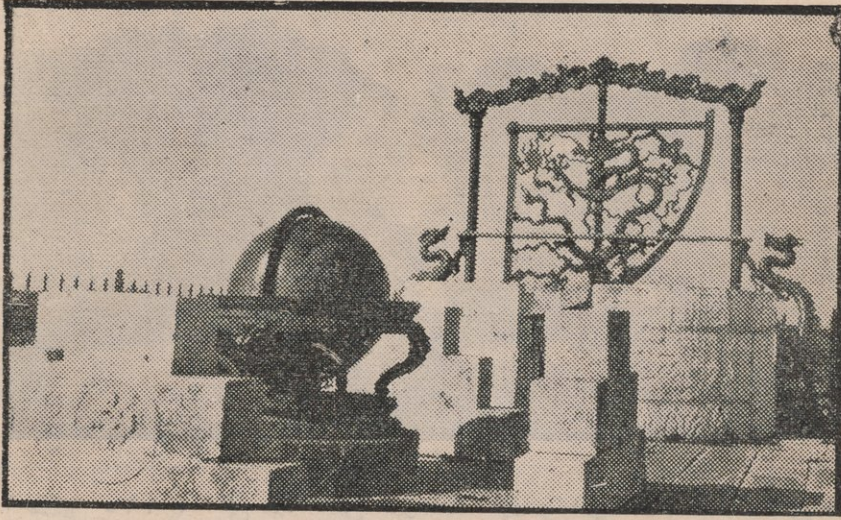


( شكل ١١٥ ) على حافة بعض متزهات بكين وتبدو الفنطرة المحدبة على بعد

أنهن يسرن فوق عصي خشبية دقيقة جامدة وكأن ذلك قد أثر على الساق نفسها فدقت من أسفلها ونحفت إلى حد نحيف ، وياويلها إن حاولت الجرى فانها تتعثر بشكل بشع والألم يبدو على وجهها ، ويكاد يكون نصف نساء البلاد من هذا النوع ، والأقدام الصغيرة كانت آية الجمال لديهم ، وكان يحتم الزوج أن يرى قبل الزواج حذاء خطيبته فان ظهر بعد الزواج أن قدم العروس كانت أكبر من الحذاء الذي أخذه رهينة جاز له الطلاق ، لذلك كان الأمهات يبالغن في تشويه أقدام بناتهن وهن صغار ، فكانت تغسل الأقدام بالماء الساخن ثم تلف حولها أشرطة من الكتان لفائف متعددة محكمة ، وفي كل ليلة تعيد الأم هذه العملية لمدة ثمانية عشر شهراً ، والبنات تتأوه في ألم شديد والأم تسترضيها بالهدايا وتمنيها بزواج قريب ، ولقد حرمت حكومة الجمهورية ذلك اليوم وفرضت عليه عقوبات قاسية على أن ضعف سلطان الحكومة اليوم وعدم استقرارها شجع كثيراً من الأمهات أن يثابرن على تلك العادة القبيحة ولا يزال الشبان يؤثرون في السيدات الأقدام الصغيرة كما ثبت لى من محادثة كثير منهم .

زرت في ناحية من بكين قصر الشتاء : بمحادثته الفيحاء وبحيراته الممتدة المتلوية تكاد تغص بنبات الماء وبخاصة البشنين في زهره الكبير هادى الحرة





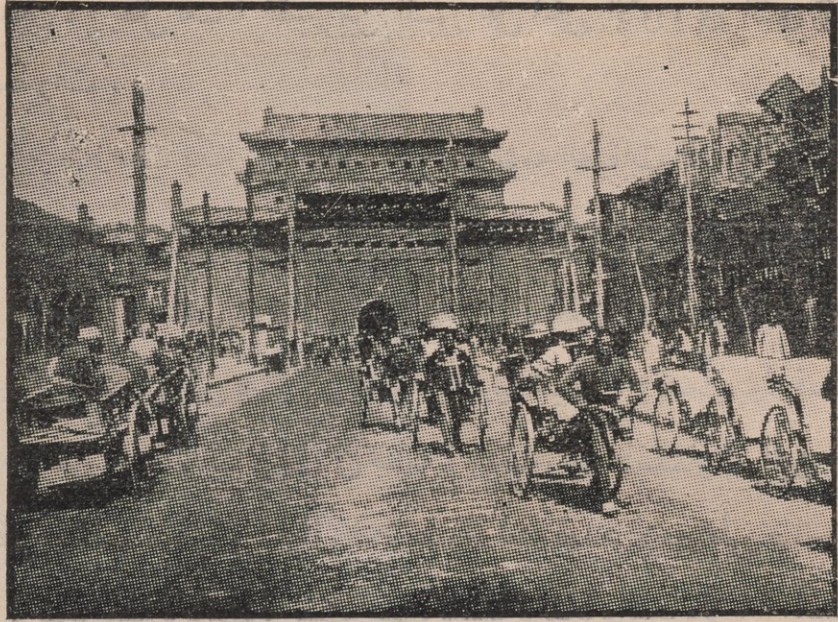
( شكل ١١٦ )

بعض الأجهزة الفلكية في مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا ( يكين )

أو ناصع البياض وعليها من القناطر المحدبة البيضاء شيء كثير بنه ملك المنج والمانشو في هندسة صينية فاخرة ، ولعل أعجب ما به برجه السامق في شكل فريد في نوعه يطلق عليه القوم ( برج داجوبا الأبيض ) به خمسة طوابق تمثل العناصر الخمسة في زعمهم ، وإلى جوار القصر ربوة تسمى تل الفحم تعلو ٢١٠ قدماً في شكل مخروطي يحفه الشجر ، وفوق الذروة مقصورة في شبه ( باجودا ) صينية تتخذ اليوم مقهى جلست فيه قليلاً فبدت بكنين كلها وكأنها غابة كثيفة مغلقة لا يكاد يستبين المرء خلالها أسواراً ولا أبنية اللهم إلا سقوف المدينة المحرمة في لونها الأصفر البراق ، وكلما نزلت مررت بمقاصير أخرى ، وتروى أقاصيصهم ان التل أقيم من الفحم الخالص إبان حكم أسرة ( يوان ) اتقاء خطر الحصار ويظن البعض أنه من الثرى الذى أخرج من بحيرات قصور كوبلاخان القريبة منه .

قصدت بعد ذلك مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا أقامه كوبلاخان سنة ١٢٧٩ ويحتوى على مجموعة من الأجهزة الفلكية القديمة في أشكال عجيبة وحجوم هائلة صيغت من شبه ونحاس في دقة هندسية بالغة ، ومن أجملها المزولة





( شكل ١١٧ ) « شين من » أنغر بوابات سور بكين وأمامها أسراب الركشا الشمسية والقمرية وآلة السدس والكرة السماوية ، وتبدو النجوم بها في بقع بارزة من المعدن الأصفر وتحمل تلك السماء على مجموعة من (التنين) شعار الصين الرئيسى ، وقد احتذاه فردريك الأكبر فساد أول مرصد فى أوربا على نمطه وضع له أجهزته بعض رهبان الجزويت نقلا عن مرصد الصين ، وكانت طائفة من أجهزة هذا المرصد قد وقعت غنيمة فى أيدي الألمان إبان حرب المصارعين لكنهم أعادوها اليوم ، والمرصد يقوم على ركن من سور المدينة الهائل الذى اعتلته بين بوابتي — ( شن من ) مدخل المدينة الرئيسى ( وهاتا من ) والسور من أعلاه كأنه الجسر العظيم المهد تزين جوانبه النوافذ الجميلة ، وكان ارتفاعه يعادل الطابق الثالث من البيوت الإفريقية ، بجواره واتساعه من أعلاه يعادل شارعاً فسيحاً وتنمو فوقه الأشجار فيسير المرء وكأنه وسط الحدائق المعلقة — لبثت أتجول فوقه ساعتين والمناظر من حولى رائعة ، والذكريات التاريخية لتلك البلاد العتيقة تمر بالخطر فيكبر تلك العظمة ، ثم لا يلبث أن يأسف لزوالها وبخاصة إذا رأى كثيراً من أركان السور قد احتله أجناد الأمريكان والانجليز واليابانيين



والفرنسيين ، ويطل هذا القسم من السور على الحى الأوروبى الذى تقوم فيه دور السفارات .

وخير متنزهات بكين المتنزه الأوسط تؤمه الطبقات الممتازة تشرف على جداوله ونقائعه مقاصير المقاهى المنسقة ، وتصل ما بينها ممشى ضيقة منسقة سقوفها بديعة الهندسة وهو المتنزه الوحيد الجدير بالذكر فى بكين التى تعوزها المتنزهات ، وإلى جواره معبد الجرس به أكبر أجراس الدنيا محيطه ٣٤ قدماً ، وله قصة عجيبة إن الامبراطور يونج لولما رغب فى صنعه لم يعجبه رنينه فاستشار العرافين فأشاروا عليه بضرورة صهره ثانية وإحراق غادة عذراء تحته فهدد الإمبراطور صانعه بالقتل إن هو لم ينجز هذا وكانت له بنت ضخت نفسها لإيقاظ والدها ولا يزال أهل بكين يسمعون خلال صليله أنات العذراء كلما دق هذا الجرس !

وفى ناحية أخرى من المدينة زرت برج الطبلبة الذى شيد سنة ١٢٧٢ ، وهو تام الحفظ فى رونق جميل وبنيان شامخ يبدو كأنه ( الباجودا ) الهائلة ، وفى قمته ثلاثة طبول كانت تدق كل يوم الساعة التاسعة مساء ١٠٨ دقات إيذاناً بساعة الراحة ، وهى على ارتفاع ١٠٣ قدماً ومنظر المدينة من أعلاها وقت الأصيل رائع ساحر .

**قصر الصيف :** أقلتنا إليه سيارة وهو يقع على بحيرة فسيحة فى سفح التل الغربى ، وكانت تتخذة أرملة الإمبراطور مصطفىا لها هروباً من حر بكين اللافتح ، وقد غالى القوم فى الإسراف فى تنسيقه بين حدائق وقناطر ومقاصير بعضها فوق الربى والبعض فى الوهاد على حجور النقائع التى تكاد تغص بنبات الماء والبشنيين يتجلى بزهره الخلاب هذا إلى الممشى التى تمتد أميالاً تحت سقوف من الخزف الصينى البديع . أما القناطر فغالبا من رخام ناصع فى شكلها الأحذب العجيب ، وفى ناحية من القصر زورق من رخام ذو طابقين يقوم على عمد فى الماء فيخيل إليك وأنت به أنك فى سباحة تمخر عباب اليم وسط الزهور البديعة والحديقة





( شكل ١١٨ )

هكذا تمتد طرقهم الخشبية في أرجاء حدائقهم

على تنسيقها الرائع تمتد أميالا  
ويتطلب تفقدها أياما ، وخلف  
القصر ترى فوق الجبل مجموعة من  
معابد أخرها معبد الخمسة آلاف  
بودا في أشباحها الرهيبة ، وقد أخذنا  
نتجول بالسيارة خلال آثار تلك  
التلال ومن بينها : نبع اليشب الذي  
كان يسقى المدينة التتارية وقصورها  
وحدائقها ، وحوله ثلاثة أبراج  
( باجودا ) واحدة من ( اليشب )  
والثانية من الخزف والثالثة من  
الصخر ، وكلها تتوج ذرى جبلية ،  
وكانت الغابات حولها تغص بالوحوش

وبخاصة الأعمار لذلك كان يتخذها

البراطرة مصاداً لهم ومستراضاً ، وفي جانب من التلال : معبد بودا النائم يرجع عهده  
إلى أسرة ( شانج ) وطوله خمسون قدماً في أركبته الرهيبة وأقدامه العارية . وهنا  
كنت أرى الحجاج يقدمون القرابين وبخاصة الأحذية الكبيرة التي يزيد طولها  
على نصف متر ، والتي تصف تحت أقدام الآله بعضها من حرير والبعض من جلد  
أو خوص ، وفي زاوية من المعبد تمثال ( لماركو بولو ) الرحالة الأوربي ، وعلى مسيرة  
ساعة من هذا معبد السماء الزرقاء يعلو في عدد لا يحصى من الدرجات فيتوج ذروة  
الجبل في رخامه الوضاء وأجمل ما به ردهة الألف بودا .

وبعد ثمانى ساعات عدنا إلى بكين وسط حقول زراعية كأنها حقول مصر  
والقرى منشورة في كل مكان تعوزها النظافة أما الطرق فريثة ومتربة والسير فيها





( شكل ١١٩ ) أمام مقصورة الملكة في قصر الصيف ( بكين )

متعجب للغاية خصوصاً وقد أمطرتنا السماء وابلاً كساها أوحالا يتعذر معها السير ، أما الجو فحار مجهود إلى حد كبير بحيث لا يستطيع الإنسان الانتقال إلا راكباً ، وقد كنت أكتب مذكراتي هذه الساعة السابعة مساءً وأنا لا أكاد أطيق قيصاً رقيقاً يلامس الجسد والأمطار هنا متقطعة وأقل منها في كوريا وفي اليابان .

**السور الأعظم ( سد ياجوج ومأجوج ) :** لقد تحقق حلم كنت أتمناه طوال السنين وهو أن تتاح لي الفرصة لزيارة سور الصين أحد عجائب الدنيا وكاد يغلب اليأس الرجاء منه لما أن رفضت جميع شركات السياحة هناك القيام بأية رحلة إليه لأن طريقه أضحى غير مأمون وكانوا ينصحونني ألا أذهب خشية اللصوص الذين اختطفوا سيارة بمن فيها من الأمريكان ولم يمض على الحادث أسبوعان ، لبثت حائراً ثم اعتزمت الذهاب مهما كلفني ذلك ، وقد وفقت إلى زميل ألماني في النزل هو مدرس بمدرسة خربين حدثته عن السور فرغب في زيارته — ركبنا قطار الضواحي الصغير زهاء ثلاث ساعات ، وبعد أن اجتزنا محطة نانكاو الهامة أخذ القطار يعول في جبال معقدة تكسوها الخضرة ، واخترق بعض الأنفاق حتى باغتنا السور وكأنه أفريز يطوق الجبال ويتبعها علواً وانخفاضاً

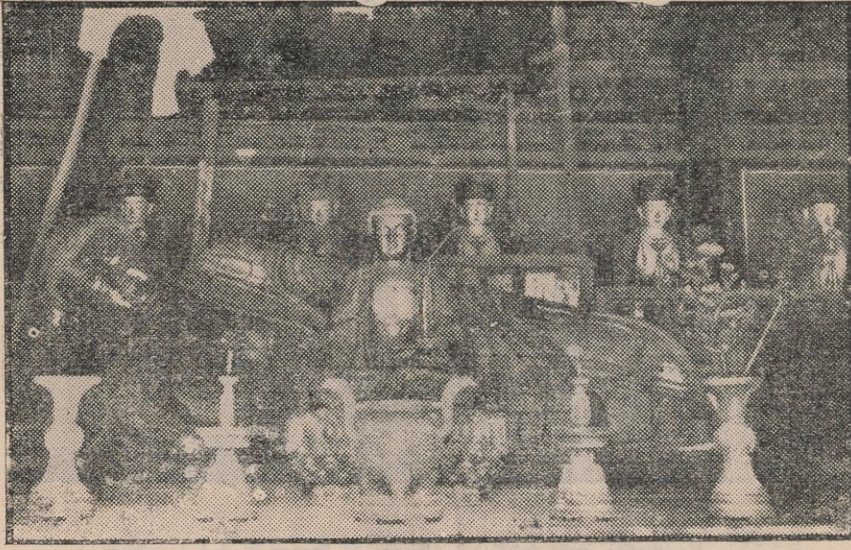




( شكل ١٢٠ ) سفينة من الرخام في بحيرة قصر الصيف ( بيكين )

إلى الآفاق . حللنا محطة السور الأعظم ، وهناك أقلتنا الحير وسارت بنا في وادى كأنه وادى الملوك صخوره نارية وحره قائط أدى بنا إلى السور فاعتليناه فبدت روعته في تغضنه وامتداده إلى الآفاق وهو يتلوى كالأفعى ، وقد لبثت أسير فوقه ساعتين والذكريات التاريخية المجيدة تمر بالخاطر فتكبر القوم تارة وتحط من قدرهم أخرى إذ كان يتجلى جبروت الإنسان وبطشه بأخيه الإنسان وتسخيروه فيما لا ينفع ، وقد قرر الحبيرون أن السور أضخم عمل أنجزته يد الإنسان يفوق الهرم وحدائق بابل المعلقة وهو يطوق الصين من الشمال مبتدئاً من البحر ( عند شاي هاى كواى على خليج لياوتونج ) إلى ممر كيايو فى التبت وطوله فى استقامة ١٢٥٥ ميلاً وبتعرجاته وشعابه ١٥٠٠ وعلوه يتراوح بين ١٥ و ٣٠ قدماً وعرضه فى أعلاه ١٥ وفى أسفله ٢٥ به ٢٥ ألف برج حربى و ١٥ ألف برج للحراسة ، وكأن الصين قد اختصت فى بناء الأسوار حتى قال بعضهم إننا لو جمعنا أسوارهم كلها لطوقنا الكرة الأرضية ، أمر باقامته الإمبراطور ( شى هوانج تى ) الذى اعتلى الملك سنة ٢٢١ ق . م ومحا نظام الأقطاع وقسم البلاد إلى مديريات ، وكان كلفاً بالمباني الضخمة من بينها قصره الذى وسعت ردهته عشرة آلاف نفس ، رأى هذا العاهل مناماً أنذره أن الخطر مقبل من الشمال وقد أيد التاريخ ذلك فان





( شكل ١٢١ ) تمثال بودا النائم في ضواحي بيكين

كل ما قاسته الصين من المغيرين جاء من تلك الناحية فأرغم من الناس ثلث الرجال القادرين في الصين كلها ، وكثيراً ما عاقب العلماء وألزمهم بالعمل في السور لأنهم ناوأوه ، وقيل إنه أحرق كتب العلم وفلسفة كنفوشيوس لما أن رأى الناس يجلونها ويكبرون العلماء أكثر من إكبارهم للبراطرة ، ويطلق القوم على السور أحياناً اسم ( أطول مقابر الدنيا ) لكثرة من ماتوا في بنائه ، ولم يتم بناء السور إلا في عهد ليويانج من أسرة هان . وفي عهد أسرة منج دعم السور وزيد في طوابقه ، ولعظيم هذا العمل أحاطه الناس في جميع العصور بخرافات لا تزال عالقة بالأذهان منها أن الإمبراطور كان ساحراً ماهراً ، وكان يمتطي جواداً سماوياً اختط طريقه ، وكان له سوط سحري استطاع به أن يزيل الجبال وينظم صرف مياه الهوانج هو ، وكان يستخدم مرادة الجن في جلب الأحجار ، ويخال البعض أن كنوز البراطرة دفنت بين طياته والكثير يعتقد أن السور أقيم سداً في وجه الجن لا الآدميين ويؤيدون ذلك بكثرة المعبودات البشعة التي توضع على منافذ السور كلها ، ومما أثار دهشتي أن السور يخطط أوعر المسالك إذ يسلك الجبال والربي العاتية وهذا يتطلب مجهود الجبابرة ، وقال البعض أن الأبراج كانت تقام أولاً ثم يوصل ما بينها ، وعند ممر





( شكل ١٢٢ ) يتلوى سور الصين الأعظم بين ربي منغوليا المجدبة في كامل روعته نانكاو الذى وقفنا قبالتة كان يعلو السور فوق مستوى البحر بنحو أربعة آلاف قدم ، وفي البقاع التى كانت تهددها الرمال أقاموا سلسلة من أسوار خارج بعضها ، هو في امتداده هذا غالب ثلاث صعوبات : الجبال الشاهقة والصحارى الرملية المجدبة ، وطبقات الأرض المشته ( اللويس ) والعجيب أنى لما زرت مقبرة هذا الامبراطور فى مدافن أسرة منج رأيت الناس يقذفونها بالحجارة فختهم يذكرونه بانتصاره على الصخور التى أقام بها سوره العظيم ، على أنى علمت أنهم يأتون ذلك حطا من شأنه واحتقاراً له ، لأنه امتهن تقاليد أجداده وأهان العلم وأهله حتى أنهم لم يلقبوه ببانى ( السد ) بل بمبيد السكتب العلمية ، ويذهل المرء كيف استطاع الامبراطور أن يزود السور بالجنود لحراسته على طول امتداده ومن العجيب أنه لم يغن عنهم فى الدفاع فتيلاً إذ اخترقه جنكيز خان سنة ١٩١٢ وكذلك لم يرد غارات المانشو بعد ذلك ، ولا يعزو القوم ذلك إلى ضعف فى السور نفسه بل إلى خمود الروح العسكرية بين أفراد شعوب الصين الزراعية ، على أنى لما أقيمت على السور نظرة الوداع مر بخاطرى مظهر الهرم الأكبر فبدا السور بجانبه ضئيلاً لم يشعرنى بالرهبة والذهول التى يوحىها هرمننا .

قمت من يكين مودعاً تلك البلدة التاريخية الجميلة التى يروقنى أن أقيم بها





سنوات فهي أصدق ما تعطي الزائر  
فكرة عن الصين وأهلها ، وقد  
سلكت سبيلى إلى تين تسن  
فشنغهاى ، وكنت من قبل أعزم  
الذهاب إلى هنكاو ومنها فى رحلة  
نهرية فى اليانج تسي إلى شنغهاى  
لكن هذا النهر الجبار غدر بالمدينة  
فأغرقها وأغار على سكة الحديد  
فتعطلت وسار القطار خلال أراضى

( اللويس ) الصفراء ذائعة الخصب  
تلك التى كانت تبدو فى بعض  
( شكل ١٢٣ ) تبدو صحارى منغوليا مترامية وراء  
السد وتلك أزياء النساء هناك

الجهات وكأنها رمال الصحراء تماماً ، ولقد تخلفت فى تين تسن يوماً كاملاً فلم  
ترقنى كثيراً لأنها مدينة غالبها أفرنجى عظيم الامتداد أهل بالجماهير الغفيرة من  
صنوف شتى وهى ثغر تجارى غاص بالحركة دائب الجلبة والضوضاء .

وقد وقف القطار طويلاً على تسنان فو فوق نهر الهوانج هو ( الأصفر )  
زاخر المياه عكر اللون فى تدفق مخيف ذاك الذى عرفه القوم بمبعث أشجان الصين  
منذ القدم لكثرة ما أصابهم وأتلف من أبنائهم ومتاعهم بسبب فيضانه الغامر  
المباغت على أن فيضه هذا العام كان أقل خطراً من اليانج تسي .

وهنا باغتنا ريح صرصر كأنه اعصار ( التيفون ) هز أرجاء القطار ، وسرعان  
ما أظلم الجو وفتحت أبواب السماء عن وابل غامر وقصف للرعد مخيف ولم تنكشف  
إلا بعد ساعتين ، وكنت أرى المزارعين فى الحقول يسرون وسطها وعلى رؤوسهم  
مخاريط من خوص وعلى جسومهم رداء من قش منقوش يبدو كأنه الفرو الثقيل  
فيظهر الواحد وكأنه من مرده القنafd المنفرة المضحكة . ضمتنى مائدة العشاء إلى





( شكل ١٢٤ ) فوق سور الصين الأعظم  
( سد يأجوج ومأجوج )

جمع من الشباب الصيني المثقف وكان يقدم لهم الطعام على النظام الصيني وعجبت لما علمت منهم أن من أحب الأغذية لديهم : زعانف السمك وأحشاءه ولحم الكلاب والفيران والضفادع والثعابين وأوكار طير الخطاف لأنها من مجموعة أعشاب مائية تروقه كثيرًا ، وأجل اللحوم لحم الخنزير فاذا سمعته يتحدث عن اللحم انصرف إليه ويعجبهم دهنه الثقيل ، وقد يشرب الرجل منه ثلاث ( سلاطين ) وعند الطعام تقطع هذه اللحوم كلها مختلطة إلى شظايا صغيرة جداً وتمزج بالحساء وترى الواحد منهم يتصيداها من الإناء

بعضيه وقد يمزج الحساء ببعض الأعشاب والخضر الجافة في غير طهى جيد والعناية بالضيف تبدو في الاكثر له من الدهن الطافي فوق الغذاء والحساء ، ويجب أن يناوله المضيف كل ما يطلب بيديه الاثنتين وإلا عد ذلك من قلة الذوق كذلك يناوله بين حين وآخر ما يتصيد من انائه هو من شظايا اللحم ، وطعام الغنى يغاب أن يكون من الأرز والخضر والخنزير والسمك . أما الفقير فالأرز القفار وإن لم يتيسر له فالقمح أو الشعير أو الذرة أو بعض الخضر ، ويندر وجود اللحم لذلك يأكلون لحوم الحيوان الملقاة مهما كان الحيوان ، وأساس غذاء العمال ( والكولى ) نوع من الفول مغذ كاللحم ويختتم الطعام بالحساء ( عكسه عندنا ) .

أما أحب أنواع الحلوى فالكريز يطفو في عصير القصب ، والتسلى بنوى





( شكل ١٢٥ ) تعترض تلك البوابات غالب الطرق في تين تسن

المشمش ( واللب ) شائع بين الجميع . أما الأواني فكلها من ( السلاطين ) وليس للسماط ولا ( الفوط ) وجود قط ، وفي نهاية الطعام تقدم فوطة مباللة يمسح الجميع بها أفواههم ، وعجيب أن يشتهر طهارة الصين بلذة ما يطبخون على أنه لم يرقنى من طعامهم شيء سوى ذاك الخليط من اللحوم المختلفة . ولعل تلك الشهرة راجعة إلى أنهم يكثرون من استخدام التوابل والمواد الحريفة بالنسبة لطهارة اليابان .

تحدثت إلى هؤلاء الشبان فكانت حماسهم القومية بالغة يصبون جام غضبهم على الأجانب ، وبخاصة اليابانيين فهم الذين يفرقون بين أبناء الأمة الصينية ، ويشيرون فريقا على فريق ، ويمعنون في اتلاف أخلاق الصينيين بالمال والنساء ويساعدون على ذلك احتلالهم لمنطقة سكة حديد منشوريا تلك التي يهربون منها الذخائر والأسلحة للثائرين من أهل الصين على أن الحكومة الصينية الوطنية تقبض على الحالة وستوفق قريباً إلى القضاء على تلك العصابات الثائرة التي تجرى





( شكل ١٢٦ ) أطفال الصين يتناولون الأرز ونشير اللحم بالعصى في مهارة وثقة

وراء المنفعة الذاتية ، وهم مختلفون في طريقة توحيد الصين ، فالبعض يرى إقامة مجموعة من حكومات مؤتلفة تكون ولايات لها ما للولايات المتحدة الأمريكية من السلطان ، والبعض يرى توحيد الصين كلها في جمهورية واحدة لأن في هذه الطريقة الآن خطر ميل رؤساء المقاطعات إلى الاستقلال والدس للغير ، ومن عقبات قيام حكومة واحدة اختلاف اللغات بين مقاطعة وأخرى ، تلك التي كان يساعدها رؤساء المقاطعات كي يتم لهم استقلالهم ، ولو تم النصر للحكومة القومية أنقذت البلاد من شفا الافلاس لأن مرافقتها اليوم معطلة ، وكانت قد بدأت حركة صناعية بمعاونة الأجانب ، وبخاصة الأمريكيين لكنها عطلت اليوم لأنهم الحكومة منصرف إلى التجنيد وتموين الجيوش التي تؤلف من بين الطبقات الفقيرة وهذه تتخذ الجندي مرتزقا والحكومة لم تؤت بعد السلطان الكافي فتجعل التجنيد إجباريا لذلك لا يتطوع أحد من السراة بل من الفقراء المعوزين .

اللغة الصينية : ويرى مثقفو الصين أن لغتهم غنية بأدائها فميدان الشعر زاخر والإيجاز في التعبير إلى التعمق في المعنى من خصائص لغتهم ، وكنت أرى  
( ١٤ - آسيا )



بعضهم يقرأ في كتب الأدب ، وهو مأخوذ من شدة تأثره بالمعاني التي يتلوها ،  
ويبالغ بعضهم فيقول إن لهم كتباً تقرأ في الصيف ، وأخرى في الشتاء ، فتحدث  
معانيها في نفوسهم ما تتطلبه مناسبات الزمن ، والتأدب في الكتابة أمر يراعى  
بكل دقة فمثلاً تبدأ الكتابة هناك من اليمين في أسطر رأسية ( أما اليابانية فمن  
اليسار ، وقد تكتب أفقياً أو رأسياً ) وإذا كان الخطاب للأبوين وجب كتابة  
الاسم في أعلى الصفحة إلى اليمين ثم يترك هذا السطر كله احتراماً ، وكلما ذكر اسم  
الأب أو خطابه في أى مكان من سطر آخر ترك باقية إجلالاً . وهذا يجب اتباعه  
في الكتابة لمن هم أكبر سنّاً ومقاماً أما بين الأصدقاء فيكفى ترك مسافة كلما  
ورد الاسم ، والهوامش تكتب في أعلى الصفحات والتأدب في الخطاب يراعى  
بكل دقة خصوصاً مع من هو أكبر سنّاً ومقاماً ، فمثلاً يعدونه منتهى الذوق أن  
يجرى الحديث بين اثنين كما يلي : كم سنك المشرفة ؟ عشرون عاماً ممضة لاخير  
فيها — ما اسم عائلتك الموقرة ؟ عائلتي الفقيرة تسمى — ما مهنتك النبيلة ؟ مهنتي  
الوضيعة — كم طفلاً ماجداً عبقرياً عندك ؟ عندي كذا من صغار الحشرات .  
كم قطعة فضية عندك ( يقصد البنات ) ؟ ثلاث بأستات . ولغتهم الكتابية  
رسوم رمزية بسيطة كأن يرسم تخطيط يحكى الإنسان ليدل على كلمة رجل ويرسم  
طائر ليدل على ( عصفور ) وهكذا ، ثم أخذوا في تبسيطها لكي تلائم الكتابة  
( بالفرشة ) التي تجيد رسم الخطوط أكثر من الأقواس والنقوش ، لذلك أصبحت  
اليوم سهلة بالنسبة لما كانت عليه من قبل ، والكتابة هناك شكلان عادى  
دارج تتصل كلماته بليات متعاقبة ، وزخرفى يكتب بتكاف وفي رونق جميل ،  
ولغة الكتابة يفهمها جميع أهل الصين ، لكن منطقتها يختلف باختلاف الأماكن  
بحيث إذا خاطب صيني من كانتون أخاه من شنغهاى أو من بكين لم يفهم الواحد  
الآخر لذلك يلجأون إلى الكتابة ، وفي مجلسى هذا كان أحدهم من كانتون  
وكان يعرف الانجليزية وآخر من شنغهاى ويتكلم الفرنسية وتعجب إذ تعلم أننى



أنا المصري الأجنبي عنهما كنت أقوم بوظيفة المترجم بينهما ، على أن العجب يزول إذا علمنا أن الصين بلاد مترامية ، فكل مقاطعة تفوق مملكة أوروية في مساحتها وسكانها إلى ذلك صعوبة وسائل الاتصال في تلك البلاد .

والحكومة الحالية تحاول توحيد لغة الكلام ، وقد أخذت تنشر لغة ( الماندرين ) في المدارس والمصالح فهي اللغة الرسمية اليوم ( وكلمة ماندرين معناها الوالي أو الحاكم ) وهي أسهل اللغات الصينية مأخذاً فالشخص يكتب ما يسمع بالضبط .

أما في سائر لغات الصين فإنك تجد لغة الكلام ممطوطة لذلك وجب أن تلجأ في الكتابة إلى التلخيص والإيجاز لأقصى حد ممكن ، وتلك مهمة لا يطيقها إلا المتعلم الكفء وقد وضعت الدولة لتلك اللغة حروفاً أبجدية عددها ٤٢ يمكن تركيب الكلمات منها ، وأعجب ما في تلك اللغة أن حروفها وضعت لتوحد النطق أعني أنها جمعت كل مقاطع النطق الصيني ووحدتها في نغمة واحدة لا تحمل معنى عند الكثير منهم لأن الرموز الكتابية يفهمها الجميع والصعوبة في اختلاف النطق ، لذلك كثيراً ما ترى سطرًا من الحروف الجديدة يكتب وإلى جانبه آخر من الرموز الصينية ، ومعنى هذا أن القارئ ينطق بما تدله الحروف الجديدة ( الماندرين ) ويفهم المعنى من السطر الآخر ، ويخالون أنه بعد مضي وقت معين سيعتاد الناس نطقاً واحداً فتتوحد لغة الكلام ، وفي الحق أن سائر لغات الصين الأخرى معقدة مجهددة للمتعلم الذي يجب عليه أن يحفظ من رموزها نحو أربعة آلاف كي يستطيع القراءة والكتابة ويزيدها

崇  
周  
委員長士  
監察  
部  
會  
公  
縣  
侯  
國  
黨  
民  
國  
建  
中  
福  
文

( شكل ١٢٧ )

مثل من الكتابة  
الصينية المعقدة وهذه  
بطاقة تقرأ من أعلى  
لأسفل



صعوبة أن الكلمة الواحدة قد تكتب على عدة أشكال لتؤدى معانى مختلفة ،  
فمثلا ( تشى Chi ) تكتب على ١٣٥ شكلا لكل واحد معنى مختلف ( من معانيها  
الفرخ ، وادفع ، وتذكر ، وعديم البصر ) وهى لغة المقاطع حقاً ، لأن كل كلمة  
مقطع واحد ، حدث أنى طلبت إلى أحدهم أن يكتب لى اسمى بالصينية فترث  
طويلا وقطع اسمى إلى ( سا بى ) فى مقطعين ثم كتب الرمين .

وحساب الشهور لديهم قرى ولو أن الحكومة الحديثة أدخلت الحساب  
الشمسى ، لكن الفلاحين لا يعرفون إلا السنة القمرية ، وليس للشهور عندهم  
أسماء بل يحصونها بالنمر ( الشهر الأول والثانى الخ ) وفى الأساليب الكتابية  
الراقية يضعون اسم زهرة لتدل على الشهر ( تقويم زهرى ) وتلك الزهور يكاد  
يحفظها الجميع بحيث لو كتبت احداها عرف الواحد منهم الشهر الذى ترمى إليه  
أما تاريخ السنة فيقاس بالنسبة للحكام كأن يقال مثلا اليوم السادس من الشهر  
الخامس من السنة العاشرة للإمبراطور فلان ، ويعرف هذا العام بالسنة العشرين  
للجمهورية وتحسب أعمارهم بالطريقة عينها .

كنا نتوقع أن نصل ( بوكاو ) على الضفة الشمالية ليانج تسي منتصف التاسعة  
لكننا وصلناها بعد الساعة الواحدة لكثرة موافق الطريق بسبب نقل الذخائر  
والجنود وبذلك نكون قد قطعنا المسافة بين تين تسن وشنغهاى فى خمسين ساعة  
أما الأقليم فغنى جداً بمزارعه وسهوله وأنهاره وكنت ألاحظ تغيراً مستمراً فى لون  
التربة التى أصبحت هنا سمراء تشوبها حمرة بعد أن كانت فى حوض الهوانج هو  
صفراء كأنها رمال الصحراء المجذبة على ما بها من خصب شديد ، وكان المنظر  
كله مصرياً ، أما غالب القرى فأكواخ من اللبن أهلها قذرون تبدو عليهم علائم  
الفاقة ، وغالب الأراضى ملك لطائفة من الأغنياء يحلون المذن الكبرى ، وكان  
القوم فى قذارتهم يعرضون الماء كولات من فاكهة وبخاصة الخوخ الكبير  
الحجم والتفاح والبرقوق والكثيرى والبطيخ كذلك الدجاج المشوى فى لون أحمر





( شكل ١٢٨ ) الدكتور سن يات سن زعيم النهضة الوطنية

وحجم كبير ، وبعض أنواع من عجين أبيض يتهافت القوم على التهامه وعجبت  
لرخص المبيعات إذ كانت الدجاجة تباع بقرش واحد ، وكانت غالب السهول  
حول القطار غارقة في لجة تحصر المياه بيوتها وقراها التي كانت تبدو وكأنها الجزائر  
الصغيرة ، غدر بتلك المسامح الشاسعة نهر اليانج تسي هذا العام فأغرقها فأضحى  
الملايين بدون مأوى وكنا نمر عليهم يتزاحمون بفلول متاعهم إلى الجسور وجوانب  
المحاط في شكل يؤلم الفؤاد ، وقد فتحت الحكومة لهم اعتماداً بثلاثين مليون  
جنيه للانفاق على أعمال الإنقاذ ، وقد أضحى اليانج تسي إلى ٦٠٠ ميل من مصبه  
بجراً خضماً لا شاطئ له وقد أصاب أبلغ الضرر منطقة هانكاو حيث علا الماء  
٥٢ قدماً ويقال إن فيضه هذا العام لم يقع مثله منذ خمسين سنة .

وصلنا بوكو فبدأت مدينة أشبه بمدن المراكز عندنا ثم أقلتنا السابحة عبر  
اليانج تسي الخضم المائج بمائه الدافق العكرو اتساعه الذي يفوق النيل بكثير ورسونا



على ضفته الجنوبية في نانكنج القديمة ، وما كدنا نبرح السابحة حتى بدت صفوف الركشا وهي غارقة وسط الماء إلى نصف ارتفاعها ، وأنى لى أن أصف لك موقفى وأنا أركب الركشا يجرها رجل يخوض فى الماء إلى وسطه ، وهي تتمايل يمنة ويسرة فى اضطراب مخيف ورشاش الماء لابل وموجه يضرب فى أقدامى وحقائى حتى أتلغ لى منها الكثير ، ولبتنا نجوب شوارع المدينة على هذا النحو ، والمياه تكسو الطابق الأول من الدور والحوانيت إلى نصف قامة الرجل بل ويزيد ، والمدهش أنها كانت مفتحة ، وحركة البيع والشراء قائمة فى نشاطها العادى والناس يروحون ويغدون خوضاً وهم مستسلمون لقسوة اليانج تسى ، وبعد أن اجتزت سور المدينة القديمة قصدت نانكنج الحديثة ( ومعناها العاصمة الجنوبية ) وهي عاصمة فاخرة تكاد تشبه شنغهاى وقسم كبير منها أوربى ، ولعل أجمل ما بها مدفن الدكتور سن بطل الجمهورية ومعبود الوطنيين ، فهو يقوم فى بناء من رخام تأخذ روعته بالألباب ، على أن القوم كانوا يحرمون التصوير هناك بتاتا ولم أدر الحكمة فى ذلك ، ومن آثارها القديمة القيمة برج من خزف أبيض ( باجودا ) جميل ثم دار الامتحان التى كانت تتسع لعشرين ألف طالب ، وحائط المدينة الذى يتصل بالحائط القديم .

الى شنغهاى ( ومعناها على البحر ) : قمت إليها فوصلها القطار فى ثمان ساعات ، وتلك هى المرة الثانية التى أزورها لأنى حللتها أولاً بطريق البحر فى طريقى إلى اليابان ، وقد رست السفينة بها ثلاثة أيام وأذكر أن السفينة ظلت خارج الميناء طويلاً تنتظر ارتفاع المد فبدا على بعد إلى يميننا مصب يانج تسى الذى يخاله المرء بجرراً لا تستبين شواطئه ، وتبدو أمامه جزيرة مستطيلة وسط مائه العكر الذى كان يحكى ماء النيل إبان الفيض بعد ذلك دخلت السفينة فرعاً يتصل به من الجنوب اسمه هوانج پو ، وهو وحده يفوق النيل اتساعاً ، وقد أقيمت أرصفة الميناء على ضفتيه مسافة قطعها السفينة فى ساعتين ، وهو يلاقى اليانج تسى وراء شنغهاى



بنحو ١٣ ميلا . أما الميناء  
فصاحبة تكاد تغص بمجاهير  
السفن على اختلاف حجومها  
وجنسياتها ، وقد أذكرتني في  
منظرها العام بثغر روتردام  
تماماً ومشهدا ونحن مقبلون  
عليها يحكى بلاد مصر في  
انبساط السطح الذى لا تكاد  
ترى للربى فيه من أثر إلى  
ذلك الخضرة النضرة التى  
تمتد إلى الآفاق .



بدأت جولتي في الأحياء  
الأفريقية ودوائر النفوذ

الأجنبية ، وهى قسمان ( شكل ١٢٩ ) سيدة من المانشو فى الزى الصينى  
رئيسيان القسم الفرنسى (French Concession) والبوند أو شارع البحر الذى  
يشمل غالب الجاليات الأجنبية ، وأكبر الجاليات الأجنبية هناك اليابانيون ثم  
الروس ثم الانجليز والفرنسيون ، وتلك الأحياء عظيمة رائعة البناء باللغة النظافة  
والتنسيق تحكى أكبر المدن الأوروبية بل تزيد حسناً ، ولعل أكبر الشوارع  
( نانكين رود ) ، وشارع ( جوفر ) ، والبوند ، وهى مراكز الحركة التجارية  
والمالية ، وكنت أرى البوليس هنا من أجناس عدة ، المنود فى الأحياء الانجليزية  
ثم الفرنسيون فى الفرنسية ، وهكذا على أن البوليس الصينى كان يجانبهم دائماً ،  
والحركة فى الطرق تسير على أحدث النظم التى فى باريس ولندن ، ووسائل النقل  
متعددة وجلها فى أيدي الأجانب من ترام وأوتوبيس ذى طابقين هذا إلى الركشا



التي تملأ الآفاق أما (التاكسي) ففي حظائر خاصة وعليك أن تسير إليها طلباً للسيارة إن أردتها ، وترى في أرصفة الميناء في قبالة تلك الطرق الرئيسية البوارج الحربية لكافة الدول الأجنبية ، وهذا لا شك مما يجرح كرامة الصين وتآلم له كثيراً والحكومة الجمهورية القومية جادة في التخلص منها ، ومن دوائر النفوذ الأجنبي وامتيازاتها ، وإن كان الأجانب يرمون الصين بعدم الكفاءة في مباشرة ذلك بنفسها .

قصدت الأحياء الوطنية من شنغهاي ، وهي بقايا المدينة القديمة المسورة ، ولن أستطيع أن أصور مبلغ سرورى واعتباطى ، وأنا أسير بين أزقتها التي تحكى خان الخليلي عندنا ، وتكاد تحتنق بلوحات الاعلان المتلاصقة التي تزيناها بقع ملونة من الخط الصينى الواحدة تحت الأخرى ، وهناك تعرض مصورات البلاد الفنية من تصوير وخرط وترصيع وخيزران ونحاس زخرفى ، ومصاييح من ورق صينى ملون ، وفي كل تلك الطرق ترى الجماهير الدافقة متلاصقة متكافئة في مظهرهم الصينى البحت ، عيون منتفخة وخدود ناتئة وأنوف نصف فطساء وأفكاك بارزة وقامات قصيرة وشعر أسود حالك هادل . أما الهندام فلأغنياء والمتوسطين متشابه ، وكذلك للرجال والنساء وإن كان هندام الرجال أكثر جاذبية والرداء قطعتان سروال يربط فوق العرقوبين ، وهو للنساء أقصر قليلا لكي يظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوّهة ! وتعلوه شبه جمازة (جاكتة) قصيرة ، وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من جانبيه إلى ما تحت الساعد ويشتبك طرفاه بالأزرار وله ياقة عالية تأخذ بمخنتهم رجالا ونساء ، ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء ، وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب ، وإلا حمل أشياءه في منديل قد يتبعه به خادمه . أما الأحذية فمن قماش لا يقي القدمين شر الرطوبة ، ولعلها اختيرت كذلك لكيلا تشجع على المشى الذين يعدونه عيباً يلجئهم إليه العوز ، وغطاء الرأس قلنسوة من حرير . أما النقراء فرداؤهم كأنه





( شكل ١٣٠ ) في ناحية من مقصف الشاي في شنغهاي وإلى اليمين قنطرته الملتوية

البيجاما الفضفاضة من قماش أسود لامع كالجلد ، وقبعاتهم كأنها أطباق الخوص  
الخروطية المسننة .

دخلنا مقصف الشاي المشهور عند الأفرنج يرجع إلى خمسة قرون مضت ،  
وهو مجموعة من مقاصير الخشب تكسوها السقوف الصينية بأركانها المدببة تنقوس  
إلى السماء ، وهو يقع وسط بحيرة شاسعة نصل إليه بقناطر تسير في خطوط متكسرة  
إلى اليمين واليسار لكي تدفع عنهم غوائل الجن الذين كانوا ولا يزالون يخشونه  
كثيراً ، والمقصف غاص بالحركة مأجج بالناس ، وهم منكبون على تناول الشاي الصيني  
الأخضر ولا أثر للسكر فيه ، جلسنا وشربنا ذلك الشاي الذي استمتعنا به وبتلك  
الجلسة رغم أن المكان تعوزه النظافة ، وهنا شعرنا بالحياة الصينية التي تغاير حياتنا  
في مصر كل المغايرة .

وإلى مقربة منه زرنا معبدين أحدهما لبودا والآخر لكنفوشيوس وهي مظلمة  
الداخل تضاء بها مئات القناديل ويطلق البخور حول تماثيل بودا ، تحفها تماثيل  
حفظته من المردة والتنين شعار البلاد وقد أحرق القسيس لأجلنا سلسلة من أوراق

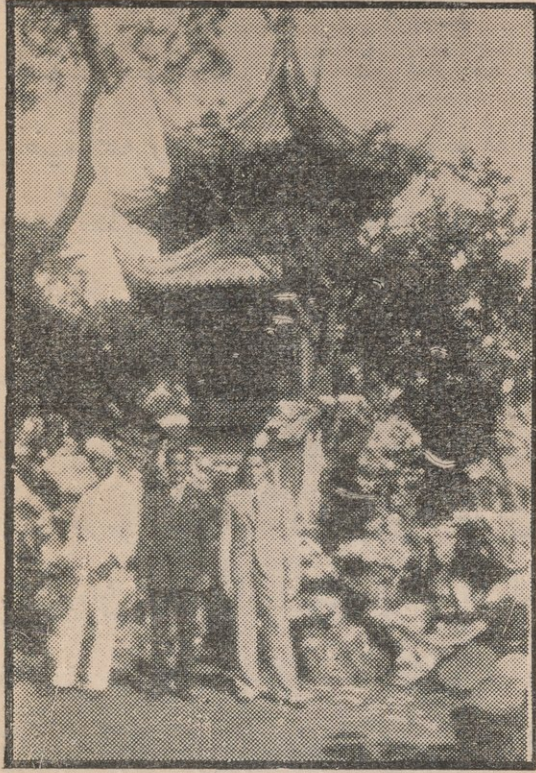


مالية زائفة فداء للآلهة ثم أطلق حزمة من بخور وناولنا إحداها تبركا لأنها تطيل العمر وتسعد الطالع ، ورأينا هناك امرأة تصلى للتمثال وهي راكعة ، وراحتاها متلاصقتان تسير بهما إلى الآلهة وتعود فتضمهما إلى صدرها وتسجد مراراً وهي تتمم وهناك مقصورة يؤمها النساء اليائسات من الحمل كي ينفك عقمن .

ثم انتقلنا إلى حديقة الماندرين أحد الحكام الأقدمين ، يتوسطها قصره في الخرط الصيني العجيب ، وبه مقصورة للاستقبال وأخرى للمائدة ، بجانبها مقعد لتدخين الأفيون الذي كان أساساً في كل بيت وثلاثة للنوم وكثير غيرها كلها تقوم وسط النقايع تغص بالسّمك الملون والصخور المنشورة وكأنها الجنادل والمنحدرات إلى شجر مزهر جميل ، مما يدل على حياة البذخ التي عاشها أولئك الجبابرة ، وفي خارج المدينة تقوم ( باجودا ) هائلة في طبقات سبع لا تزال من آيات الصين القديمة .

وشنغهاي أثناء الليل تبهر النظر وتثير الدهش من عدة وجوه ، فالأضواء والثریات ذوات الألوان الخاطفة تظل مشرفة وضاءة طوال الليل وهي في إشراق كبير ، فواجهات الأبنية الضخمة تنقشها تلك الثريات في أشكال هندسية متباينة حتى في طرقها المختنقة ، وعجيب أن تظل الحوانيت مفتحة ، وحركة البيع والشراء قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل ، قد تكون الثانية عشرة ، أما الجماهير الدافقة من كل صوب في كثافة تعيق السير في كل الطرقات ، فذاك أمر لم أره في بلد قط حتى ولا في باريس نفسها ، وكان يخيّل إليّ أن رواد الشوارع ليلاً أكثف منهم نهاراً رغم شدة التزاحم في المدينة صباح مساء ، وكلهم سائرون وكأنهم البحر المائج وقد لبثت أجوب تلك الأنحاء إلى الثانية صباحاً ، ولما تخف كثافة الجماهير ، أما ابتدال النساء فحدث عنه ، فهو يبدو في شكل مروع بين أجنبيات — وبخاصة الروسيات — ووطنيات . كل تلك المظاهر جعلتني أفهم أن للقوم الحق أن يطلقوا على شنغهاي اسم ( باريس الشرق ) فهي تفوق في ذلك ( باريس الغرب ) ،





( شكل ١٣١ ) أمام حجرة تدخين الأفيون  
في القصر القديم لحاكم شنغهاي

ويلفت النظر بوجه خاص ميلهم  
جميعاً للاختلاف إلى المراقص  
التي لا تحصى بين أجنبي وصيني .  
وقد دخلت مرقصاً صينياً ،  
وهنا تجلى التناقض التام  
والتصادم بين القديم والحديث  
فالموسيقى تدق أنغاماً أوربية ،  
والصينيون يخاضعون الصينيات  
ويعاقرون الخمر وهم يلبسون  
جلابيبهم الفضفاضة التي تحكى  
( القفطان ) ، فصور لنفسك

منظر شيخ معمم يخاصر عادة

ويراقصها ! وهؤلاء هم بالطبع النشء الثائر على الرجعية القديمة ، ولو أنى أرى في  
ذلك كثيراً من التطرف الممقوت ، ويظهر أن عدوى الأجانب وبخاصة أباحيي  
روسيا من جهة والحروب الأهلية التي بدأت منذ زمان بعيد من جهة أخرى ،  
هذا إلى تذوق شعب رجعى عتيق لحرية العصر الجمهورى ، كل ذلك كان  
سبب ذاك الاندفاع الشائن في تيار المجون .

ومن الأندية الكبيرة التي تجمع بين الألعاب الرياضية والمراهنات — تلك  
التي يتكالب عليها أهل الصين بمختلف أنواعها — مكان اسمه ( أوديتوريوم )  
لشباب أرمنى الأصل مصرى الجنسية ، يدر عليه رجلاً طائلاً وهو يوظف فيه  
جمهوراً كبيراً من هواة الرياضة ، وقد حذا حذوه كثير من المصريين أصحابه ،  
وما كنت أتوقع أن أسمع عن مصرى يغامر بنفسه وماله في مثل تلك المنشآت



في أقاصي الأرض ، وهذا الشاب ( هايج أسديان ) مذهب مثقف كان من أساطين الرياضة في مصر وظل زماناً بطل الملاكمة عندنا وهو من كبار مشجعي الحركة الرياضية اسمه يرن في أرجاء شنغهاي ويعرفه الجميع مما جعلني فخوراً أن من المصريين من بدأ يطلب العمل ( ولو في الصين ) .

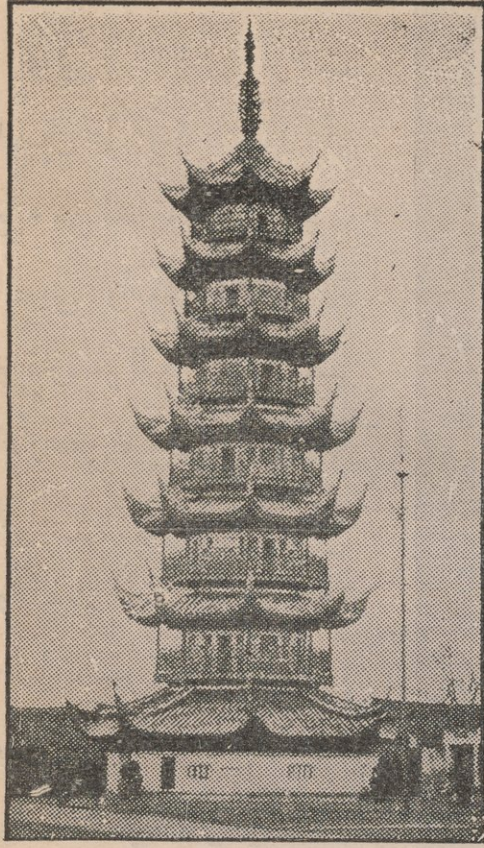
أما قيمة شنغهاي التجارية فعظيمة فهي العاصمة التجارية للصين والمصرف الطبيعي لغلات اليانج تسي أغني أحواض الصين ، وأكثفها سكاناً ، ويزيد عدد قاطنيها على مليون ونصف ، وهي بلدة حديثة العهد إذ كانت قبل سنة ١٨٤٢ مرسى صغيراً لخفاف الزوارق ، على أن مرفأها عرضة لأن تطمره الرواسب من النهرين لذلك تطلبت التطهير على الدوام ، وقد كابدت باخرتنا طويلاً من قلة العمق حتى أمنت الوقوف على الشاطئ ، وقد أقام القوم سداً عند تلاقي النهرين كي يحول جزءاً من تيار يانج تسي ورواسبه الكثيفة إلى البحر مباشرة بدل أن يسيل إلى هوانج پو فيسد الميناء .

وقد كنت ألمس الكساد التجاري من أثر الأزمة الحالية إذ كانت المبيعات تعرض بكافة الطرق وبأثمان بخسة : خذ مثلاً الحرير الذي كان يباع المتر من أنواعه الجيدة الجذابة بما بين خمسة قروش وعشرة ، ومما زاد الأزمة سوءاً هنالك إهمال الزراعة في السنوات الأخيرة وهي مورد تسعين في المائة من الناس لأن المتبحرين أصبحوا غير آمنين على إنتاجهم فأثروا إهمال الأراضي ، إلى ذلك كثرة طغيان مياه الأنهار وتوالي القحط ونزول سعر الفضة ، وهي أساس عملة الصين وبخاصة بعد أن فكرت الهند في العدول عنها إلى الذهب فباعت مقادير كبيرة منها للصين فكان ذلك من أسباب انحطاط سعرها هناك ، يضاف إلى ذلك الأثر السيء للحرب الأهلية التي أثقلت كاهل البلاد بالنفقات ، ودعت إلى إهمال الإنتاج ، وزاد الحالة سوءاً عدم اطمئنان السراة على أموالهم لذلك نقلوها إلى بلاد الشواطئ فتكدست هناك ، كذلك أوقف الممولون الأجانب إرسال فوائد أموالهم إلى بلادهم لكيلا يخسروا فرق التبادل



بسبب نزول قيمة النقد الصيني ،  
كل ذلك زاد في تكديس الأموال  
فأنحطت الفائدة وضوعف نزول  
قيمة النقود الفضية حتى كان الريال  
يساوي أربعة قروش ونصف .

الى هنج كنج (ومعناها  
النهر العطر) : قمنا مودعين شنغهاي  
تلك البلدة التي يسميها بعض  
الأجانب بحق (مدينة الشيطان)  
أو (مدينة الهوى) لما حوت من  
مختلف الملاحى وشأن المفاسد إلى  
الجلبة والضوضاء التي لا تنجو ليلا  
ولا نهاراً . أقبلت السفينة على هنج

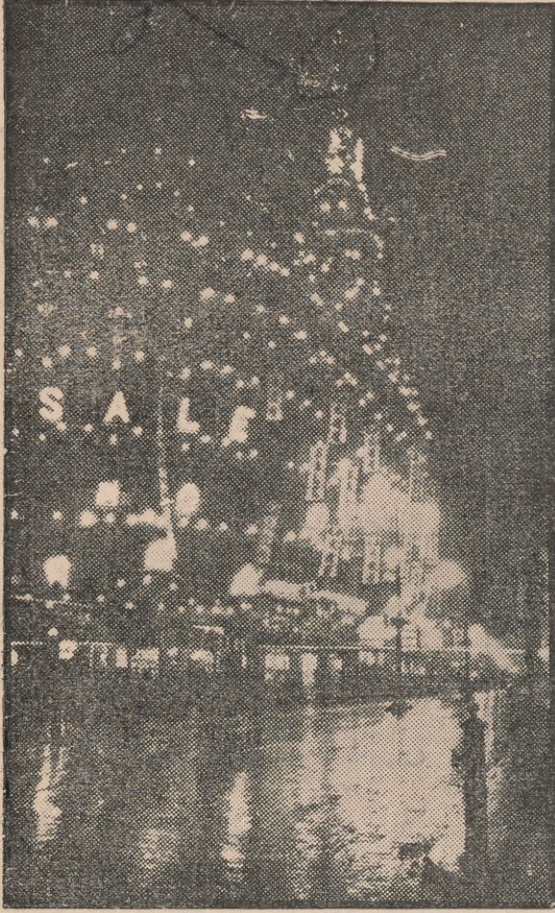


(شكل ١٣٢)

مثل من الأبراج الصينية الفاخرة في شنغهاي  
كنج في أقل من ثلاثة أيام ، وفي  
صباح اليوم العشرين من أغسطس اكهفهر الجو وباغتنا بالوابل وماج المحيط  
الهادى فأوجس الجميع خيفة عواصف بحار الصين ذائعة الصيت تلك التي ترفع  
من مياه البحر عمداً تتصل أطرافها بسحب السماء الدكناء فتعبت بالبحر وما يشقه  
من سفائن ، ولقد أبرقنا اللاسلكى فى الغداة نبأ السفينة التي أدركتها (بعد أن أفلتنا  
نحن منها) إلى الشرق منا على مقربة من جزائر الفابين فأغرقتها ، وأمثال تلك  
العواصف التي يسميها القوم (تيفون) يزيد هبوبها فى ذاك الفصل . تجأت هنج  
كنج فى صخرة سامقة كثيرة التعاريج يوغل البحر فيها بالأسن لا حصر لها تحوطها  
الربى الخلافة بكثرة نبتها نسقت على جوانبها الأبنية الفاخرة فى مدرجات بديعة  
وتعلو كثيراً من جوانبها الحصون المنيعة ، وتقوم المعسكرات العاتية ، ويقابل الجزيرة



Hong Kong SALE



من الجانب الاسيوى الى  
كاولون ، الذى أرغمت  
الصين على تركه للانجليز ، ثم  
يليه من الداخل إقليم كانتون  
الصينى ، والبوغاز بين الجزيرة  
والقارة هو المرفأ المدود عظيم  
الأرصفة نظمت على حوانبها  
المراسى ، وقد زودت بالروافع  
والقضبان تنساب فوقها  
عربات النقل تسهلا للتجارة ،  
وحركتها صاخبة لا تخبوقط ،  
وهى تعد من أجمل مين العالم  
وأمنها موقعا وأوفرها تجارة  
إذ تناهز متاجرها أربعة عشر  
مليوناً من الأطنان كل عام ،

( شكل ١٣٣ )  
الأضواء الخاطفة ليلا فى شوارع شنغهاى (باريس الشرق)  
وغالب الجانب الاسيوى للوطنين تقابله المباني الممتازة على مدرجات الربى  
التي تتألف منها جزيرة هنج كنج الكبيرة وتوابعها ، طفنا بأرجاء المدينة  
وكأنها من كبريات بلدان أوربا بالغة النظام والتنسيق غالب طرقها يعلو فى  
منحدرات قد نصعدها فى درجات عديدة اعتلينا أهمها إلى ترام هواى (فونكاير)  
إلى ١٢٠٠ قدم ثم أخذنا نسير صعداً فى طرق ثعبانية سريعة المنحدر تنقلنا من  
ربوة إلى ربوة ، وفى الذروة محطة لاسلكية هامة تحوطها الحديقة التي حوت مجاميع  
قيمة من النبات وأعلى ذروة فى الجزيرة تسمى (جبل فكتوريا) وفى أسفلها  
يشرف على البحر جمع من تماثيل عظماء الانجليز ، وفى مقدمتها الملكة فكتوريا ،





( شكل ١٣٤ )

تقف السفينة بنا في مياه هنج كنج ومن ورائنا  
صخرتها الشهيرة

وسكان المدينة من الصينيين  
وأجناد البوليس من مسلمي  
الهنود ، وفي المدينة عدد كبير  
من الهنود يقوم بالأعمال  
الوضيعة ، كالخدم وحراس  
المنازل وما إليها ، وغالب  
الصينيين من طبقة الجمالين  
(الكولي) أما غالب التجار  
وأصحاب الثروة فمن  
الأوراسيين وبخاصة الانجليز ،  
أذكر أني قصدت مطعماً فآخرأ  
ومع زميلان من مهذبى  
الهنود صحافى قدير وطالب  
يقصد إتمام تعليمه فى أمريكا  
وما أن أبصر صبية النزل

بالهنود حتى صاحوا يرفضون دخولنا إذ لا يباح دخول الهنود احتقاراً لشأنهم  
فخرجنا نجرر أذيالنا ولم أستحسن تركهما لأتناول الطعام وحيداً ، فقصدنا نزلاً آخر  
هو أدنى أبهة من الأول ، وكدنا نصادف المعارضة بعينها لولا أن ألحفنا فانتحوا بنا  
ركناً قصياً عن الآكلين كيلا يراونا أحد ، واعتذروا لنا بأن لديهم من الأوامر  
ما يمنع دخول الهنود . فقال زميلى الصحفى وهو يتحسر : أرأيت كيف يعاملنا  
الأجانب فى بلادنا ؟ وعيناه تدرقان الدموع .

وجو هنج كنج متوسط الحرارة بنزير الأمطار التى لم تكد تنقطع زهاء  
الثلاثة الأيام التى أقمتها بها ، وإن أنس لا أنسى منظر الربى الرائع إبان الليل



فكانه برج سماوى بثرياته الوضاعة تنتشر على جوانبه فى غير حصر ، وكنا نعجب للكثير من السكان الذين يقطنون زوارقهم حتى قيل إن نحو خمسين ألفاً يعيشون فوق الماء فى كانتون وهنج كنج ، وفى مؤخر الزورق قبو من خشب أو قش ينامون فيه ويعدون طعامهم وترى الأطفال الذين لا يكادون يستقيمون على سوقهم كل يمسك بسنارته أو بسلة من شبك الخيط يدلى بها إلى اليم وسرعان ما يقيمها وبها قنصه من السمك وهو غذاؤهم الرئيسى ، وتلك المدينة كسائر بلاد الصين مكتظة بالسكان إذ لا تزيد مساحتها على ٣٥٦ ميلاً مربعاً ، لكنها تؤوى من السكان ٦٦٣ ألفاً . احتل الإنجليز الجزيرة سنة ١٨٤١ ثم ضمت لها منطقة ( كولون ) سنة ١٨٦٠ وزيدت مساحتها حتى اتصلت بكانتون .

وعجيب أن تمون أرضها الفقيرة جرانيتية التربة هذه الجموع الغفيرة ، وعاصمة المستعمرة مدينة فكتوريا التى يطاق عليها اليوم هنج كنج ، وسكانها وحدها ٣٤٠ ألفاً تتوجهها قمة فكتوريا وعلوها ١٨٢٠ قدماً ويدير حكومتها حاكم عام ويعاونه مجلس تنفيذى من تسعة ومجلس تشريعى من أربعة عشر ، وللمستعمرة نقودها الخاصة وإن كانت تتبع نظام النقود الفضية ، ولذلك كان سعر عملتها قد هبط هبوطاً مروعاً كسائر بلاد الصين ، وذلك من حظ الزائر الأجنبي لأنه يجد الحياة هناك رخيصة جداً ، وهنج كنج كلة معناها الماء العذب أو النهر المعطر لكثرة مسايلها الدافقة فى خنادق متلوية ، وكان يسميها البرتغاليون قديماً ( لادرون ) أى جزائر اللصوص لما كان لأهلها من سمعة سيئة فى القرصنة إذ ذاك .

وهذا هو المكان الوحيد الذى استطاع الفرنسيون أن يدخلوا منه بلاد الامبراطورية السماوية ، كما كانت تسمى الصين من قبل ، تلك التى ظلت محوطة بالأوهام والأسرار والأقاصيص التى زادت البلاد ابهاماً ، وكانتون التى تواجه هنج كنج أكتف سكاناً ففيها مليون ونصف ، وهنا بدأت ثورة الصين ضد



نظمها القديمة فطرد حكام  
المانشو وبدأت الجمهورية  
الحديثة هنا لأن أهلها أقل  
رجعية من سكان الشمال .

قمت من هنج كننج مودعا  
بلاد الصين تلك التي عرفت  
بشدة تمسكها بالقديم إذ يوقنون  
أن أجدادهم بلغوا الكمال كما  
أيد كنفوشيوس لهم ذلك ،  
فالأسلاف هم المثل العليا عند  
الصيني لذلك قعد عن التجديد  
وخدم عقله وعجز عن استثمار أرضه



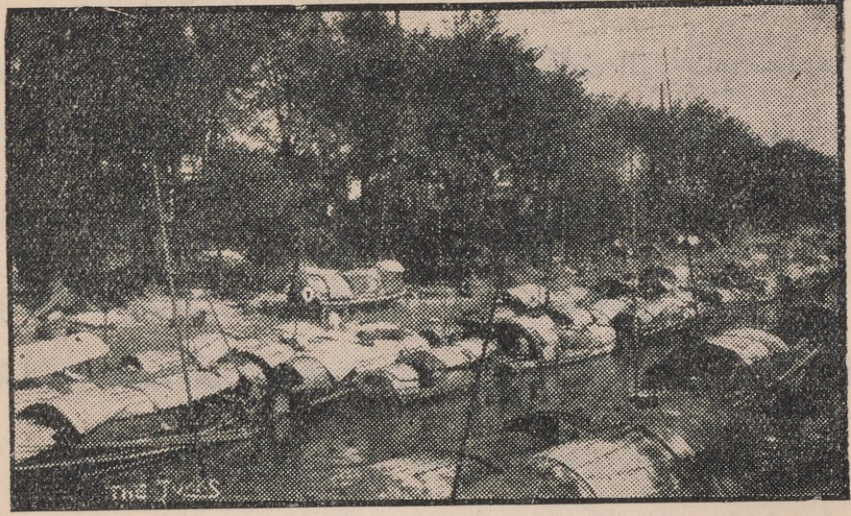
( شكل ١٣٥ ) في ميدان فكتوريا بهنج كننج

الخصبة تلك التي تركت تحت رحمة الفيضانات تارة والجفاف أخرى وأسرف  
في قطع الغابات حتى عراها عما كان يقيها شر التقلبات المناخية هناك ، ونظام العائلة  
هناك يبنى على الرهبة ، فالرباط العائلي توثقه التقاليد والدين والقانون لحد جعل  
الاخلاص للعائلة دون غيرها واجبا وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات فلم  
يحدث في تاريخ الصين أن أبناءها تعاونوا مرة على إصلاح بلادهم في أية ناحية ،  
ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم ، ولعل أسوأ أثر لتلك العزلة وذاك النفور بين  
العائلات قتل الشعور الوطني إذ لا يضحى الصيني صواح عائلته الخاصة في سبيل  
الصالح القومي العام ، ولهذا لا تعطف مقاطعة هناك على غيرها من جاراتها قط  
مهما أصابها من نكبات ، ولم يؤلفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين سواء  
من الداخل أو من الخارج ( وهنا الفرق الرئيسي بينهم وبين اليابانيين ) فالعائلة  
أساسها الأب ، وهو شبيه بالآله سلطته لا تعارض حتى لقد كان من حقه بيع  
( ١٥ — آسيا )



أولاده وقتلهم ، أما الأم فكمية مهملة ليس لها على أولادها سلطان وبخاصة الذكور حتى إذا شب الولد لا يستمع إلا لأوامر أبيه . أما البنت فمضطهدة بأسة ، لذلك لا يسأل الوالد أذكراً رزقت أم أنثى بل : أدرة أم طينة ؟ والزواج هناك مبكر جداً ، والعزوبة تكاد تكون معدومة لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية في ظنهم ، والقاعدة الزواج من واحدة لكن للزوج الحق في اتخاذ ما شاء من الخليلات على قدر ثروته فكلما كان غنياً فاخر بكثرة محظياته وبيوته التي ينفق عليها ، وكثيراً ما نرى من السراة من يحوز عشر نسوة ومن بينهم رئيس الجمهورية الحالي ، والزوجة الرسمية يدفع لها مهر بنسبة ثروتها ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات ، وإذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغاً مساوياً له ويتسلم الزوج المبلغين لاستثمارها ، والعادة أن العائلات الكبيرة ترفض أن تعطى فتياتها كخليلات مهما كان مركز الزوج ، وأقل ما يدفع مهراً للخليلة مائة جنيه ، وكنت أعجب من شبانهم حتى المثقفين وهم يتكلمون عن الخليلات وكأنه أمر طبيعي ، وبعضهم يؤثرهن على الزوجة لأن فيهن شيئاً من الحرية والتجديد وضمان النسل الكبير ! والعادة أن الزوج إذا مات لا تتزوج أرملته بل تظل طول حياتها . أما الزوجة فان ماتت فللزوج أن يتزوج من غيرها ، والميراث يقسم بالتساوي بين الذكور من الأبناء سواء في ذلك أبناء الزوجة الشرعية وال خليلات ، أما النساء فلا يرثن إلا إذا أوصى الأب بغير ذلك ، والزوجة خادمة لزوجها ولأمه ، ولا يتحسن مركزها إلا إذا وضعت ذكراً فان خلفت أنثى فياويلها ، والمرأة العقيم يجوز طلاقها وإلا تبني الرجل أحد أقربائه ، ولا يتنزل الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام رغم ما لهذا من الأثر في تربية النشء ، كذلك لا يجوز أن يأكل الإخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة ، وإذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الأناث ، ونساء الطبقة الراقية محجبات لا يخرجن إلا محمولات على ( الكراسي المعلقة ) ويخال البعض أن ذلك راجع إلى عادة تصغير الأقدام التي تعيقهم عن





( شكل ١٣٦ ) تغص أنهارهم وقنواتهم بزوارقهم التي يتخذونها مساكن لهم

السير ، وعند ما يرزق أحدهم بمولود يطلق البخور أمام الدار ، وتعلق علامة خاصة ثم يدثر الطفل بثياب آبائه لمدة شهر لكي تتسرب إليه فضائلهم ، وبعد الشهر يحلق شعره ويلبس ملابس الحمراء ، ويؤخذ رأى المشعوذين في اختيار طالع سعيد وعندئذ تقام وليمة يقدم فيها النبيذ والبيض الخضب باللون الأحمر إذا كان المولود ذكراً ، وترسل لكل مدعو بيضة حمراء وعلى المدعوين تقديم الهدايا والنقود ، والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تبون عائلة كبيرة يتخلصون من بناتهم ، وهناك خارج القرية يقوم شبه برج على ربوة يضع الرجل فوقه طفله ويتركها فيجىء الآخر ويلقى بها إلى داخل البرج لتموت ، ويضع هو طفله مكانها وبذلك لا يقتل الرجل بنته بل طفلة غيره وهكذا ، وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاحيء أن يمروا بتلك الأبراج وينقلوا ما يجدون من الأطفال إلى الأديرة لتربيتهم .

والصيني قد خلف فيه فقره وتوالى النكبات عليه الأنانية والفساد والقسوة ، وهو يرى في كثرة الموتى بسبب الأوبئة أو النكبات مخففاً لويلاته ، وقد علمت أن نسبة الوفيات في الأطفال هناك ٥٠ ٪ ، وعدد من هلكوا بسبب الحروب



الأهلية الحالية عشرون مليوناً ، لذلك شذ عن الياباني في أنه فقد روح التعاون اللهم إلا في التجارة تلك التي يحتكرها عدد من الشركات التي يناهز عددها مليوناً ونصفاً ، وهي تتفق على تحديد الثمن الأدنى . أما الحد الأقصى للثمن فيترك لمهارة البائع .

وكثيراً ما يتساءل الناس كيف لا تفي مساحة الصين الشاسعة التي تعادل مساحة أوربا بحاجة أهلها ، وهي ذات التربة الخصبة والأنهار العظيمة والأيدي العاملة المتعددة التي تقدر بربع سكان المعمورة والكنوز المعدنية الوفرة التي قيل إن الفحم وحده بها يفوق خم المجلترا عشرين مرة ، كل ذلك ولا تستطيع تلك البلاد تموين أهلها مع أن أوربا وهي أكثر سكاناً وأصغر مساحة تمون شعوبها الغنية المعروفة ، ويظهر أن السبب راجع إلى خمول الصيني رغم ما عرف عنه من صبر عظيم فهو ظل متمسكاً بوسائل الانتاج القديمة في الزراعة وأضحت بلاده حقلاً للارز تحسب مع أنهم أحصوا بالبلاد نحو ١٢ ألف فصيلة نباتية ، ولم يعن بالصناعة التي يحتقرها الجميع لأنها عمل يدوي دليل الامتهان لديهم وهي دعامة النهوض والغنى في أوربا وأمريكا واقتنع الملايين منهم بمزاولة مهنة (الكولي) للحمل وجر الأثقال تلك الأيدي التي لو تضافرت على عمل منتج لأتت بالمعجزات إلى ذلك عنايته بالماضي ، فهو يبذل كثيراً على مقابر أجداده ونعش والديه فحياته تفكير مستمر في الموت ، وساعد على هذا التأخر نظام الطبقات ، فالممتازة المحترمة لديهم اثنتان فقط : الحكام والأدباء ، ولا يزال الجاهل يحتقر نفسه ويقدر المتعلمين ، وهؤلاء هم الأقلية ، لذلك فقد رأى العام هناك لأن السواد الأعظم هم العامة والجهلة وانعدمت الطبقات الوسطى رغم أنها خير كايح في البلاد الأخرى لطغيان الطبقة الارستقراطية ، لذلك كان لهاتين الطبقتين امتيازات يعترف بها الجميع ، وهم يحتقرون العامة وترفعون عن محادثتهم ، وكثيراً ما ركب معي أمثال هؤلاء في القطار يحوطهم



جمع من الأتباع الذين يخضعون لهم خضوعاً شائناً ، وَكَانُوا يصدرون لهم الأوامر في  
صيغة الاستعبد الشائن ويصعرون لهم الخد ولا يسمحون بابتسامة لأولئك البائسين ،  
ودهشنا مرة لما رأينا أحدهم يمسح لسيده وجهه بقطيلة ( فوطه ) مبللة ونحن في  
القطار وهو لا يكاد يتحرك تيهاً وعجباً ! فعلى تلك الطبقات الممتازة تقع مسئولية  
تدهور البلاد ، لأنهم بترفهم طوال السنين عاونوا ذاك التأخر الذي أضحي مضرب  
الأمثال .

﴿ تمت بحمد الله ﴾



## فهرس الكتاب

| صفحة                                      | صفحة                            |
|-------------------------------------------|---------------------------------|
| ٧٦ ... .. سلطنة جهور                      | ٣ ... .. مقدمة الطبعة الأولى    |
| ٨١ ... .. اليابان ( نبذة تاريخية )        | ٤ ... .. » » الثانية            |
| ٨٤ ... .. كوبي                            | ٥ ... .. الهند ( نبذة تاريخية ) |
| ٩٧ ... .. إلى يوكوهاما                    | ٨ ... .. إلى عدن وأرض سرنديب    |
| ٩٨ ... .. كاماكورا                        | ١٠ ... .. عدن                   |
| ١٠٠ ... .. طوكيو                          | ١٢ ... .. جزيرة سرنديب          |
| ١١٢ ... .. إلى نكو                        | ١٤ ... .. إلى كاندى             |
| ١١٨ ... .. إلى هاكونى                     | ١٧ ... .. إلى الهند             |
| ١٢٤ ... .. إلى كيوتو                      | ١٩ ... .. مدراس                 |
| ١٢٨ ... .. أمانوهاشداى                    | ٢٤ ... .. إلى كلكتا             |
| ١٢٩ ... .. إلى نارا                       | ٣٢ ... .. إلى دارجيلنج          |
| ١٣٠ ... .. إلى يمادى أيسى                 | ٣٤ ... .. بنارس كعبة الهندوس    |
| ١٣٤ ... .. إلى أوزاكا                     | ٤٠ ... .. إلى دلهى              |
| ١٤١ ... .. النهوض الصناعى                 | ٤٧ ... .. إلى أجرا              |
| ١٥٢ ... .. خطر السكان                     | ٥٢ ... .. إلى بمباى             |
| ١٥٧ ... .. الخلق القومى والنظام الاجتماعى | ٥٥ ... .. البقر المقدس          |
| ١٦٨ ... .. إلى شيمونوزيكى                 | ٥٨ ... .. عبر الدكن             |
| ١٧٠ ... .. كوريا                          | ٥٩ ... .. الطبقات والنبوذون     |
| ١٧٢ ... .. سيول                           | ٦٤ ... .. عود إلى مدراس         |
| ١٧٥ ... .. إلى منشوريا                    | ٦٨ ... .. خاتمة                 |
| ١٧٧ ... .. مكدن                           | ٧٣ ... .. الملايو ( سنغافوره )  |



قصر الصيف ... ٢٠٠  
 السور الأعظم ... ٢٠٢  
 اللغة الصينية ... ٢٠٩  
 إلى شنغهاي ... ٢١٤  
 إلى هنج كنج ... ٢٢١

الصين (نبذة تاريخية) ... ١٨٠  
 إلى بكين ... ١٨٤  
 معبد كنفوشيوس ... ١٨٨  
 معبد السماء ... ١٩٣  
 معبد الزراعة ... ١٩٤

٧ ...  
 ٨ ...  
 ١١ ...  
 ٣١ ...  
 ٥١ ...  
 ٧١ ...  
 ٨١ ...  
 ٩١ ...  
 ١٠١ ...  
 ١١٦ ...  
 ١٢٦ ...  
 ١٣٦ ...  
 ١٤٦ ...  
 ١٥٦ ...  
 ١٦٦ ...  
 ١٧٦ ...  
 ١٨٦ ...  
 ١٩٦ ...  
 ٢٠٦ ...  
 ٢١٦ ...  
 ٢٢٦ ...

٢٣ ...  
 ٢٤ ...  
 ٢٥ ...  
 ٢٦ ...  
 ٢٧ ...  
 ٢٨ ...  
 ٢٩ ...  
 ٣٠ ...  
 ٣١ ...  
 ٣٢ ...  
 ٣٣ ...  
 ٣٤ ...  
 ٣٥ ...  
 ٣٦ ...  
 ٣٧ ...  
 ٣٨ ...  
 ٣٩ ...  
 ٤٠ ...  
 ٤١ ...  
 ٤٢ ...  
 ٤٣ ...  
 ٤٤ ...  
 ٤٥ ...  
 ٤٦ ...  
 ٤٧ ...  
 ٤٨ ...  
 ٤٩ ...  
 ٥٠ ...  
 ٥١ ...  
 ٥٢ ...  
 ٥٣ ...  
 ٥٤ ...  
 ٥٥ ...  
 ٥٦ ...  
 ٥٧ ...  
 ٥٨ ...  
 ٥٩ ...  
 ٦٠ ...  
 ٦١ ...  
 ٦٢ ...  
 ٦٣ ...  
 ٦٤ ...  
 ٦٥ ...  
 ٦٦ ...  
 ٦٧ ...  
 ٦٨ ...  
 ٦٩ ...  
 ٧٠ ...  
 ٧١ ...  
 ٧٢ ...  
 ٧٣ ...  
 ٧٤ ...  
 ٧٥ ...  
 ٧٦ ...  
 ٧٧ ...  
 ٧٨ ...  
 ٧٩ ...  
 ٨٠ ...  
 ٨١ ...  
 ٨٢ ...  
 ٨٣ ...  
 ٨٤ ...  
 ٨٥ ...  
 ٨٦ ...  
 ٨٧ ...  
 ٨٨ ...  
 ٨٩ ...  
 ٩٠ ...  
 ٩١ ...  
 ٩٢ ...  
 ٩٣ ...  
 ٩٤ ...  
 ٩٥ ...  
 ٩٦ ...  
 ٩٧ ...  
 ٩٨ ...  
 ٩٩ ...  
 ١٠٠ ...



## فهرس الخرائط والصور

| صفحة                                 | صفحة                                |
|--------------------------------------|-------------------------------------|
| ٤٢ ... حرق الجثث في كلكتا ...        | ٥ ... خريطة الهند ...               |
| ٤٣ ... ذرى الهملايا ...              | ٧ ... مستودع الماء في عدن ...       |
| ٤٤ ... شعوب الجبال ...               | ٩ ... عربات الماء في عدن ...        |
| ٤٥ ... مدرجات الكنج في بنارس ...     | ١١ ... مدخل عدن ...                 |
| ٤٦ ... الاستحمام في نهر الكنج ...    | ١٣ ... شارع رئيسي في عدن ...        |
| ٤٧ ... محرق الجثث في بنارس ...       | ١٥ ... ميناء كولبو ...              |
| ٤٨ ... القردة المقدسة ...            | ١٧ ... بين كولبو وكاندي ...         |
| ٤٩ ... الديوان الخاص بدلهي ...       | ١٩ ... القيلة تمرح في الطريق ...    |
| ٥٠ ... مسجد اللؤلؤة » ...            | ٢١ ... شجرة النرجيل ...             |
| ٥١ ... المسجد الجامع » ...           | ٢٣ ... زراعة النرجيل ...            |
| ٥٢ ... منار قطب » ...                | ٢٥ ... شجر الموز ...                |
| ٥٣ ... تاج محل باجرا ...             | ٢٧ ... قمة آدم ...                  |
| ٥٤ ... تاج محل ليلا ...              | ٢٩ ... بحيرة كاندي ...              |
| ٥٥ ... مقبرة اعتماد الدوله باجرا ... | ٣١ ... معبد السن المقدسة ...        |
| ٥٦ ... برج الياسمين » ...            | ٣٣ ... عروس سنهالية ...             |
| ٥٧ ... مسجد القلعة » ...             | ٣٥ ... زعيم برهمي ...               |
| ٥٨ ... محطة فكتوريا في بمباي ...     | ٣٧ ... متسولو البرهميين ...         |
| ٥٩ ... برج السكون » ...              | ٣٨ ... الزوج وزوجته ...             |
| ٦٠ ... عبدة النار ...                | ٣٩ ... المحراب الهندوسي ...         |
| ٦١ ... البقر المقدس ...              | ٤٠ ... البناء التذكاري في كلكتا ... |
| ٦٢ ... المنبوذون ...                 | ٤١ ... موضع الحجر الأسود ...        |



صفحة

|     |                          |
|-----|--------------------------|
| ١٠٣ | الموسيقىات المتجولات     |
| ١٠٥ | شارع جنزا                |
| ١٠٧ | قصر الامبراطور           |
| ١٠٩ | إلى معبد اسا كوسا        |
| ١١١ | التمثيل الياباني         |
| ١١٣ | معبد مييجي               |
| ١١٥ | محل متسو كوشي في طوكيو   |
| ١١٦ | معبد أياسو               |
| ١١٧ | معبد نكو                 |
| ١١٨ | طرق نكو                  |
| ١١٩ | مصاييح الورق في النهر    |
| ١٢٠ | شجرة رأس السنة           |
| ١٢١ | عيد الفتيات              |
| ١٢٢ | عيد الصبية               |
| ١٢٣ | فوجي ياما                |
| ١٢٥ | مراسيم الشاي المنزلي     |
| ١٢٦ | حقول الشاي               |
| ١٢٧ | منتزه ماروياما في كيوتو  |
| ١٢٩ | الجسر السماوي            |
| ١٣١ | أكبر نواقيس اليابان      |
| ١٣٣ | الغزلان المقدسة          |
| ١٣٥ | صخرة فوتامي أورا         |
| ١٣٧ | الأطفال يصلون            |
| ١٣٩ | قطار تحت الأرض في أوزاكا |

صفحة

|     |                         |
|-----|-------------------------|
| ٦٣  | أمير هندي               |
| ٦٥  | القردة في القطار        |
| ٦٧  | قبائل الفدا في سيلان    |
| ٦٩  | الفقراء الهنود          |
| ٧١  | » »                     |
| ٧٢  | الهندوس يتناولون الطعام |
| ٧٥  | مسجد سنغافورة           |
| ٧٧  | جمع المطاط              |
| ٧٨  | صخرة بناج               |
| ٧٩  | بيوت الملايو            |
| ٨٠  | معبد الأفاعي            |
| ٨٤  | خريطة اليابان           |
| ٨٥  | البحر الداخلي           |
| ٨٦  | حسنة يابانية            |
| ٨٧  | زينة الشعر الياباني     |
| ٨٨  | الغرام بالزهور          |
| ٩١  | مثل من بيوتهم           |
| ٩٣  | الموسيقى اليابانية      |
| ٩٥  | فقيرات اليابان          |
| ٩٦  | سوق موتوماتشي           |
| ٩٧  | ثغر يوكوهاما            |
| ٩٨  | يودا في نظراته الوديعة  |
| ٩٩  | يودا في كاما كورا       |
| ١٠١ | المدخل الرئيسي بطوكيو   |



صفحة

|     |     |     |                      |
|-----|-----|-----|----------------------|
| ١٩٣ | ... | ... | صغر الأقدام للسيدات  |
| ١٩٥ | ... | ... | الأقدام المشوهة      |
| ١٩٧ | ... | ... | منتزه في بكين        |
| ١٩٨ | ... | ... | مرصد كوبلاخان        |
| ١٩٩ | ... | ... | بوابة بكين           |
| ٢٠١ | ... | ... | شرفات الحدائق        |
| ٢٠٢ | ... | ... | قصر الصيف            |
| ٢٠٣ | ... | ... | سفينة من رخام        |
| ٢٠٤ | ... | ... | تمثال بودا           |
| ٢٠٥ | ... | ... | سور الصين            |
| ٢٠٦ | ... | ... | أزياء منغوليا        |
| ٢٠٧ | ... | ... | سد ياجوج وماجوج      |
| ٢٠٨ | ... | ... | بوابات تين تسن       |
| ٢٠٩ | ... | ... | أطفال الصين          |
| ٢١١ | ... | ... | الكتابة الصينية      |
| ٢١٣ | ... | ... | زعيم النهضة الصينية  |
| ٢١٥ | ... | ... | سيدة من المانشو      |
| ٢١٧ | ... | ... | مقصف الشاي في شنغهاي |
| ٢١٩ | ... | ... | قصر حاكم شنغهاي      |
| ٢٢١ | ... | ... | برج صيني             |
| ٢٢٢ | ... | ... | شنغهاي ليلا          |
| ٢٢٣ | ... | ... | ميناء هنج كنج        |
| ٢٢٥ | ... | ... | ميدان فكتوريا        |
| ٢٢٧ | ... | ... | زوارق الصين          |

صفحة

|     |     |     |                        |
|-----|-----|-----|------------------------|
| ١٤١ | ... | ... | سميرات اليابان         |
| ١٤٣ | ... | ... | جيشات اليابان          |
| ١٤٥ | ... | ... | النوم على الشلت        |
| ١٤٧ | ... | ... | قطف ورق التوت          |
| ١٤٩ | ... | ... | فلاحات اليابان         |
| ١٥١ | ... | ... | تربية دود القز         |
| ١٥٣ | ... | ... | مصانع الحرير في أوزاكا |
| ١٥٩ | ... | ... | التحية اليابانية       |
| ١٦١ | ... | ... | عروس في زى الزفاف      |
| ١٦٧ | ... | ... | سيدة من الاينو         |
| ١٦٩ | ... | ... | بوابة مياجيما المقدسة  |
| ١٧٠ | ... | ... | بوابة سيول             |
| ١٧١ | ... | ... | قصر سيول               |
| ١٧٢ | ... | ... | معبد شوزن في سيول      |
| ١٧٣ | ... | ... | أزياء كوريا            |
| ١٧٥ | ... | ... | حسنة كورية             |
| ١٧٧ | ... | ... | بوابة مكدن             |
| ١٧٩ | ... | ... | سيدات منشوريا          |
| ١٨٠ | ... | ... | خريطة الصين            |
| ١٨١ | ... | ... | المدينة المحرمة        |
| ١٨٣ | ... | ... | قناطر الصين الحديثة    |
| ١٨٥ | ... | ... | النعش الصيني           |
| ١٨٧ | ... | ... | معبد السماء            |
| ١٨٩ | ... | ... | محكمة صينية قديمة      |
| ١٩١ | ... | ... | الركشا                 |



# الجولات المطبوعة للمؤلف

## جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

## جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

## جولة في ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عن عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

## جولة في ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق وأفغان والأناضول والشام

## جولة في ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

عن مدهشات الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس

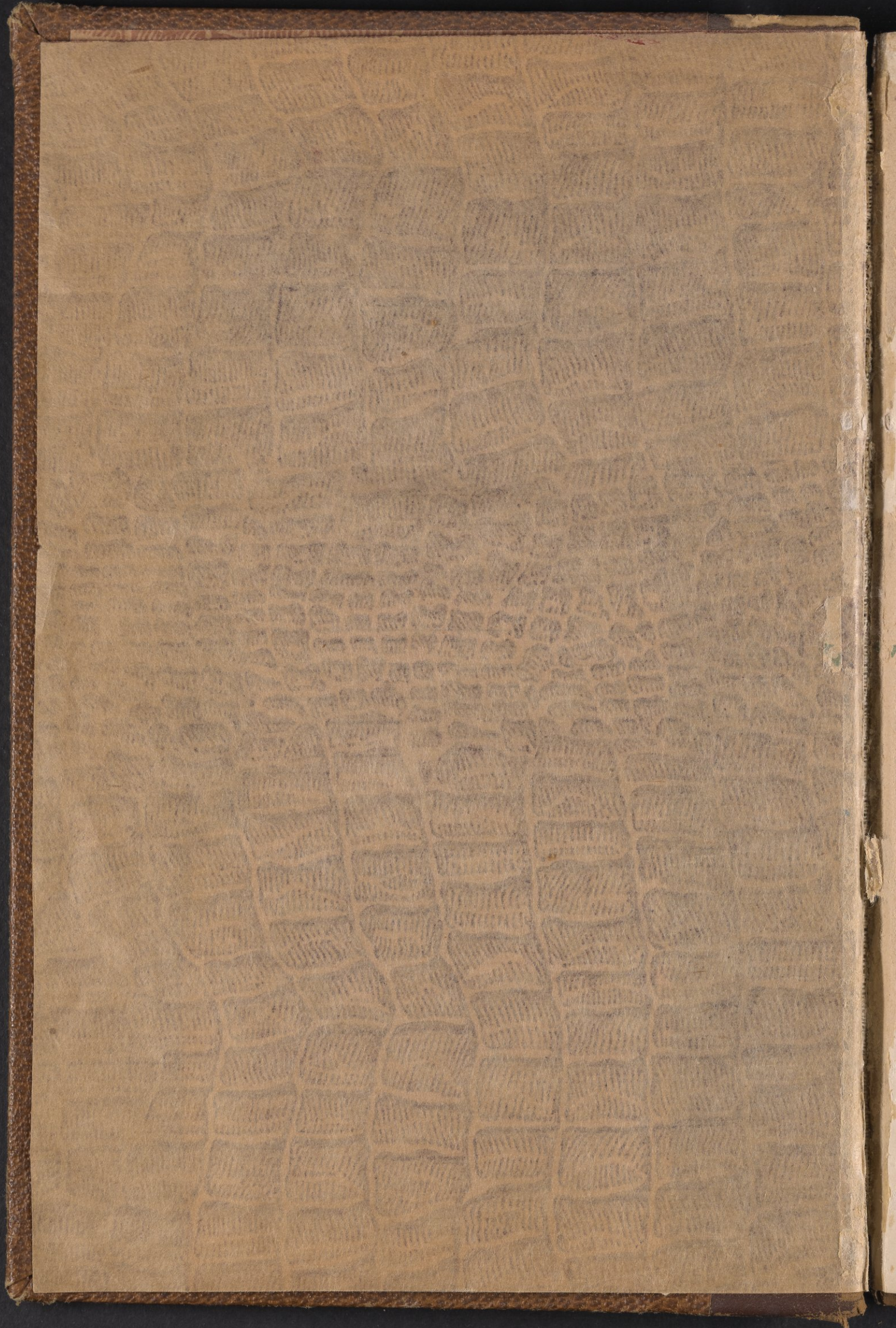


## مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

| التمن | اسم المؤلف                  | اسم الكتاب                 |
|-------|-----------------------------|----------------------------|
| مليم  |                             |                            |
| ٤٠٠   | للدكتور حافظ عفيفي باشا     | الانجليز في بلادهم         |
| ١٠٠   | » طه حسين بك                | أديب                       |
| ١٠٠   | » » » »                     | حافظ وشوقي                 |
| ٨٠    | للمرحوم أحمد شوقي بك        | الشوقيات — الجزء الثالث    |
| ٥٠    | للأستاذ حسين عفيف المحامى   | مناجاة                     |
| ٥٠    | » » » »                     | وحيد                       |
| ٨٠    |                             | جولة في ربوع أوروبا        |
| ٨٠    |                             | » » » آسيا                 |
| ٨٠    | للأستاذ محمد ثابت           | » » » إفريقيا              |
| ٨٠    |                             | » » » الشرق الأدنى         |
| ٨٠    |                             | » » » الأمريكتين           |
| ٧٠    | للأستاذ محمد صابر           | حياة الفراعنة              |
| ١٠٠   | » يوسف فهمى                 | من غور المحيط              |
| ٦٠    | للدكتور سعيد عبده           | الجمعة اليتيمة             |
| ١٥٠   | للأستاذ ابراهيم رضى         | باب القمر                  |
| ١٠٠   | » يوسف تادرس                | نابليون                    |
| ١٠٠   | » توفيق الحكيم              | عودة الروح (جزءان)         |
| ٢٥٠   | » » »                       | محمد                       |
| ٢٠٠   | للآنسة بسيمه زكى            | المطبخ الشرقى              |
| ٦٠    | للأستاذ فهمى حبشى           | مداعبات عفريت              |
| ١٠٠   | » محمد شوكت التونى          | جهاد الأمم فى سبيل الدستور |
| ٢٥٠   | للدكتور فؤاد صروف           | فتوحات العلم الحديث        |
| ٢٥٠   | » » »                       | أساطين العلم الحديث        |
| ٤٥٠   | » يوسف عبد العزيز حموده     | الأمراض التناسلية          |
|       | » أحمد خليل عبد الخالق      | رعاية الطفل                |
| ١٥٠   | للمرحوم محمد عبد الرحيم ترة | كلىة ودمنة بالصور          |

والمكتبة تحوى أكبر مجموعة من أحدث المؤلفات والمجلات والكتب أدبية وعلمية انجليزية وعربية







DATE DUE

DS

508

T5x

1936

ثابت ، محمد •  
جولة في ربوع اسيا بين مصر  
واليابان •

Barbara McQueen

84/497

APR 5 1986

DS

508

T5x

1936



MAY 1974



